جامعة النجاح الوطنية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

ظواهر أسلوبية وفنية في سورة النحل

إعداد

الطالب / أسامة عبد المالك إبراهيم عثمان

إشراف

الدكتور خليل عودة

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية

يا بكلية الآداب في جامعة النجاح الوطنية.

سنة 1422 هـ — 2001 م

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقشت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٣ وأجيزت بنجاح.

أعضاء اللجنة المناقشة:

١- د. خليل عودة رئيساً..............................

٢- د. علي الحمد ممتحناً خارجياً.......................

٣- أ.د. محمد قاسم نوفل ممتحناً داخلياً.......................

الإهداء

- إلى أمي وأبي...
- وإلى كل منفعل بالقرآن الكريم ولغته الخالدة بخلوده.

كلمة شكر

أتوجه بالشكر والعرفان لأساتذتي في قسم اللغة العربية بجامعة النجاح الوطنية، الذين شرفت باللقاء بهم والتلقي عنهم، منذ ما يربو على عشر سنين.

وأشكر أستاذي الدكتور خليل عودة، الذي تفضل بالإشراف على هذه الدراسة، وكان لتوجيهاته وتشجيعه أكبر الأثر في نفسي، فله كل شكر وتقدير.

كما أتوجه بالشكر الجزيل للدكتور الفاضل علي الحمد وأستاذي الدكتور محمد قاسم نوفل اللذين تفضلا بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة.

ولا أنسى كل من أعانني على إتمام هذا البحث سواء بإمدادي بالمراجع أو غير ذلك، وأثمن عاليا جهود الأستاذ ثابت سليمان الذي بذل وسعه في إخراج هذه الرسالة وطباعتها.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، وفصله سوراً، وسوره آيات، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي تلقّى عن ربه القرآن فأحسن التلقي، فأداه أوضح أداء، وبلّغه أجمل بلاغ، وبعد:-

فهذه دراسة أسلوبية وفنية، أتناول فيها سورة النحل، وهي سورة مكية، سوى ثلاث آيات من آخرها، آملاً أن يكون تناولها وفق هذا المنهج مفيداً ومميزاً، لما يتسم به من توظيف للغة في الكشف عن مزايا النص واستكشاف جماله، واستكناه علاقاته، دون الاكتفاء بالتناول الجزئي، سواء أكانت هذه الجزئية جزئية اللغة أو جزئية النص، ولم يكن لي أن أتناول في السورة ظاهرة لم توجد، أو أن أقحم فيها جزئية لا تحتملها، وإني وإن تناولت السورة متدرجاً في مستوياتها، إلا أن ذلك لم يجعل تلك المستويات بمعزل عن بعضها، بل لعل ذلك كان موضحاً التداخل والتقاطع فيها.

وقد سبقت هذه الدراسة بدراسات تستعصي على الحصر، فقد أحاط المسلمون القرآن الكريم بدراسات عدة ومتنوعة، وكان ذلك سبباً في تفتق علوم جديدة؛ فانبثقت ثروة علمية وفكرية هائلة، يعنينا منها – في هذا المقام– الدراسات التي تناولت أسلوب القرآن ونظمه، وهي دراسات قديمة وحديثة، وكانت في أصلها ترمي إلى إظهار إعجاز القرآن وفرادته، ومن بين الكتب القديمة كتب الإعجاز كـ " إعجاز القرآن" للباقلاني، وكتاب " النكت في إعجاز القرآن" للرماني وغيرهما، وكذلك عُنيت كتب التفسير بإظهار هذه الناحية، على تفاوت فيما بينها، ولعل الزمخشري في كتابه "الكشاف" كان أوفر المفسرين حظاً في الإلمام بهذا الجانب، مبدياً تأثراً بنظرية النظم التي فصل الجرجاني القول فيها في كتابه "دلائل الإعجاز"، ومن الدراسات الحديثة كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" للرافعي، وكتاب "الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق" لعائشة عبد الرحمن، وكتاب "من بلاغة القرآن" لأحمد بدوي، والقديمة منها أصول في هذا الفن وأركان، ولا تزال موردنا ومصدرنا، والحديثة تدل على جهد كبير وتكشف عن فوائد جمة، غير أنها لم تعنَ بتناول النص بشموله وكليته، وفق المنهج الأسلوبي، الذي يتميز بقدرته على تقصي الظواهر الأسلوبية في النص بوصفه بنية موحدة، ولا تبرز فاعليته بمادته ومعطياته – وهو المستند إلى علوم اللغة والبلاغة – بقدر ما تبرز في طريقة تناوله.

والمنهج الذي تمثّلته في هذه الدراسة هو المنهج الأسلوبي بمفهومه الواسع، وقد جمعت فيه اتجاهات أسلوبية ثلاثة، وهي:

"1. النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره خرقاً للأسلوب المعياري، أو انحرافاً عنه.
2. التعامل مع الأسلوب باعتباره نوعاً من التكرار المتوافق لأنماط لغوية بعينها...
3. التعامل مع الأسلوب باعتباره وسيلة من وسائل استغلال الطاقة الكامنة في اللغة.."([1])

وقد استقام البحث في ثلاثة فصول، جعلت الأول منها دراسة أسلوبية، والثاني دراسة فنية، أما الثالث فقد تناولت فيه أنساق السورة.

وبحثت في الفصل الأول المستوى الصوتي واللفظي والتركيبي، ومستوى المعاني، وتناولت في المستوى الصوتي البناء الصوتي للكلمات والانسجام الموسيقي في أصوات السورة، وأثر الفاصلة في إحداثه، وتعرضت للعلاقة الصوتية بين بعض الكلمات ودلالاتها. وفي المستوى اللفظي برزت ألفاظ بغنى دلالاتها وكثافة إيحاءاتها. وفي المستوى التركيبي بحثت أسلوب الشرط والحال، وهما أقرب إلى علم النحو، وأدرجت فيه موضوع التقديم والتأخير. وفي مستوى المعاني تناولت أسلوب الجملة بين الاسمية والفعلية من الوجهة البلاغية، والتوكيد والاستفهام.

وجعلت الفصل الثاني دراسة فنية، وهي ليست بعيدة عن الدراسة الأسلوبية وفيها المستوى التصويري، والمستوى البديعي، وقد نشطت في تشكيل الصورة الفنية الاستعارةُ والتشبيه والمجاز، وظهر من البديع الالتفات والثنائيات الضدّية.

أما الفصل الثالث فتناولت فيه الأنساق؛ بوصفها ظاهرة تمتد على مساحة النص، وتشكل نسيج السورة، وبرز في الأنساق نسقٌ متصاعد في وتيرته متنامٍ في دلالته، كان سبباً من أسباب حيوية النص، واستوقفتني في أثناء دراسة الأنساق ظاهرة تتعلق بالمتعاطفات التي اندرجت ضمن تلك الأنساق، وكان تلاحمها وتجانسها سبباً في تحسين النسق وسبكه.

وسجلت في خاتمة البحث ما توصلت إليه من نتائج.

---

1) عياد، محمود: الأسلوبية الحديثة، محاولة تعريف، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول، العدد الثاني، يناير 1981م، ص: (125)

الفصل الأول

دراسة أسلوبية

- المستوى الصوتي:

- البناء الصوتي للكلمات.
- الانسجام الموسيقي.
- الفاصلة وأثرها في إحداث الانسجام الموسيقي.

- المستوى اللفظي:

- إيحاءات الألفاظ

- المستوى التركيبي:

- الشرط.
- الحال.
- التقديم والتأخير.

- مستوى المعاني:

- الجملة.
- التوكيد.
- الاستفهام.

المستوى الصوتي

البناء الصوتي للكلمات

في القرآن الكريم نفي واضح عن صلة القرآن بالشعر وقد ورد ذلك في قوله تعالى: "وما هو بقول شاعر"(1)، وقوله:"وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين"(2)، غير أن هذا لا ينفي عن النص القرآني الصفة الإيقاعية والانسجام الموسيقي بين مقاطع الكلمات.. "فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر، والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون"(3).

وقد تهيئ لنا دراسة الآيات في السورة وفقاً لمقاطعها بعض الفائدة، التي تكشف عن طبيعة إيقاع السورة. "أما المقاطع الموجودة في اللغة العربية فهي في الحقيقة ثلاثة فقط هي: (س ع) و (س ع س) و (س ع س س)، ويمكن عن طريق إطالة العلة أن تصبح ستة إذا رمزنا للعلة الطويلة برمزين هكذا: (س ع ع) و(س ع ع س) و(س ع ع س س)"(4)، "والمقاطع الثلاثة (س ع ع) و (س ع) و(س ع س) هي المقاطع الشائعة في اللغة العربية ، وهي التي تكون الكثرة الغالبة من الكلام العربي"(5)، "والمقاطع الصوتية نوعان: متحرك (Open) وساكن (Closed)، والمقطع المتحرك هو الذي ينتهي بصوت لين قصير أو طويل، أما المقطع الساكن فهو الذي ينتهي بصوت ساكن"(6). ويتفوق نص على آخر بقدرة منشئه على اختيار المقاطع والمواءمة بينها، حتى يغدو النص متحدراً كتحدر الماء ... ولقد نظرت في الكلمات التي تشكل فواصل الآيات فوجدت أكثرها يبدأ بمقطع متوسط مغلق، يتلوه مقطع قصير مفتوح، وتنتهي بمقطع طويل مغلق، وقد "اصطلحوا على وصف المقطع بأنه قصير إذا لم يزد عن صوتين وبأنه متوسط إذا تكوّن من ثلاثة أصوات، أو من صوتين أحدهما طويل، وبأنه طويل إذا تكوّن من أربعة أصوات، أو من ثلاثة أصوات أحدها طويل"(7)، ومن الفواصل التي يظهر فيها التوزيع الآنف الذكر (يشركون)(1) إذ أنها مكونة من ثلاثة مقاطع على النحو التالي: يُشْـ (س ع س)،

---

1) الحاقة (4)

2) يس (69)

3) حسان، تمام:البيان في روائع القرآن، عالم الكتب- القاهرة، ط(1)،1993م، ص269

4) عمر، أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب- القاهرة، ط(1)، بلا تاريخ، ص256

5) نفسه: ص 257

6) أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط(5)،1975م، ص159،160

7) عمر، أحمد مختار : دراسة الصوت اللغوي، ص258

وهو مقطع متوسط مغلق، و رِ (س ع) وهو مقطع قصير مفتوح، و: كون (س ع ع س) وهو مقطع طويل مغلق، ومثلها (تأكلون)(5)، و(تسرحون)(6)، وكذلك (يعقلون)(12)، (تهتدون)(15)، و (يهتدون)(16)، و (تعلنون)(19)...

أما الآيات فقد اخترت منها أربعاً هي الأولى والثانية والأخيرة والتي قبلها، وقسمتها إلى مقاطعها.. ولنبدأ بالآية الأولى التي يمكن أن تقرأ تبعا لمقاطعها على النحو الآتي:

أ، تى: (س ع، س ع ع)

أمْ، رُلْ: (س ع س، س ع س)

لا،هِ : (س ع ع، س ع)

فَ، لا: (س ع، س ع ع)

تَسْ، تَعْ:(س ع س، س ع س)

جِ، لوهْ: (س ع، س ع ع س)

سُبْ، حا: (س ع س، س ع ع)

نَ، هُ: (س ع، س ع)

وَ، تَ: (س ع، س ع)

عا، لا: (س ع ع، س ع ع)

عَمْ، ما: (س ع س، س ع ع)

يُشْ، رِ: (س ع س، س ع)

كون: (س ع ع س)

وعند إحصاء المقاطع جميعها تبينت على النحو الآتي:

المقاطع القصيرة المفتوحة: (9)

المقاطع المتوسطة المفتوحة: (7)

المقاطع المتوسطة المغلقة: (7)

المقاطع الطويلة المغلقة: (2)

وتساوت في هذه الآية المقاطع المتوسطة والمغلقة، وكانت المتوسطة بنوعها هي الغالبة، "وهو ما ينسجم مع ما يميل إليه الكلام العربي شعراً أو نثراً من إيثار المقطع المتوسط بوجه عام"(1).

---

1) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر، دار القلم ببيروت، ط4، 1972م، ص171

ويمكن أن تقرأ الآية الثانية وفقاً لمقاطعها على النحو الآتي:

يُ، نَزْ: (س ع، س ع س)

زِ، لَ لُ: (س ع، س ع س)

مَ، لا: (س ع، س ع ع)

ئـِ، كَ: (س ع، س ع)

ةِ، بِرْ: (س ع، س ع س)

رو، حِ: (س ع ع، س ع)

مِنْ، أَمْ: (س ع س، س ع س)

رِ، هِي: (س ع، س ع ع)

عَ، لا: (س ع، س ع ع)

مَيْ، يـَ: (س ع س، س ع)

شا، ءُ: (س ع ع، س ع)

مِنْ، عِ: (س ع س، س ع)

با، دِ: (س ع ع، س ع)

هِي ، أنْ: (س ع ع، س ع س)

أنْ، ذِ: (س ع س، س ع)

رو، أنْ: (س ع ع، س ع س)

نَ، هُ: (س ع، س ع)

لا، إِ: (س ع ع، س ع)

لا، هـ: (س ع ع، س ع)

إِلْ، لا: (س ع س، س ع ع)

أ، نَ: (س ع، س ع)

فَتْ، تَ: (س ع س، س ع)

قون: (س ع ع س)

وعند إحصائها تظهر المقاطع القصيرة المفتوحة (20) مقطعاً

والمقاطع المتوسطة المفتوحة (11) مقطعا.

المقاطع المتوسطة المغلقة (10) مقاطع

والطويل المغلق مقطع واحد.

وفي هذه الآية يتقارب عدد المقاطع المتوسطة المفتوحة مع عدد المقاطع المتوسطة المغلقة، ويتقارب عدد المقاطع القصيرة والمقاطع المتوسطة على إطلاقها، وقد شغل المقطع القصير هذه المساحة "بحكم وضوح المقطع القصير وبساطة تكوينه بالإضافة إلى حركته الإيقاعية البارزة و المثيرة للانتباه؛ لبنائه على صورة واحدة صامت + صائت قصير"(1).

أما الآية السابعة والعشرون بعد المائة فهي على النحو الآتي:

وص، بر: (س ع س، س ع س)

و، ما: (س ع، س ع ع)

صب، ر: (س ع س، س ع)

ك، إل: (س ع، س ع س)

لا، بل: (س ع ع، س ع س)

لا، ه: (س ع ع، س ع)

و، لا: (س ع، س ع ع)

تح، زن: (س ع س، س ع س)

ع، لي: (س ع، س ع س)

هم، و: (س ع س، س ع)

لا، ت: (س ع ع، س ع)

ك، في: (س ع، س ع ع)

ضي، قم: (س ع س، س ع س)

مم، ما: (س ع س، س ع ع)

يم، ك: (س ع س، س ع)

رون: (س ع ع س)

وبلغت مقاطع الآية القصيرة المفتوحة (9)

والمقاطع المتوسطة المفتوحة (7)

والمقاطع المتوسطة المغلقة (13)

و المقطع الطويل (1)

---

1) عبد الجليل، عبد القادر: هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي، رؤية لسانية حديثة، دار صفاء للنشر والتوزيع – عمان، ط(1)، 1998م ، ص30.

وقد تقاربت أعداد المقاطع القصيرة المفتوحة والمتوسطة المفتوحة، ولم تتسع الـــهوة بيـــن المقاطع المفتوحة بنوعيها، والمقاطع المغلقة بنوعيها.

أما الآية الأخيرة فهي على النحو الآتي:

إن، نل: (س ع س، س ع س)

لا، ه : (س ع ع، س ع)

م، عل: (س ع، س ع س)

ل، ذي: (س ع، س ع ع)

نت، ت: (س ع س، س ع)

قو، ول: (س ع س، س ع س)

ل، ذي: (س ع، س ع ع)

ن، هم: (س ع، س ع س)

مح، س: (س ع س، س ع)

نون: (س ع ع س)

وفيها تساوت المقاطع القصيرة المفتوحة والمقاطع المتوسطة المغلقة، ولو جعلنا المعيـــار هو الانفتاح والانغلاق على إطلاقه، لحصل التقـــارب، حيـــث عـــدد المقـــاطع المفتوحـــة مـــن النوعين(10)، وعدد المغلقة من النوعين (8).

وليس تقسيم مقاطع الآيات وفق هذه الطريقة، اثنين اثنين، قائما على معيار محدد، وإنمـــا هو لتسهيل العرض، وإن كان قد يسهل قراءتها هكذا لعدم الإطالة.

وثمة نتائج عامة ظهرت، وتتعلق ببعض خصائص البناء الصوتي لكلمات الآيات وهـــي: أنه كان لكل آية نظام مقطعي خاص، ولم يكن هذا النظام مطردا في الآيات الأخرى، مع احتفـاظ الآيات بصفة عامة بقدر ملحوظ من التوازن والتقارب المقطعي، حيث كانت مقاطعها من النـــوع القصير المفتوح والمتوسط بنوعيه والطويل المغلق، الذي كان له موقع خاص يغلب أن يكون فـي نهاية الآية أو في نهاية قسم منها، كما حصل في الآية الأولى، وذلك بالوقف عليه، وهذا المقطـــع بطوله وإغلاقه وتوسط صوت المد له كان بمثابة القرار الذي ينتهي إليه التدفق الصوتي.

وكانت النسب بين هذه المقاطع في كل آية خاضعة لعلاقة تقابلية ما، فقد تتقابل المقاطع المتوسطة مع القصيرة، أو قد يتقابل المقطع المفتوح مع المغلق...

أما بالنسبة للإيقاع وتوالي المقاطع، فيمكن لنا الاستعانة بالنظام المقطعي المتعلق بالشعر، وهو الذي لا يتخلى عن الوزن، ليكشف لنا عن مدى اقتراب النص في هذه السورة من الوزن أو ابتعاده عنه، "ويسيطر على نظام توالي المقاطع في الشعر العربي اعتباران رئيسيان هما:

1. يجب ألا يتوالى في الشعر الواحد أكثر من مقطعين قصيرين.
2. يجب ألا يتوالى في الشعر الواحد أكثر من أربعة مقاطع متوسطة."(1).

وهذان الشرطان يكشفان في حالة تحققهما عن خضوع النص أو جزء منه للوزن، ولا يكشف ذلك بالضرورة عن انتظام هذا القدر الموزون ببحر من بحور الشعر، وليس النص في السورة مشطرا، لكن يمكن تطبيق هذين الشرطين على النص بشكل عام، دون النظر إلى مساحة محددة منه، بل بوصفه نصا متصلا متسلسلا.

وبعد النظر في الآيات الأربع، تبين اتصاف الآيتين الأخيرة والتي قبلها بهاتين الصفتين، حيث لم يتوال فيهما أكثر من مقطعين قصيرين، ولم يتوال فيهما أيضا أكثر من أربعة مقاطع متوسطة.

أما الأولى فلم تتصف بهاتين الصفتين اتصافا تاما، حيث توالى فيها أكثر من مقطعين قصيرين، وذلك لمرة واحدة أيضا، حيث توالى فيها خمسة مقاطع متوسطة، ولا أظن هذا يبعدها كثيرا عن الوزن؛ ذلك أنه لم يتكرر، ولم تكن الزيادة عن العدد كبيرة، وهذا يخرج الآية عن الوزن التام، ويبقيها في دائرة التوازن .

أما الآية الثانية فقد تحققت فيها الصفة الثانية، فلم تتوال فيها أكثر من أربعة مقاطع متوسطة، وتخلفت عنها الصفة الأولى مرة واحدة، إذ توالى فيها ثلاثة مقاطع قصيرة(2)

---

1) أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر العربي، ص172.

2) وينطبق هذا على جل آيات السورة، إلا في مواضع قليلة، توالت فيها خمسة مقاطع متوسطة أو ثلاثة مقاطع قصيرة

الانسجام الموسيقي

"الانسجام هو أن يكون الكلام لخلوه من الانعقاد متحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك، قال أهل البديع، وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه"(1). وقريب منه التلاؤم، "و (التلاؤم) حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ..."(2)، والانسجام جماع عناصر، وتتويج لصفات تتجلى في النص، منها فصاحة المفرد، وهي "خلوصه من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس"(3)،"وأما فصاحة الكلمة فقد ارتبطت بخلوها من تنافر الحروف، غير أن هذا (الخلو) السلبي يمكن أن يتحول إلى الإيجاب من خلال القول بحسن التأليف، لتصبح الكلمة الفصيحة هي التي حسن تأليفها، أي تناسبت أجراس حروفها الأصلية؛ بحيث لا يكون في نطقها عسر ولا ثقل"(4)، وقد لا يكتفى بالتناسب بين الأصوات الأصلية، ليشمل كل أصوات الكلمة؛ لأن الانسجام الصوتي لا علاقة له بالأصل أو بالزيادة، ومنها فصاحة الكلام، وهي "خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها"(5). ومن العناصر المساهمة في إحداث الانسجام المحسنات البديعية ومنها السجع والجناس، "وإذا نظرنا إلى ما يسمونه المحسنات اللفظية البديعية وجدنا هذا النوع من التحسين إنما هو تسخير واع لما يمكن للقيم الصوتية وظاهرة الحكاية أن تثيره في نفس المتلقي، يصدق ذلك على الجناس تاما كان أم ناقصا، وعلى المشاكلة اللفظية في اللفظين وما أشبههما من المحسنات"(6).

ولا فضل لنص على آخر بتركيبته المفردة وطبيعة أصواتها؛ ذلك أن العرب غربلوا اللغة فنفوا عنها ما عسر نطقه وكرهت الآذان سماعه، وإنما الفضل في اختيار مفردة دون سواها،

1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث- القاهرة، ط(3)، بلا تاريخ، ج3، ص260، 261.

2) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد احمد صقر ، دار المعارف - بمصر، ط(3)، بلا تاريخ، ص270

3) القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي-بيروت، بلا تاريخ، ص 24

4) حسان: البيان، ص308

5) القزويني: التلخيص، ص26

6) حسان: البيان، ص290

ووضعها في موضع دون سواه، مع اتساقها في بيئتها وانسجامها مع أصوات مجاوراتها. وهـــذا ما يلحظه الدارس لأصوات هذه السورة.

ولو تناولت الآية الأولى مثالا تطبيقيا نرى من خلالها كيف حدث التناسب، فإننا نلحظ أول ما نلحظ الخفة (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عمـــا يشـــركون)(1)، وأول كلماتـــها (أتى)، وهي مبدوءة بالهمزة، وتجد ما يعادلها وهي الألف الممدودة في نهايتها، على أن صـــوت الهمزة معدود في الأصوات الخفيفة، "فأخف الحروف عندهم وأقلها كلفة عليهم ... الألف واليـــاء والواو والهمزة والميم والنون والتاء والهاء والسين واللام"(1)، وقد عُدَّ أيضـــا مـــن الأصـــوات الشاقة، ولعل ما يزيد من صعوبة الهمزة أو يقلل منها ما يجاورها من الأصوات، ومـــا يكتنفـــها من حركات، فالفتحة التي صاحبت الهمزة خففت من صعوبتها وجانســـتها بعـــد ذلـــك الفتحـــة الطويلة، الألف، أما بقية الأصوات المعدودة في الخفيفة فقد كانت الغالبة على أصـــوات الآيـــة، ومن الحركات التي برزت الفتحة بنوعيها القصيرة والطويلة، وهي أخـــف الحركـــات، وتميـــل العرب بطبعها إلى الأصوات الخفيفة وتنفر من الثقيلة "أما إهمال ما أهمـــل... فـــأكثره مـــتروك للاستثـــقال"(2)، وينسجم هذا مع ما اصطلح على تسميته حديثا بقانون الجهد الأقل، أو الاقتصـــاد في الجهد العضلي و"إن الأصوات في تطورها تهدف إلى الاقتصاد في الجـــهد العضلـــي"(3). وتجانست في أصوات الآية الأصوات الخفيفة من الصوامت مع الخفيفة من الحركات، فصار لـــها جرس خاص، و"الجرس إنما هو انسجام بين النغمة الأساسية والأصوات الثانوية فـــإذا ســـمعته الآذان شعرت بالطرب الذي تشعر به حين تسمع أية موسيقى"(4).

وإلى جانب هذه الصفة صفة سمعية تتمثل في استمتاع الآذان بـــ"حروف الذلاقـــة، وهـــي أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحا وأكثرها امتزاجا بغيرها وهي ستة أحرف... وهـــي الفاء والباء والميم ... وهي الراء والنون واللام"(5)، "أما وجه الشبه بين أفراد هذه المجموعـــة

---

1) ابن جني، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم-دمشق، ط(2)، 1993م، ج2، ص118

2) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، حققه: محمد علي النجار، ط(2)، ج1، ص54

3) أنيس: الأصوات اللغوية، ص213

4) جويو، جان ماري: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة: سامي الدروبي، دار الفكر العربي-القاهرة، ط(1)، 1948م ، ص147

5) القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: الرعاية، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، بلا تاريخ، ص110،111

الفرعية كما يراه المحدثون، فهو أنها مع قرب مخرجها تشترك في نسبة وضوحها... ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين"(1)، ومنها في الآية: الميمَ والراء والفاء واللام والباء والنون، ومنها ما تكرر وهي اللام والنون والراء. ويظهر أن أصوات الآية تنازعتها صفات صوتية عامة وهي الخفة والهمس والنداوة في السمع وارتياح الآذان لأصواتها.

ويظهر الانسجام أيضا بتتبع الأصوات في مواقعها والنظر إلى الصوت ومقابلاته فيبدو في الآية الكلمات القصيرة وبعض الكلمات الطويلة، كما تتمثل فيها الحركات القصيرة ومعها الحركات الطويلة، ونلاحظ في ذلك نوعا من التوازن، والآية مكونة من قسمين، الأول (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) والثاني (سبحانه وتعالى عما يشركون)، والأولى تبدأ كلمتها الأولى بصامت تتلوه فتحة قصيرة يتلوه صامت متلو بفتحة طويلة، وتستمر الفتحة في بداية الكلمة الثانية (أمر)، وهي قصيرة تجد امتدادا لها وتجاوبا معها في المد الذي يتخلل لفظ الجلالة (الله) يتلوه صامت مصحوب بفتحة قصيرة (فلا) ومنته بفتحة طويلة، وهكذا يقوم التجانس بين الحركات، وتتراوح بين القصر والطول،/ وهذا يوفر قدرا من الانسجام، "وانسجام الكلام في نغماته يتطلب طول بعض الأصوات وقصر البعض الآخر"(2) . وبعد هذا التوالي في الفتحات حدث تحول في صوت المد إلى الواو في (تستعجلوه) ليكون بمثابة التلوين الموسيقي الذي ينفي عن الصوت الرتابة، ويختمه بهذا الصوت المختلف عن الفتحة في طبيعتها والمؤتلف معها في صفتها، وتختلف الواو عن الألف في غناها بالنغمات الموسيقية الثانوية، و"يبدو أن الألف صوت لا لون له، فقد يكون الشعور بذلك، هو سبب قلة الاعتماد عليها في القافية، وإن كثر ورودها في الحشو"(3)، ويغلب على القسم الثاني الفتحات، كما كان الأول، وتتنوع قصيرة وطويلة، وكأن الفتحات الطويلة لازمة تتكرر على مساحة الجملة، نجدها في (سبحانه) و(تعالى) و(عما) ثم ينتهي القسم الثاني بما انتهى به الأول، مقطع طويل نواته واو ممدودة، ليتم بذلك التقابل بين المد بنوعيه.

أما الكلمات الطويلة فيخفف من طولها انقسامها إلى مقاطع يمكن أن تمثل وقفات قصيرة، كما في (تستعجلوه) و(سبحانه) و(يشركون)، على أن البحث الصوتي وآثاره ليس محددا بحدود الكلمات، وإنما الآية سلسلة من الأصوات المنسابة.

---

1) أنيس: الأصوات اللغوية، ص63

2) نفسه: ص155

3) عياد، شكري محمد: موسيقى الشعر العربي-مشروع دراسة علمية، دار المعرفة-القاهرة، ط(2)، 1978م، ص147

وهكذا توافرت في الآية هذه العناصر الصوتية وغيرها؛ لتكون بداية تأخذ بيد القارئ والسامع إلى أعماق النص... و"من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقي في نهاية الحسن، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسله وأحسنه نظما وسبكا"(1).

ونجد في الآية الرابعة: (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)(4) ظهورا لأصوات مفخمة تقابلها أصوات مرققة، فمطلع الآية مبدوء بصوت الخاء المفخم، وتكتسب الفتحة تفخيمها من فخامة الصامت، وتختم الكلمة بصوت مفخم آخر هو القاف، ويتوسط المفخمين صوت مرقق وهو اللام، ويتلو هذه الكلمة التي يغلب عليها التفخيم، كلمة تقابلها في الصفة هي (الإنسان) وكلمة (من)، ثم يعود التفخيم مرة أخرى بكلمة (نطفة)، ويطغى عليها صوت الطاء المطبق والمفخم، ويتلو هذا التفخيم ترقيق (فإذا هو)، ثم يعود التفخيم ثانية (خصيم) بصوتي الخاء والصاد، وتنتهي الآية بأصوات ممتعة ومرققة (مبين)، ونلحظ من هذا تقابلا وتوازنا بين هذه الصفات، وأن الأصوات المفخمة لم تنفرد بالآية، بل جاء ما يعادلها، ونلحظ العلاقة الصوتية بين (خلق) في البداية و (مبين) في النهاية. وحتى الكلمات المفخمة جاءت سهلة على اللسان، بحركاتها فـ (خلق) صاحب أصواتها حركات، هي أسهل الحركات على الإطلاق، وهذا التركيب هو من أعدل التراكيب وأخفها...."فأكثرها استعمالا وأعدلها تركيبا الثلاثي"(2)، والطول الذي ربما لحظ في كلمة (الإنسان) مريح للسان وللأذن، بما يتوفر عليه من مد وأصوات مقاربة له هي النون واللام، وتظل أصوات المد ظاهرة ومؤدية وظيفة الوضوح السمعي في(فإذا) (خصيم) (مبين). ويبدو الانسجام واضحا في (خصيم مبين) المتقاربتين في الوزن والأصوات، ولا سيما في نهاية كل منها، ويزيد من الانسجام الإدغام بين التنوين في(خصيم) و الميم في (مبين)، حيث فنيت النون الساكنة في الميم ومع فنائها بقي ما يشعر بها "وهو الذي اصطلح على تسميته الإدغام بغنة"(3)،"وليست الغنة إلا إطالة صوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها"(4)، والالتئام يظهر في اتصال النون في(من) بالنون في (نطفة)، وهو أيضا من الإدغام بالغنة غير أن التماثل هنا تام، ويزيد ذلك من ظهور الغنة وحدوث الترنم،

1) السيوطي: الإتقان ، ج3، ص317،318
2) ابن جني: الخصائص، ج1، ص55
3) أنيس: الأصوات اللغوية ، ص69
4) نفسه: ص70

ويلحظ مع هذا تكرار لصوت النون على نحو منتظم، فكأنها مرتكز صوتي، وواضح "أن تـــردد بعض الحروف أو الكلمات قد يكسب الشطر لونا من الموســيقى تســتريح إليـــه الآذان وتقبــل عليه"(1)، وليس هذا خاصا بالشعر، إذ نجد ذلك في النون الأولى في (الإنسان) والثانيـــة فيـــها، وفي النون المدغمة في قوله (من نطفة) ثم في أثر النون المتبقي بعد الإدغام في قوله (خصيـــم مبين) وتنتهي الآية بهذا الصوت الرنان ليكون بمثابة الصدى لهذه الأصوات.

وفي الآية التاسعة عشرة انسجام صوتي، وفره تجانس أصواتها وتراوحـــها بيـــن الطـــول والقصر (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون)(19). تبدأ الآية بلفظ الجلالة مســـبوقا بـــالواو (والله) وأصواتها خفيفة سهلة يتخللها مد، والواو السابقة لها محركة بالفتحة الخفيفة، والواو هنا ليســـت مدا، وإنما هي نصف حركة، يجانسها في الكلمة التالية(يعلم) صوت الياء المحرك بالفتحة أيضـــا، ويتبعه صوت العين ذو الوضوح السمعي، ويخفف من صعوبة هذا الصوت النسبية مـــا يتلـــوه، وهي اللام فالميم، ويقابل العين هنا العين في (تعلنون)، ويخفف من صعوبتها الـــلام والنـــون... ونلحظ تجانسا بين (تسرون) و(تعلنون) وهما مسجوعتان على صوت النـــون، ومتماثلتـــان فـــي الوزن، ومتقاربتان في طبيعة أصواتهما باستثناء العلاقة بين السين في الأولى والعين في الثانيـــة، فإنها تناظرية، وليست العلاقة دائما توافقية، فقد تكون تناظرية وتوفر انسجاما، فـــأحد الصوتيـــن يعادل الآخر، الأول مهموس والثاني مجهور، والأول هادئ والثاني مسمع، ويحـــدث التجـــانس أيضا بتكرار الميم في(يعلم) و (ما) الأولى و(ما) الثانية، وتقترب الميم في (يعلم) من الميم فـــي (ما) حتى لا تفصل بينهما سوى الحركات.

وتوفر المدود انسجاما، وذلك في (ما) الأولى و (ما) الثانية، وهما متجانستان فـــي نـــوع المد، وفي (تسرون) و (تعلنون)، وهما متجانسان كذلك. ويظهر التراوح بين الطول والقصر مـن أول الآية إلى آخرها، ففي لفظ الجلالة طول وفي (يعلم) قصر، وفي لفظة (مـــا) طـــول، وفـــي المقطعين (ت) و (سر) قصر وفي المقطع (رو) طول، وفي (تع) قصر.... وهكذا حتى المقطـــع الأخير (نون).

وفي الآيتين: (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تســتخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلـــى حيـــن)(80) (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحـــر وســـرابيل

1) أنيس: موسيقى الشعر، ص49

تقيكم بأسكم...)(81) موسيقية خاصة، وهي تمثل قطعة متقاربة الإيقاع، "ولكن الإيقاع المقصود إيقاع في نطاق التوازن، لا إيقاع في نطاق الوزن، فالوزن في العربية للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر، والذي في القرآن إيقاع متوازن لا موزون"(1). والإيقاع "عبارة عن تردد ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية محددة النسب"(2). ويظهر التقارب في بدايات الجمل والنهايات، فالأولى مبدوءة بلفظ الجلالة، لتكون هذه اللفظة بمثابة المرتكز الصوتي، يتلوها(جعل لكم)، والجملة الثانية مبدوءة كذلك، ب(وجعل لكم)، والأولى منتهية بالألف المطلقة(سكنا) والثانية بالألف كذلك (بيوتا)، وبينهما (من بيوتكم) و (من جلود الأنعام) وهما متقاربتان في الأوزان، ويتلو (بيوتا) (تستخفونها) بالألف، ثم يبدأ نسق موسيقي جديد (يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) ولا يخفى التجانس فيه بتكرار كلمة (يوم) وانتهاء (ظعنكم) و (إقامتكم)ب (كم)، ويغلب على الجملة السابقة القصر في مدة أصواتها، ويظهر ذلك في (يوم) (ظعن)، إلا أن الكلمة الأخيرة (إقامتكم) يتخللها مد وهو يبقي حبل الاتصال الموسيقي بين هذه الجملة وسابقاتها ولاحقاتها أيضا، حيث تتلوها سلسلة من الأصوات الممدودة والكلمات المتجانسة(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)، وتتجانس (ومن) مع (حين)، ويتجدد هذا النسق الموسيقي في الآية التالية (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) (وجعل لكم من الجبال أكنانا)، ويتلوه نسق آخر، متواصل معه ب(وجعل لكم) ومختلف عنه في نهاياته: (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) وفي هذه الجملة تجانس داخلي يوفره تكرار الأصوات كما في (سرابيل) وفي تكرار (كم) في (لكم) و(تقيكم) و (تقيكم) و (بأسكم). ويتكرر صوت اللام وصوت السين وصوت الياء. ويظهر التجانس في مواضع السورة كلها، من ذلك (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) (86) بتكرار صوت الشين وصوت الكاف، وفي قوله (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا..)(110) بشيوع المد من جنسين متقابلين هما مد الواو في (هاجروا) و (فتنوا) و (جاهدوا) و (صبروا)، وبالألف في (هاجروا) و(ما) و (جاهدوا).

وظهر الانسجام في قوله(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)(50)، بابتداء الآية ب(يخافون) و انتهائها ب(يؤمرون)، وتخلل الآية صيغة أخرى موازية لهما (ويفعلون) ويفيد تكرار صوت السين في قوله (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون)(59) تجانسا، وتجاوره أصوات مهموسة وهي الكاف التي

1) حسان: البيان، ص269

2) مندور، محمد: الشعر العربي، ص144، عن: عياد: موسيقى الشعر العربي، ص60

تكررت والهاء كذلك والتاء والشين والحاء، والأصوات المهموسة هي الطاغية على أصوات الآية والمتواصلة فيها.

ووفر السجع في مواضع عدة الانسجام الموسيقي، من ذلك قوله (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)(6) بين كلمتي (تريحون)و (تسرحون)، وعززه تكرار (حين)، ثم الجناس بين كلمتي (تريحون) و (تسرحون)، ورغم عدم تمامه إلا أنه حقق توافقا موسيقيا، وأدى تكرار الحاء في (حين)و (تسرحون) و(تريحون) نفس الدور وكذلك عمل السجع والجناس في (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17) .

ومن المواضع التي أسهم فيها الجناس في إحداث الانسجام قوله: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير)(30) وذلك في (أحسنوا) و (حسنة) و (الآخرة) و(خير) وكما كان التقابل بالمعنى كان بالصوت، وظهر أيضا في قوله (ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي...)(69).

ويظل التجانس بين أصوات السورة الصفة الملازمة حتى الآية الأخيرة، وفيها تتقارب الأصوات وتتواصل، ولا ينقطع الاتصال بانتهاء الكلمات (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(128)، ويشيع صوت النون فيها الترنم، تسمعه في (إن) مشددة، ومعلوم "أن الغنة مع النون المشددة تهب نغمة موسيقية محببة إلى الأذن العربية"(1). ويستمر صوت النون في الآية إلى آخرها، وتؤازرها في تكوين صوت الآية الميم، وهي شقيقتها، وتدغم في قوله (هم محسنون)، ويشترك في تكوين نغمات هذا الصوت أصوات المد في لفظ الجلالة (الله) و (الذين) الأولى والثانية، و (محسنون) ولا تخفى العلاقة المخرجية بينهما، واختصاصهما بنسبة عالية من الوضوح السمعي، والصوت الثالث هو صوت اللام، وثمة أصوات أخرى تأتلف جميعا في هذه الآية.

وكما اتصف مطلع السورة بالسهولة والخفة والانسجام اتصفت خاتمتها بتلك الصفات، وكما ختمت الأولى بالنون المسبوقة بالواو المدية، انتهت خاتمتها بهما كذلك، والخواتم "مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع"(2). ويختار صوت النون بما يحمل من صفات

---

1) أنيس: الأصوات اللغوية، ص72

2) السيوطي: الإتقان ، ج3، ص298

تجعله من أطول الأصوات وأوضحها وأعذبها بعد أصوات المد؛ ليكون نهاية لصوت السورة مسبوقا بصوت مد مسبوق بنون، "وأصوات اللين بطبيعتها أطول من الأصوات الساكنة.... ويلي أصوات اللين في الطول الطبيعي الأصوات الأنفية: وهي النون والميم فهما من أطول الأصوات الساكنة..."(1).

1) أنيس: الأصوات اللغوية، ص 154

الفاصلة وأثرها في إحداث الانسجام الموسيقي

و"الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني"(1)، وكما تؤدي الفاصلة هدفا معنويا، فإنها تحقق غرضا جماليا، و "تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام"(2)،"والفاصلة قيمة صوتية ذات وظيفة تراعى في كثير من آيات القرآن، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة"(3). ولهذا علاقة بطبيعة العرب بخاصة والناس بعامة، إذ أن العرب كانوا أكثر احتفاء بالنص الموسيقي من غيره، "وفي رأيي أن هذه الظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تعزى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية، حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي، فاكتسبت تلك الآذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة..."(4)، غير أن الفاصلة الموسيقية لم تكن على حساب المعنى، بل إنها – على العكس من ذلك – كانت عاملا من عوامل تعزيزه، بتهيئة المتلقي للاستجابة لمضمون الكلام، مع استجابة أذنه لموسيقاه. "وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو المد، وهو كذلك طبيعي في القرآن"(5).

وهكذا كانت معظم فواصل السورة منتهية بالنون التي أتت فاصلة مئة وعشر مرات، والميم ست عشرة مرة والراء مرتين. وتجتمع هذه الأصوات الثلاثة في صفات معينة، و "لقد سمى بعض القدماء هذه الأصوات الثلاثة بالأصوات الذلقية... ولا شك أن المؤلفين القدماء قد أحسوا بالعلاقة الصوتية بين هذه الأصوات، أما وجه الشبه بين أفراد هذه المجموعة الفرعية كما يراها المحدثون، فهو أنها مع قرب مخارجها تشترك في نسبة وضوحها السمعي.. "(6). وهي بذلك تسهم في إحداث الانسجام الصوتي في السورة، "وأساس الانسجام هو الوحدة مع التعدد"(7). وهي بهذا التوالي المنتظم في نهاية كل آية، توفر ارتياحا لأذن المتلقي، وتضمن للنص – مع وسائل غيرها – وحدته واتساقه. "على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر

---

1) السيوطي: الإتقان، ج3، ص290

2) نفسه . ج3، ص 292

3) حسان: البيان، ص281

4) أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1976م، ص 195

5) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي- بيروت، بلا تاريخ، ص217

6) أنيس: الأصوات اللغوية، ص63

7) عبد القادر، حامد: دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية، ط(1)،بلا تاريخ، ص 103

والشعر جميعا، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة... وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي"(1).

ولا بد من الالتفات إلى موقعية الفاصلة، إذ أنها في نهاية الآية، والخواتم "أيضا مثل الفواتح في الحسن؛ لأنها آخر ما يقرع الأسماع"(2)، وهذا ما يفسر اختيار النون والميم والراء، تلك الأصوات السهلة الندية في السمع والمحبوبة إلى الأذن، وتصاحب النون والميم الغنة، "وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقي محبب فيها"(3)، وكأن هذا الصوت يبقى مترددا تردد الصدى؛ ليبقى المتلقي فترة أطول تحت سلطان النص. وتطغى النون أكثر من الميم والراء، وهي وإن كانت والميم تشتركان في مصاحبة الغنة، إلا أنها أكثر اتصافا بها منها، وأكثر إطرابا منها، ولخصوصية النون جيء بها للترنم بدلا من الألف "وتنوين الترنم، وهو الذي يلحق القوافي المطلقة بحرف علة، كقوله:

أقلي اللوم – عاذل – والعتابن وقولي إن أصبت لقد أصابن

فجيء بالتنوين بدلا من الألف لأجل الترنم"(4). وأما الراء فقد أتت فاصلة في قوله تعالى: (إن الله على كل شيء قدير)(70) و(إن الله على كل شيء قدير)(77)، وتتصف الراء – فوق الصفات التي ذكرت – بصفة التكرير، ولا سيما إذا كان ساكنا أو مشدودا ومعروف أن "مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس"(5)، "ولأمر ما كان الوقوف على رؤوس الآية سنة إلا أن يفسد المعنى"(6)، وتأثير التكرير قريب من تأثير الغنة المصاحبة للنون والميم، والتكرير صفة قوة، "ومنها (المكرر) وهو حرف شديد"(7).

---

1) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط(4)، 1978م، ص 85

2) السيوطي: الإتقان، ج3، ص320

3) أنيس: الأصوات اللغوية، ص70

4) ابن عقيل العقيلي الهمداني المصري، بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بلا تاريخ، ج1، ص18،19

5) السيوطي: الإتقان، ج3، ص314

6) حسان: البيان، ص279

7) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – بالقاهرة، دار الرفاعي – بالرياض، ط(3)،1988م، ج4، ص435

أما الردف وهو ما قبل الحرف الأخير فقد جاء موزعا بين والواو والياء بوصفهما حرفي مد، ووردت الواو خمسا وثمانين مرة والياء ثلاثا وأربعين مرة، ويجتمعان في صفة المد، ويصل إلى ست حركات، لوجود السكون على آخر الفاصلة، ويتضافر مع الحرف الأخير في إحداث الترنم، "أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو ما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت"(1)، ولهذه الأصوات صفة أخرى وهي الوضوح، وهي رنانة أكثر من السواكن، "إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو"2، و"بين الياء والواو قربا ونسبا ليس بينهما وبين الألف... وتراهما يجتمعان في القصيدة الواحدة ردفين"(3)، ولعل السبب في صلاحية الواو والياء أن تكونا ردفين أكثر من الألف، أن الأخيرة أعلاهن في صفات المد وأكثرهن اتساعا، وقد أطلق عليه صفة "(الهاوي) وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه اشد من اتساع مخرج الياء والواو؛ لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك"(4)، فلما كان هذا حال الألف وصفته، كان أبعد ما يكون عن بقية الحروف، وكانت الواو والياء أقرب منه إليها، وأقرب إلى التكيف معها ومجاورتها؛ "وذلك لأن الياء والواو بمنزلة التي تدانت مخارجها لكثرة استعمالهم إياها وممرها على ألسنتهم"(5)، وكان الأنسب للألف أن تكون نهاية الكلمة... وما يؤكد هذا القول هو نسبة الواو إلى الياء، فقد تكررت الواو خمسا وثمانين مرة وتكررت الياء ثلاثا وأربعين مرة، ومعلوم أن الياء تلي الألف في الاتساع، "وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها وأخفاهن وأوسعهن مخرجا: الألف، ثم الياء، ثم الواو"(6)، وهذا يؤكد القصد إلى التناسب بين الأصوات المنتهية بها الآيات، والملحوظ اقتران الميم بالياء، فلم يأت ردف الميم إلا ياء، في حين كان ردف النون واوا وياء.

أما الأصوات السابقة للردف فقد كثر منها الأصوات العذبة كصوت الراء حيث ورد ستا وعشرين مرة وصوت الباء إحدى عشرة مرة، وصوت اللام كذلك، ومن الأصوات المهموسة صوت الحاء، وقد ورد عشر مرات، وصوت الكاف تسع مرات، ومن الأصوات القوية صوت

---

1) سيبويه: الكتاب،ج4، ص204

2) ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، ص8

3) نفسه: ج1، ص8

4) سيبويه: الكتاب، ج4، ص435،436

5) نفسه: ج4، ص365

6) نفسه:ج4، ص 436

القاف، الذي ورد تسع مرات، ثم أصوات أخرى جاءت أقل من سابقاتها، ومنها العين والظاء والفاء والشين والتاء والهاء.

وقد "قسم البديعيون السجع، ومثله الفواصل إلى أقسام مطرف و متواز ، ومرصع ومتوازن، ومتماثل..."(1) بناء على اعتبارات من الوزن والتقفية والمعنى، وما يهمنا في هذا الموضع هو النظر إلى الفواصل من ناحية الوزن والتقفية، وإذا نظرنا إلى فواصل السورة وفق هذين المعيارين، نرى أن الآيات كانت تجيء بوزن واحد وقافية واحدة ثم يتحول نسقها في الوزن أو في القافية، فمن بداية السورة تتشكل الآيات وفق قافية واحدة ووزن واحد حتى الثالثة على النحو التالي: (يشركون)(1)، (فاتقون)(2)، (يشركون)(3)، ثم تتحول الرابعة عن الوزن، وتبقى النون قافية، لتصبح (مبين)(4)، ويعود نسق الآيات بالوزن السابق والتقفية السابقة في الخامسة (تأكلون)(5) والسادسة (تسرحون)(6)، وبعدها يأتي على غرار الفاصلة الثانية وزنا، وباختلاف القافية إلى الميم (رحيم)(7) وهكذا نجد الآيات متراوحة بين هذين الوزنين، وهاتين القافيتين، إلا أن هذا التعدد هو تعدد الانسجام، لا تعدد التنافر. "وأساس الانسجام هو الوحدة مع التعدد، أي اجتماع عناصر مختلفة وائتلافها بحيث تكون وحدة مترابطة الأجزاء متناسبة العناصر"(2). وهذا التناسب حصل بين تلك الفواصل بتقارب الوزن وتقارب أصوات الفاصلة، أما تفسير ذلك التحول في النسق فربما احتاج إلى إشراك المعنى للكشف عن طبيعة تلك الأنساق، وأسرار انتهائها أو انحلالها... وقد يكون مرد هذا التنوع الحاصل في فواصل السورة إلى طولها، وطول آياتها، وذلك بخلاف السور القصار والقصيرة الآيات... ذات الإيقاع السريع والجمل القصيرة المتلاحقة.

---

1) السيوطي: الإتقان، ج3، ص311

2) عبد القادر، حامد: دراسات في علم النفس الأدبي، ص103

مناسبة الأصوات للمعاني

في اللغة العربية مفردات تكشف عن معانيها؛ وذلك بما تحمله أصواتها من دلالات "فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب؛ وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف"(1)، "وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني"(2)، فـ"هناك إذن نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات، وهي التي نطلق عليها اسم الدلالة الصوتية"(3)، هذا في اللغة العربية، والقرآن الكريم، بهذه اللغة نزل، فحمل من خصائصها، هذه الخصيصة؛ ذلك أن "طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحسن الكلمة وصفتها"(4).

وفي السورة ألفاظ أسهمت أصواتها في تصوير المعنى وذلك بـ"استعمال حكاية الصوت للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعاني الطبيعية، التي تضيف إلى المعاني العرفية للألفاظ أبعادا إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تحمله حكاية الصوت من طاقة إيحائية"(5). نذكر في هذا المقام أبرزها... ومنها (مواخر) في قوله: (وترى الفلك مواخر فيه...)(14)، والحديث هو عن السفن في البحر، و"المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو صوت جري الفلك بالرياح"(6). وتذكرنا هذه اللفظة بالألفاظ التي تحاكي أصواتها صوت مسماها، كخرير الماء وصرصرة البازي...، والكلمة مبدوءة بالميم وهو "حرف شديد، يجري معه الصوت؛ لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من الفك واللسان لازم لموضع الحرف... وهو النون

---

1) ابن جني: الخصائص، ج1، ص65

2) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: المزهر في علوم اللغة وانو أعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوي، دار التراث – القاهرة، ط(3)، بلا تاريخ، ج1، ص47

3) أنيس: دلالة الألفاظ، ص46

4) الرافعي: إعجاز القرآن، ص214

5) حسان: البيان، ص293

6) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بلا تاريخ، ج2، ص404

وكذلك الميم"(1)، وللحرف الأول دور كبير في تشكيل المعنى، وصوت الميم ذو الغّنة الواضحة يشبه صوت الفلك الناتج عن شقها الريح، ويشبه صوت الخاء صوت شق السفن الماء، وصوت الخاء من الأصوات المفخمة، ويزيد من تصوير المعنى وإطالة زمانه صوت الألف؛ لأنه من الأصوات الطويلة، وهو صوت طليق، "وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو"(2). ويسهم صوت الراء في نقل هذه الحركة القوية والهادئة معاً، وهو من حروف الذلاقة، "وهي أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحاً"(3)، والإحساس المتكون هو إحساس في الحياة المستمرة وبالهدوء والدعة.

وتحكي (خرَّ) في قوله: (فخرَّ عليهم السقف من فوقهم)(26) ذلك الصوت الناتج عن سقوط السقف كله دفعة واحدة، ويدل في اللغة على "اضطراب وسقوط مع صوت. فالخرير: صوت الماء..."(4). والكلمة مكونة من صوت الخاء المفخم والراء المضعفة، والخاء مفتوحة، وفتحتها مفخمة كذلك، "والتفخيم غلظ وسمن يدخل على صوت الحرف، فيمتلئ الفم بصداه"(5). والصوت الثاني في الكلمة هو الراء "(المكرر)، وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره..."(6)، وتصور الكلمة بطبيعة أصواتها وقصر مدتها سرعة السقوط مع قوة الصوت واستمراره، "فالمعنى أنه نزل ذلك السقف عليهم بغتة؛ لأنه إذا كان كذلك كان أعظم في الزجر"(7).

ومن الألفاظ الموحية أصواتها بمعناها لفظة: (تجأرون) (... ثم إذا مسكم الضرُّ فإليه تجأرون)(53). ويبرز من أصوات هذه الكلمة الجيم والهمزة، والجيم صوت شديد، والهمزة صوت قوي، و "الهمزة حرف ثقيل (8)"، وهو من أشق الأصوات إنتاجا؛ لذلك مالت العرب

---

1) سيبويه: الكتاب، ج4، ص435

2) نفسه: ج4، ص435، 436

3) القيسي: الرعاية، ص110، 111

4) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم المقاييس في اللغة، حققه: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر – بيروت، ط(1)، 1994م، كتاب الخاء، باب ما جاء من كلام العرب أوله خاء في المضاعف والمطابق والأصم .

5) ملحس، محمد سعيد محمد علي : أحكام تجويد القرآن، شركة عبد الرحمن حجاوي نابلس، ط(14)، بلا تاريخ، ص40

6) سيبويه: الكتاب، ج4، ص435

7) الرازي، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين: تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط(1)، 1981م، ج20، ص21

8) القيسي: الرعاية، ص74

إلى تسهيله، وهو في الوقت نفسه، ذو وضوح سمعي، لذلك سمي بالجرسي؛ "لأن الصوت يعلو بها عند النطق بها... والجرس في اللغة الصوت. فكأنه الحرف الصوتي، أي المصوت به عند النطق به وكل الحروف بصوت بها عند النطق بها، لكن الهمزة لها مزية زائدة في ذلك"(1)، وقد جاورت الهمزة الجيم؛ والفتحة بينهما حاجز غير حصين. ويتصل هذا الصوت القوي والمصحوب بالمعاناة بصوت الراء، ويطول أمده بالواو، وينظر إلى الواو هنا بوصفها صوت مد، لا بوصفها ضميرا، ويمد إلى ست حركات،"وكانت العرب تمد عند الدعاء وعند الاستغاثة وعند المبالغة في نفي الشيء، والمد هو زيادة مط في حرف المد على المد الطبيعي فيه"(2)، ويكشف طول الصوت عن طول مدة الصياح، "وحروف العلة تؤدي مهمة جليلة في اللغة العربية، حيث تعتبر أساسا لقوة الإسماع SONORITY في هذه اللغة الراسخة القدم في تاريخ المشافهة"(3)، وتنتهي الكلمة بصوت النون المجهور. وبعد، فهم يحدثون صوتا قويا عاليا مصحوبا بالمعاناة والألم، ويحمل الصوت معاني الترجي والضراعة، "والجؤار في الأصل صياح الوحش، واستعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة"(4).

وتشعر كلمة (يتوارى) في الآية: (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به..)(59) بمعنى الاختفاء والذهاب في البعد، ذلك ما وفره صوت المد في آخرها، والكلمة منتهية بمقطع مفتوح ما يشعر باستمرار الفعل، ويحس السامع من أصوات الكلمة، ولا سيما الألف الأولى بعد الواو والثانية بعد الراء خفاء تلك الحركة ورغبة صاحبها بالانسحاب خلسة، ويكشف هذا عن حالته النفسية ومدى خجله مما بشر به، ذلك أن حروف المد هي "أخفى الحروف لاتساع مخرجها. وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف"(5). كما تسهم معها في الكشف عن طبيعة الموقف وتفاصيله ألفاظ أخرى، هي (سوء) و(بشر)، إذ تكشف الأولى بما فيها من مد عن مقدار إحساسه بقبح الخبر، "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، ومما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها"(6). أما

---

1) نفسه: ص108

2) الرافعي، اعجاز القرآن، حاشية ص65

3) حسان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م، ص71

4) الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بلا تاريخ، ج14،ص165

5) سيبويه: الكتاب، ج4، ص436

6) الرافعي: إعجاز القرآن، ص215

كلمة (بشر) فأبرز ما فيها الشين، وهي الصوت المتفشي، و"سميت بذلك؛ لأنــــها تفشـت فــي مخرجها.. ومعنى (التفشي) هو كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنــك وانبســاطه فــي الخروج عند النطق بها"(1).

ويزيد من قوة هذه الصفة تضعيف الصوت. وبمقدار انتشار الخبر وسوء وقوعــــه علــى صاحبه كان منه ذهاب واختفاء.

"ويرق التعبير في جو السكن والطمأنينة، وهو يشير إلى الظلال والأكنان في الجبال وإلــى السرابيل تقي في الحر وتقي في الحرب"(2)، نجد ذلك في الآية (والله جعل لكم من بيوتكم ســكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم...)(80)، وكذلك في الآيــة (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكــم ســرابيل تقيكــم الحــر وسرابيل تقيكم بأسكم)(81)، وفر هذا الجو أحرف اللام في (والله)و (جعل) و (لكــم) و (جعــل لكم) و (جلود)، وكذلك الآية الثانية (والله جعل لكم) و (خلق) و (ظلالا) وغيرها...، واللام مــن "الحروف المذلقة.. وهي أخف الحروف على اللسان وأحسنها انشراحا"(3)، وكذلك تــبرز فــي الآيتين الأصوات المهموسة، كالسين والكاف والتاء التي ترتاح الأذن لسماعها ويرتاح الإنســان في نطقها..

ويبرز في(تشاقون)في الآية: (أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم)(27) صـــوت الشــين المتفشي، الموحي بالانتشار والمخاصمة، وتبعه مد بالألف ليزيد من الدلالة،ويصل إلى القـــاف، وهو من الحروف المجهورة والشديدة تتلوه الواو الممدودة، ما يعنـــي أنــهم كــانوا ينــازعون ويشتتون أنفسهم والآخرين عن الحق، ويفعلون ذلك مجاهرين.

وثمة ألفاظ منتهية بالمد وبمقاطع مفتوحة تركت للسامع أن ينتهي بإحساسه إلى الغاية فــي معانيها، من ذلك قوله تعالى (فسيروا في الأرض فانظروا)(36) ويشعر انتهاء الكلمتين بــالمقطع المفتوح الطويل بأن السير والنظر أمران دائمان غير قابلين للانقطاع، بدوام مـــا يســار عليــه وكثرته، وما ينظر فيه وتعدد دلالاته. ومثلها (أقسموا) في (وأقسموا بالله جـــهد أيمانـــهم)(38)، حيث يدل على استماتتهم في القسم وتناهيهم فيه، والعلاقة بين كمية الصـــوت ومقــدار الدلالــة

1) القيسي: الرعاية، ص109

2) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط(7)، 1971م،ج13، ص269

3) القيسي، الرعاية، ص 110- 111

وثيقة، ومقصودة في استعمال اللغة ومعهود العرب. ومثل هذه الكلمات كثيرة في السورة، كقوله (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا)(41)، وكذلك (الذين صبروا..)(43) و(الأعلى في:(ولله المثل الأعلى)(60).

وأفاد تضعيف الصوت زيادة للمعنى في مفردات منها (ينزِّل) في قوله (ينزِّل الملائكة..)(2) ليدل على أن التنزيل عادة مستمرة له تعالى و، ولا يخفى أن (ينزل) أغنى دلالة من يُنْزِل، وكذلك (يذكرون)(13)، ووردت في معرض المدح والحث على التذكر، فلا بد أن تدل على أعلى درجات التذكر، كما أنها تشعر بضرورة تكلف الذكر؛ ذلك أن أصل الفعل يتذكرون. ولهذه الألفاظ نظائر أخرى في السورة.

وتحمل الكلمتان (تريحون) و (تسرحون) بأصواتهما معاني تعزز معناهما المعجمي، في قوله تعالى: (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)(6)؛ ذلك أن الأولى؛ مكونة من أصوات سهلة هادئة، فالتاء مهموسة والراء من حروف الذلاقة، والياء صوت مد لا يعترضه عند النطق به شيء، والحاء صوت مهموس والواو صوت مد كذلك ينتهي إلى النون ذات الميزات المعروفة. وكذلك أصوات (تسرحون) التي تدل على أن التسريح يتم بهدوء وسلامة، وهما بذلك تتوافقان والجو العام الذي يشيع في الآية، وهو جو الجمال والاستمتاع بمظاهر الحياة المفعمة، و "اعلم أن وجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة والتسريح الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها، وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها"(1)

وتحكي أصوات (تقلبهم) في (أو يأخذهم في تقلبهم..)(46) المعنى بتغير حركاتها، تَ، قَ، لّ، لُ، بِ، هِمْ، وقد تقلبت الحركة من فتح إلى سكون فضم فكسر، وهي متنوعة في الخفة والثقل، والسهولة والصعوبة، وجاءت كلها من المقطع القصير المفتوح باستثناء الأخير؛ إذا وقفنا عليه.

وقريب من هذا الكلمة (تسيمون)(10) الواردة في قوله (.. ومنه شجر فيه تسيمون)(10) إذ تعزز أصواتها معناها العرفي، حيث ناسبت المدود فيها طبيعة المعنى، والمراد إبراز طول عملية الإسامة، واتساع حيزها...

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص 233

المستوى اللفظي

إيحاءات الألفاظ

تبدأ السورة بالفعل (أتى)(1) الموحي بالحركة، وقد جاءت حركته ملائمة لبيئتها وغايتها، أما بيئتها فهي استهلال السورة، وبها أوحت بالانطلاق، وأما غايتها فهي التقوية والتوكيد. " والصفة الثانية من صفات الجمال في الحركات هي الانسجام، أعني ملاءمة الحركة لبيئتها وغايتها"(1).

وقد اسند الفعل إلى "أمر الله " ليفيد تشخيصا وتصويرا، "وقد يجسم القرآن المعنى، ويهب للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنى، وتمثيله بالنفس، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكنية"(2). وتدل لفظة " أمر " على العموم، وحين أضيفت إلى لفظ الجلالة زادت معاني الهيبة فيها " والتعبير عن ذلك بأمر الله للتهويل والتفخيم وفيه إيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه منوط بحكمة الله تعالى النافذة وقضائه الغالب"(3).

ويتجلى حسن الاختيار في كلمة الروح لتدل على الوحي " ينزل الملائكة بالروح من أمره"2 وهذا ملمح بارز في أسلوب القرآن، "واعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة، قد يخبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال"(4).

وتدل اللفظة على " سعة وفسحة واطراد"(5) والروح " نسيم الهواء وكذلك نسيم كل شيء "(6) وتدل أيضا على الحياة الدائمة، وقوله تعالى " فَرُوح وريحان على قراءة من ضم الراء، تفسيره: فحياة دائمة لا موت معها"(7) و "يقال أراح الرجل واستراح إذا رجعت إليه نفسه بعد

---

1) جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص43

2) بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن، مكتبة النهضة – القاهرة، ط (3) ، 1950م،ص221

3) الألوسي: روح المعاني ،ج14،ص90

4) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: الإتقان في علوم القرآن، الملاح، دمشق، ط(1)، 1987م،ج2،ص269

5) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب الراء، باب الراء والواو وما يثلثهما.

6) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط(3)، 1994م، كتاب الحاء المهملة، فصل الراء المهملة.

7) نفسه: كتاب الحاء المهملة، فصل الراء المهملة.

الإعياء"(1). " وفي التنزيل : " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي"، وتأويل الروح أنه ما به حياة النفس... قال الفراء: والروح هو الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله تعالى به أحدا من خلقه، ولم يعط علمه العباد"(2).

وتمثل هذه المعاني ومقارباتها البعد الرأسي لهذه اللفظة، وقد كان العرب، وهم المتلقي الأول يعرفونها، وكانت لفظة الروح تثير فيهم هذه المعاني، ولا تزال.

ويظهر " أن إطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية المشاكلة، و مما يقوي ذلك أنه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام في قوله:(نزل به الروح الأمين على قلبك) وعلى عيسى عليه السلام في قوله:(روح الله) وإنما حسن هذا الإطلاق، لأنه حصل بسبب وجودهما حياة القلب، وهي الهداية والمعارف"(3)." فإطلاق الروح على ذلك بطريق الاستعارة المصرحة المحققة، ووجه الشبه أن الوحي يحيي القلوب الميتة بداء الجهل والضلال"(4) "وللتعبير بالروح ظله ومعناه، فهو حياة، ومبعث حياة، حياة في النفوس والضمائر والعقول والمشاعر، وحياة في المجتمع، تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار"(5).

وتتمركز كلمة الحق في وسط هذا التعبير:(خلق السموات والأرض بالحق)(3) وتدور القوة الإيحائية حولها، فـ"الحق قوام خلقهما، والحق قوام تدبيرهما، والحق عنصر أصيل في تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما"(6)

وقد اكتسبت هذه القوة التعبيرية بتضافر القرائن التي جاورتها، على المستوى الأفقي، وإذا كانت قراءة النص " يجب أن تستثير المكبوت والغائب الدلالي، تماما كما تستثمر المكتوب والحاضر الدلالي"(7) فان كلمة الحق وخلق السموات والأرض به، تستدعي إلى الأذهان ما

---

1) نفسه: كتاب الحاء المهملة، فصل الراء المهملة.

2) نفسه: كتاب الحاء المهملة، فصل الراء المهملة.

3) الرازي: التفسير الكبير،ج19،ص225

4) الألوسي،: روح المعاني ، ج14،ص93

5) قطب: في ظلال القران، ج13، ص227

6) نفسه: ج 13، ص 228

7) الغانمي، سعيد: أقنعة النص – قراءات نقدية في الأدب، دار الشؤون الثقافية – بغداد، ط(1)، 1991م، ص113

عليه المشركون من الباطل، وهذا يفرضه علينا السياق الثقافي وموقعية النص وطبيعة المتلقي الأول لهذا النص، كما تبقى الإثارة لأي متلقٍ واعٍ.

وحين نتلقى قوله تعالى:(... لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)(7) نلحظ روعة التعبير وغنى دلالاته، كما ندرك مدى المناسبة، وحسن الاختيار لها، وأما كلمة (شق) في هذا التعبير فتضبط على وجهين " بكسر الشين وفتحها، وقيل هما لغتان، في معنى المشقة، وبينهما فرق، وهو أن المفتوح، مصدر شَقَّ الأمر عليه شقاً، وحقيقته راجعة إلى الشَقّ الذي هو الصدع، وأما الشِّق فالنِّصَب، كأنه يذهب نصف قوته، لما يناله من الجهد"(1)

وهذا الاحتمال القائم في ضبط اللفظة، ومعناها يغني الدلالة ويزيد من إيحاءاتها، "وحمل اللفظ على كلا المعنيين جائز، فإن حملناه على المشقة كان المعنى ، لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة، وإن حملناه على نصف الشيء ، كان المعنى لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب نصف قوتكم أو بدنكم، ويرجع عند التحقيق إلى المشقة"(2) .

وعلى المستوى الأفقي، نجد التوافق بين ذهاب المسافات وقطعها، وذهاب نفوس قاطعيها، وانشقاق أنفسهم وانشطارها، والمحدودية والانتهاء مشترك ومتبادل بين المسافات والساعين لاجتيازها.

وتستدعي المسافات إلى الأهداف المادية مسافات إلى أهداف معنوية عليا...
وينقلنا الفعل (تسيمون)(10) إلى حقل دلالي خيِّر وإيجابي (ومنه شجر فيه تسيمون)(10) و" تسيمون من سامت الماشية ، إذا رعت فهي سائمة، وأسامها صاحبها وهو من السومة، وهي العلامة، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض"(3) .

وتتآزر الكلمات على المحور الأفقي لتوفر معاني الحياة (وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون)(10).

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص401

2) الرازي : التفسير الكبير، ج19، ص234.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص403

ولقد حصلت سلسلة من التأثرات والتأثيرات، نتج عنها في كل مرة علامات، فالماء أثـر الكلأ، والماشية تركت علامات بالرعي، وترك الرعي علامات فيها، وكان المنتظـر أن ينسـجم الإنسان مع هذا القانون، فتترك النعم عليه علامات الشكر والتقديس.

وملمح الاختيار يتكرر مع لفظة التسخير ، ويتأكد ذلك، حين نلحظ ما وقع عليه التسـخير وممن وقع (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بـأمره)(12)، ويـدل التسخير في اللغة "على احتقار واستذلال"(1) و"أصل التسخير السوق قهراً، ولا يصح إرادة ذلـك لأن القهر والغلبة مما لا يعقل في ما لا شعور له من الجمادات، كالشمس والقمر، وعـدم تعقلـه في نحو الليل والنهار أظهر من ذلك، فهو هنا مجاز عن الإعداد والتهيئة، لما يراد من الانتفـاع ، وفي ذلك إيحاء إلى ما في المسخَّر من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين"(2)

وإذا راعينا واقع العرب الثقافي والعقدي، وقت نزول تلك الآيات فإنا نلحظ القصـد مـن اختيارها، فقد كانوا يعظمون تلك المخلوقات، وقد أراد القرآن أن يستأصل كل تلك التصـورات المركوزة في نفوس العرب عن الشمس والقمر والنجوم، والبحر في آية تليها:(وهو الذي سـخر لكم البحر)(13) وأن يُقرَّ مكانها الحقائق المتعلقة بها.

فسر الرازي كلمة الإلقاء في (وألقى في الأرض رواسي..)(15) فقال: " والإلقاء يقـارب الإنزال، لأن الإلقاء يدل على طرح الشيء من الأعلى إلى الأسفل، إلا أن المراد من هذا الإلقـاء الجعل، والخلق، قال تعالى: (وألقيت عليك محبة مني)"(3).

ومعنى "ألقيته: نبذته إلقاء والشيء الطريح لقى ، والأصل أن قوماً من العرب، كـانوا إذا أتوا البيت للطواف، قالوا لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فيلقونها، فيسـمى ذلـك الملقـى لقى"(4).

ولعل هذا المعنى اللغوي الأول يوحي بثقل المُلقى، وهو الذنب الثقيل الذي أرادوا التخلـص منه.

---

1) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، باب السين والخاء وما يثلثهما

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص108

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص10

4) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب اللام ، باب اللام والقاف وما يثلثهما

وعلى المستوى الأفقي كلمات مجاورة ومقاربة لهذا المعنى، وأولها (رواسي) وهـــي مـــن معنى (الرسو). وهو يدل "على ثبات، تقول رسا الشيء يرسو، إذا ثبت، والله جل ثناؤه أرســـى الجبال، أي ثبتها وجبل راس ثابت، ورست أقدامهم في الحرب، ويقال ألقت الســحابة مراســيها، إذا دامت .... ومن الباب رسوت بين القوم رسوا إذا أصلحت..."(1).

واللافت في استعمال كلمة الرواسي، الإتيان بوظيفة الجبال وإطلاقها عليها، ولـــم يقـــل : وألقى في الأرض جبالا، وهذا يؤكد مبدأ الانتخاب الحاصل في مفردات هذا النص، فالإلقاء ثـــم الرواسي ثم (أن تميد بكم).

وبهذا يتضح أن المعاني النى تحدث عنها الرازي من الجعل والخلق، وإن كانت حاصلـــة من لفظ الإلقاء، إلا أن الاهتمام سلط على الإلقاء تحديدا، وذلك لتتوافق والكلمات المجاورة، وكـي تستدعي حقلا دلاليا قوامه الثبات والرسو، وليس مجرد الخلق. ويستدعي الثبات الحسي ثباتا فـــي الإيمان تدعمه البراهين والأدلة الرواسي.

ومن بين صفات كثيرة يتصف بها الله تبارك وتعالى، تختار لفظة الخلق (أفمن يخلق كمـن لا يخلق)(17).

"والاقتصار على ذكر الخلق،من بين ما تقدم،لكونه أعظمه و أظهره، واستتباعه إيـــاه، أو لكون كل ذلك خلقا مخصوصا، أي أبعد ظهور اختصاصـــه ســبحانه بمبدئيـــة هـــذه الشـؤون الواضحة،الدالة على وحدانيته تعالى، و تفرده بالألوهية،و استحقاق العبادة، يتصور المشابهة بينـه وبين ما هو بمعزل عن ذلك بالمرة ؟ كما هو قضية إشراككم "(2)

و هذا يذكرنا بمصطلح الانتخاب و الاختيار،مرة أخرى، "هذا و إن الوعي اللغوي النشـيط أدبيا،كان يجد في كل زمان و مكان "لغات" وليس لغة، و كان يجد نفسه أمام ضـــرورة اختيـــار اللغة "(3) هذا مع الاحتفاظ للقرآن بخصوصيته .

---

1) نفسه: باب الراء والسين ومايثلثهما

2) الألوسي: روح المعاني،ج14، ص118

3) باختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، وزارة الثقافة - دمشق،ط(1)، 1988،ص54

بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى أخر""(1)

وتوحي (لا تحصوها)(18) في قوله تعالى :(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(18) بمحدودية الإنسان من جهة، واتساع النعم وإحاطتها به من جهة أخرى، وقد اكتسبت تلك الصفة بإضافتها إلى (الله)، "وإنما أتبع ذلك ما عدد من نعمة تنبيها على أن ما وراءها لا يحصر ولا يعد ....."(2) ومعنى "(لا تحصوها) لا تضبطوا عددها، ولا تبلغه طاقتكم، فضلا على أن تطيقوا القيام بحقها"(3)

ويسهم الفعل (ذرأ)(13) على المحور الأفقي السابق في هذا المعنى ويعززه وهو الدال على انتشار المذرو وكثرته، و"الذال والراء والهمزة أصلان أحدهما لون إلى بياض ،والأخر كالشيء يبذر و يزرع "(4) فكأن تلك النعم بذرت وزرعت في الأرض (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه)(13).

ومعنى (أموات غير أحياء)(21) "أموات جمادات لا حياة فيها، غير أحياء، يعني أن من الأموات ما يعقب موته حياة، كالنطف التي ينشئها الله حيوانا وأجساد الحيوان تبعث بعد موتها، وأما الحجارة، فأموات لا يعقب موتها حياة ،وذلك أعرق في موتها"(5)

وقد اختزلت لفظ الموت كل صفات السلب، وهي أبشع الألفاظ إلى الإنسان، وأكرهها إلى نفسه، وتستدعي اللفظة معاني الخراب والسكون والوحشة والانقطاع عن النعم، والجمود والظلام، وهي معاني مصاحبة لتلك المعبودات ومسببة عنها "

---

1) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز،، صحح أصله علامتا المعقول والمنقول:الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده،والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة- بيروت، 1978م ، ص203

2) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: تفسير النسفي، دار الكتاب العربي - بيروت، بلا تاريخ، ج1، ص283

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص405

4) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب الذال، باب الذال والراء وما ثلثهما

5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406

ومن الألفاظ الموحية "يشعرون" في (وما يشعرون أيان يبعثون)(21) "يقال شعرت أي أصبت الشعر، ومنه استعير شعرت كذا، أي علمت علما في الدقة ،كإصابة الشعر، قيل سمي الشاعر شاعرا لفطنته ودقة معرفته، ثم ذكر أن المشاعر الحواس، وان معنى لا تشعرون، لا تدركون بالحواس، وأن لو قيل في كثير مما جاء فيه لا تشعرون لا تعقلون، لم يجز إذ كثير مما لا يكون محسوسا يكون معقولا"(1)

وفي اختيار هذا اللفظ ،وإضافته إلى الأصنام المعبودة ضرب من التهكم لأنها ليست عديمة الشعور وحسب، وإنما هي عديمة الحياة بالكلية، ويستدعي نفي الشعور عنها الجانب الوجداني المفقود من العلاقة بينهم وبينها، فالعلاقة بينهما عقيمة، لا يرجى منها تحقيق غرضها، فهم يقدسون ويعبدون جمادات خالية من الشعور، وتستلزم العبادة منتهى الاحترام القلبي ومنتهى الخشوع واللجوء من العابد، ومن المعبود التجاوب مع العابدين وحمايتهم وتوفير الملاذ لهم ، وهذا يتطلب قرب الصلة وحرارتها ودوامها في أي حيز زماني أو مكاني وفي أي ظرف إنساني..وإلا فقدت العبادة معناها وصارت طقوسا عبثية خاوية.

وحين أتيح للكفار أن يصفوا القرآن، أو يحكموا عليه وصفوه بـ(أساطير الأولين)(24) "والأساطير هي الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة"(2) وتدل في اللغة على "اصطفاف الشيء، كالكتاب والشجر وكل شيء اصطف فأما الأساطير فكأنها أشياء كتبت من الباطل، فصار ذلك اسما لها، مخصوصا بها، يقال سطر فلان علينا تسطيرا، إذا جاء بالأباطيل "(3)

وتلتحم بالأولين على طريق الإضافة، لتكثف من الدلالة على البلى والقدم والعفاء، وتزيد من الإيحاء بأولية المعلومات والمعارف وسذاجة التفكير وبساطته، فهم لو قالوا أحكام الأولين لحملت هذه الصيغة معنى الازدراء والذم لكونها منسوبة إلى قوم،تجاوزهم الزمن وطمست أحكامهم أحكام متعاقبة،وحضارات لاحقة، فكيف؟وهم اختاروا وصفها بالأساطير؟

وكما أوحى التعبير بذمهم للقرآن الكريم، فقد أوح بمدحهم أنفسهم فهم في مرتبة فكرية وحضارية متقدمة،وذوو منجزات لا تسمح لهم بالعودة إلى ما تجاوزوه ولكنهم في الوقت نفسه

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص120

2) قطب: في ظلال القرآن، ج13، ص38

3) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب السين، باب السين والطاء وما ثلثهما

يكنون لهذا الكتاب شيئا من الرهبة لان (الأساطير) توحي بالتنسيق والترتيب، وهم بذلك، لم يتخلصوا من أثر القرآن فيهم.

وفي تعبير: (الذين يضلونهم بغير علم)(25) تلويح وتعريض بالمشركين، وقد أكثر القرآن الكريم من استعمال هذا الأسلوب،ولا سيما مع العرب "ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب ، والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل،أو حكى عنهم جعله مبسوطا، وزاد في الكلام"(1) والتعريض "أن تذكر شيئا يدل على شيء لم يذكر، واصله التلويح من عرض الشيء "(2)

وفي استخدام التلويح مع العرب، مراعاة لمستويات المتلقي وأحواله، وهو ما أشار إليه البلاغيون بمراعاة المقام أو بالعبارة الشهيرة (لكل مقام مقال) "ولا يكون وصولنا إلى هذا المعنى الدلالي إلا بالكشف عن المقام الذي قيل فيه النص "(3)

"وفيه تنبيه على أن كيدهم لا يروج على ذي لب وإنما يقلدهم الجهلة والأغبياء، وفيه زيادة تعيير لهم وذم،إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم "(4)

وعلى المحور الأفقي يأتي هذا التعبير مجاوبا للتعبير السابق: (أساطير الأولين)(24) و رادا عليه، فهم يضلون المفتقرين للعلم، وهم أيضا يفتقرون إليه.

ويؤازر ذلك على المحور الأفقي ألفاظ الضلال والوزر التي وصفوا بها أما على المحور الرأسي،فإن الأحكام التي يصدرونها هي أحكام الخرافة والأوهام،لأنها الإفرازات الطبيعية للتفكير الذي ينقصه العلم على مستوى المعلومة وعلى مستوى الطريقة والآلية .

---

1) الجاحظ، عمرو بن بحر : الحيوان، تحقيق :عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي – القاهرة ،ط(1)،1956م، ج1،ص94

2) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار إحياء الكتب العربية– القاهرة، ط(1)، 1327هـ، ص135

3) حسان،تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص342

4) الألوسي: روح المعاني،ج14، ص 124.

وكما ورد التعبير: (أتى) في أول السورة،جاء في الآية السادسة والعشرين (فأتى الله بنيانهم من القواعد)(26).

وقد صور الحركة هناك،كما صورها هنا،لكن هنا يمثل الصفة الأولى من صفات الجمال في الحركات وهي القوة "والصفة الأولى من صفات الجمال في الحركات هي القوة"(1)

هذا و"إن الإتيان والحركة على الله محال فالمراد أنهم لما كفروا أتاهم الله بزلازل قلع بها بنيانهم من القواعد والأساس"(2)

و "التعبير يصور هذا المكر في صورة بناء ذي قواعد وأركان وسقف، إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته"(3)

"وقيل إن هذا مثل ضربه الله سبحانه، لاستئصالهم،ولا قاعدة هناك، ولا سقف، والمعنى فأتى الله مكرهم من أصله، أي عاد ضرر المكر عليهم وبهم، عن الزجاج وابن الأنباري، وهذا الوجه أليق بكلام العرب،كما قالوا، أتى فلان من مأمنه،أي [illegible]اه الهلاك من جهة مأمنه، وإنما أسند سبحانه إلى نفسه من حيث كان تخريب قواعدهم من جهته"(4)

ومع إيحاء التعبير بالقوة يوحي بالسهولة،"وأصل الإتيان المجيء بسهولة."(5)والإتيان بسهولة يتساوق مع كلمة المكر، وتعني (الاحتيال والخداع)(6)، وفيها معنى السلاسة .

1) جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص43.

2) الرازي:التفسير الكبير،ج20، ص20

3) قطب: في ظلال القرآن، ج13، ص239.

4) الطبرسي،أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، صححه وحققه هاشم الرسولي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، ط(1)، 1992م ،ج6،ص 462.

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص125.

6) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب المعجم،باب الميم والكاف وما يثلثهما

وليست الحروف بمعزل عن الإيحاء، فثم في قوله تعالى: (ثم يوم القيامة يخزيهم)(27) رآها الألوسي دالة على التفاوت في الجزاء الدنيوي والأخروي"ثم: للإيحاء إلى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما تدل عليه من التراخي الزماني"(1)

ولكني أرى أن الرؤية الفنية للنص أو اللفظة يجب أن تؤسس على اللغة أولا وعليه،فثم هنا توحي بالفترة الزمنية الطويلة التي تم توقيف الأحداث والسرد فيها، كي يعطى المشهد، الذي سبق عرضه المدة اللازمة التي يستحق،فقد كان دمارا شاملا، ولا بد بعده من فترة هدوء، وصمت تتناسب في مدتها وذلك الحدث،ما يدع فرصة لذلك الحدث وأثره أن يتحلل في النفوس.

وتثير الإضافة في قوله تعالى:(ويقول أين شركاءي)(27) الانتباه،وتوقظ في نفوس المتلقين تساؤلات، وقد جاءت على غير المتوقع، وخلاف المعتاد:"وجوز أن يكون ما ذكر حكاية منه تعالى لإضافتهم،فإنهم كانوا يضيفون،ويقولون: شركاء الله تعالى، وفي ذلك زيادة في توبيخهم، ليست في أين أصنامكم،مثلا، لو قيل،ولا يخفى،أن هذا خزي وإهانة بالقول، فإذا فسر الإخزاء، فيما تقدم بالتعذيب بالنار كانت الآية مشيرة إلى خزيين، فعلي وقولي "(2)

ويتضح ما لهذا التعبير من أثر نفسي في المشركين، في ذلك الموقف، وهو يذكر بمشاهد أخرى جارية على هذا الأسلوب الهادف إلى التحقير "والإهانة، نحو كونوا حجارة أو حديدا وقوله تعالى: ذق إنك أنت العزيز الكريم"(3)

وتتآزر المفردات على المحور الأفقي في تحقيق الحالة، وهي الخزي والإهانة (تشاقون فيهم) ثم (الذين أوتوا العلم) وقد وصف المشركون من قبل بقلة العلم، ثم (الخزي) و(اليوم) و"ال للحضور أي اليوم الحاضر،وإيراده للإشعار،بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق"(4) ثم (السوء) وأخيرا (الكافرين) بهذا الاسم الصريح.

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص126.

2) نفسه، ج14، ص126-127.

3) القزويني، جلال الدين عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، بتحقيق وتعليق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، اختارها وأشرف عليها شيخ الكلية، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ، بلا تاريخ، ج1، ص144

4) الألوسي : روح المعاني، ج14، ص128

ومن ألفاظ التجسيم والحركة الإلقاء في قوله تعالى (فألقوا السلم) (28)"وأصل الإلقاء في الأجسام، فأستعمل في إظهارهم الانقياد، و أشعارا بغاية خضوعهم وانقيادهم،وجعل ذلك كالشيء الملقى بين يدي القاهر الغالب"(1)

ويصور (فألقوا)(28) الحركة السريعة لمكانة الفاء،وتوحي بثقل الملقى،وقد يوحي لنا الثقل بعظم كمية السلم التي ألقوها وهذا يدل على مدى تشبثهم،ومدى تفانيهم في أشعار الخالق بعظم المسالمة التي يكنونها.

ويجلي لنا تعبير مناظر على المحور الأفقي السابق وهو (وألقى في الأرض رواسي)(15) هذا التعبير ويعزز دلالته.

وقد جسمت إضافة الأبواب إلى جهنم في (فادخلوا أبواب جهنم)(29)النار و أبرزت معالمها،كما أغنت الدلالة ونوعتها."وهذا يدل على تفاوت منازلهم في العقاب فيكون عقاب بعضهم اعظم من عقاب بعض"(2) "والمراد بها إما المنفذ أو الطبقة ...وجوز أن يراد بالأبواب أصناف العذاب"(3)

وتحيل كلمة الأبواب إلى عالم جديد مجهول، لمن لم يدخله بعد، كما يحيل تعدد الأبواب إلى سعة المكان وتنوع أقسامه، وما دامت أنها ذات أبواب، فإنها ستفتح عند الدخول، ثم تغلق،لأن هذا هو شأن الأبواب وهذا يوحي بالانغلاق والانعزال...هذا على المحور الرأسي.

أما المحور الأفقي فإنه يتلاقى وسابقه (فادخلوا)(29) (خالدين فيها)(29) (فلبئس مثوى المتكبرين)(29)

إذن ستصبح النار مستقرهم ومثواهم، وليست مسكنهم ومأواهم بمعناها الإيجابي وتظل دلالات (لهم فيها ما يشاؤون)(31) مفتوحة ومطلقة،وتترك للخيال أن يستحضر ما شاء من

---

1) نفسه:ج14، ص129

2) الرازي:التفسير الكبير، ج20، ص22.

3) الألوسي:روح المعاني، ج14، ص129-130.

الأمنيات،و"إن هذه الكلمة تدل على حصول كل الخيرات والسعادات."(1) وهو بهذا يلحظ الفروق الفردية بين البشر.

وعلى المحور الأفقي نجد الجزاء مرتبا على موقف سابق، من هؤلاء المؤمنين،حين قال لهم:(ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا)(30)فهم أطلقوا الحكم بالخيرية دون قيد ودون نهاية، ولما وافقت إجابتهم السؤال ظل التوافق مستمرا على المحور نفسه على صعيد الجزاء (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)(30) (ولدار الآخرة خير)(30) (ولنعم دار المتقين)(30) (جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار)(31) ثم جاءت قمة هذا التوافق وذروته وثمرته (لهم فيها ما يشاؤون)(31)

وتختزن كلمة(طيبين)(32) في قوله تعالى(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)(32) معاني جمة، وتعد مثالا واضحا على غنى الإيحاء وكثافة المعنى، وهذه السمة ظاهرة في مفردات القرآن وصيغه، و"من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الإعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الإيحاء، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القران وليتأمل علوه على سائر الكلام" (2) وهذه الكلمة "كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة،وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض أرواحهم، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذا حاله لا يتألم بالموت"(3)

وعلى المحور الأفقي جاءت هذه اللفظة ومجاوراتها مقابلة ل(ظالمي أنفسهم)(28) التي وصف بها الكافرون ومجاوراتها.

ويجسم التعبير (وحاق بهم) في قوله(وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)(34) الأمر المعنوي، وقد تناول الرماني هذا الأسلوب، حين تعرض للآية الكريمة: (أعمالهم كرماد اشتدت

---

1) الرازي:التفسير الكبير، ج20، ص25.

2) الثعالبي،أبو منصور عبد الملك بن محمد: الإعجاز والإيجاز، تعليق اسكندر أصاف،المكتبة العمومية – بمصر، ط(1)، 1897م، ص11

3) الرازي:التفسير الكبير، ج20، ص25-26.

به الريح في يوم عاصف)(1) فقال: "بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحساسة إلى ما تقع عليه"(2)

"وأصل معنى الحيق الإحاطة مطلقا، ثم خص في الاستعمال بإحاطة الشر، فلا يقال أحاطت به النعمة، بل النقمة، وهذا أبلغ وأفظع من أصابهم" (3)

ويوحي هذا التعبير بمعاني الانغلاق والانعزال بحجاب كثيف من أعمالهم، ويترتب ذلك على ظلمهم لأنفسهم لأن الظلم "وضع الشيء غير موضعه تعديا(4).

ويثبت قوله تعالى:(والذين هاجروا في الله) (41) معاني البعد المكاني والبعد المعنوي، وفيه "إشارة إلى أنها هجرة متمكنة تمكن الظرف في مظروفه"(5).
ويشير إلى فقدانهم أوطانهم، ولذلك تبعه على المحور الأفقي (لنبوئنهم في الدنيا حسنة)(41) .

ويراعى الاستعمال القرآني عامل الاختيار للمفردات والألفاظ، وفي هذا السياق تطالعنا تسمية القرآن بالذكر (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس) (44) فقد اختير اسم الذكر، وضرب صفحا عن بقية الأسماء لخصوصية الموقف، ومقتضيات السياق.

" وقيل للكتاب الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين "(6) "وهو من التذكير، أي بمعنى الوعظ أو بمعنى الإيقاظ من سنة الغفلة وإطلاقه على القرآن، لاشتماله على ذكر، أو لأنه سبب له، ومنه يعلم وجه تسمية التوراة ونحوها ذكرا " (7)

---

1) سورة إبراهيم: (18)

2) الرماني، علي بن عيسى:النكت في إعجاز القران. ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله ، دار المعارف-القاهرة، بلا تاريخ، ص76

3) الألوسي، روح المعاني، ج14، ص134

4) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة ، كتاب الظاء. باب الظاء واللام وما يثلثهما .

5) الألوسي روح المعاني. ج14، ص144-145

6) النسفي: تفسير النسفي. ج2، ص287

7) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص150 .

وقد سبق ذكر هذه الكلمة باشتقاقات أخرى في آية (13) (وما ذرأ ... لقوم يذكرون) وفي آية (17) (أفلا تذكرون) .

وثمة تعبيرات أخرى مقاربة لها في المعنى مثل (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(18) وقوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين)(4) وقد عقب عليها العكبري فقال: " إن قيل الفاء تدل على التعقيب، وكونه خصيما، لا يكون عقيب خلقه من نطفة فجوابه من وجهين ..... والثاني أنه إشارة إلى سرعة نسيانهم مبدأ خلقهم"(1).

ويبدو أن الإلحاح على استعمال هذه اللفظة ومقارباتها له دلالة تعكس طبيعة الإنسان الكثير النسيان وطبيعة النعم التي تستعصي على الحفظ والإحصاء.

وثمة تعبيران متجاوران يوحيان بالحركة، ويصوران الحالة، وهما (أو يأخذهم في تقلبهم)(46) .

أما (يأخذهم) فهي من الأخذ، وتعني "حوز الشيء وجبيه وجمعه تقول، أخذت الشيء آخذه أخذا، قال الخليل، وهو خلاف العطاء وهو التناول" (2)

ويوحي الفعل بالحركة القوية والاستئصال، وقد فصل الباقلاني في دلالة أخذ وإيحاءاتها عند حديثه عن (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه)(3) فقال: (هل تقع في الحسن موقع (ليأخذوه) كلمة، وهل تقوم مقامها في الجزالة لفظة، وهل يسد مسدها في الأصالة نكتة، لو وضع موضع ذلك " ليقتلوه " أو "ليرجموه" أو " لينفوه " أو " ليطردوه " أو " ليهلكوه " أو " ليذلوه " ونحو هذا ، ما كان بديعا، ولا بارعا ولا عجيبا ولا بالغا) (4)

---

1) العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله الحسين بن أبي أبي البقاء: التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ، ج2، ص78.

2) ابن فارس : معجم المقاييس في اللغة ، كتاب الهمزة ، باب الهمزة والخاء وما معهما في الثلاثي

3) سورة غافر: (5)

4) الباقلاني، إعجاز القرآن ، ص197.

" وأي تصوير لضآلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة "(1)
وقد تكررت في الآية التالية: (أو يأخذهم على تخوف) (47).

أما الحالة التي يؤخذون وهم عليها، فهي التقلب، " وفي تفسير هذا التقلب وجـــوه، الأول، أنه يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم ..... وثانيهما: تفسير هذا اللفظ بأنه يأخذهم بالليل والنهار فـــي أحوال إقبالهم وإدبارهم، وذهابهم ومجيئهم..... وثالثهما: أن يكون المعنى، أو يأخذهم في حـــال ما يتقلبون في بقايا أفكارهم، فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل قسرا...."(2)

وقد وردت لفظة التقلب في استعمالات قرآنية أخرى بهذا المعنى، منها (لا يغرنـــك تقلـب الذين كفروا في البلاد)(3) وعلق عليها أبو السعود العمادي، بقوله:"وإنما جعل التقلب مبالغـــة،أي لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السعة، ووفور الحظ، ولا تغتر بمظاهر ما ترى...."(4)

وقد مزج التركيب السابق ذكره التعبيرين وهما الأخذ والتقلب فحصلـــت المفارقـة وتـم التقابل.

ويكشف لنا التعبير القرآني (أولم يروا إلى مـــا خلـــق الله ...)(48) عـــن نـــوع التفكـير المفضل، الذي يدعو القرآن إليه، وهو التفكير المستنير القائم على النظر في ماهية الشـــيء مـــع ربطه بما يحيط به من ظروف وأحوال، وهو يتنافى مع عزل الظاهرة عن سياقها، وقطعها عـــن علاقاتها، و"لما كانت الرؤية ههنا بمعنى النظر وصلت بإلى، لأن المراد به الاعتبار، والاعتبـــار لا يكون بنفس الرؤية، حتى يكون معها نظر إلى الشيء وتأمل لأحواله،وقوله: (إلى ما خلـــق الله من شيء) قال أهل المعاني: أراد من شيء له ظل؛ من جبل وشجر وبناء وجسم قائم"(5)

ويستوقفني تعبير قائم على إفراد معنى وجمع آخر، وهو قوله تعالى: (يتفيؤا ظلالـــه عـــن اليمين والشمائل) (48).

---

1) البوطي، محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن ، مكتبة الفارابي- دمشق ، ط (2) 1970م ، ص171.
2) الرازي:التفسير الكبير، ج20، ص39.
3) سورة آل عمران: (196)
4) العمادي، أبو السعود محمد بن محمد: إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط(1) بلا تاريخ، ج2 ،ص135.
5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص41.

فلماذا أفرد الأول وجمع الثاني؟ وهل يتقابل ونصوص أخرى كقوله: (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(1)؟ أتجه نحو الإيجاب، ذلك "أنه لما كان اليمين عبارة عن جهة المشرق، وهو مبدأ الظل وحده، مناسبة لتوحيد المبدأ الحقيقي وهو الله تعالى، ولا كذلك جهة المغرب، ولا يناسب رعاية نحو هذا في الشمال، كما يرشدك إلى ذلك و (كلتا يديه يمين)"(2)

ويوحي التعبير (من فوقهم) في قوله: (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)(50) بعلو صفات الخالق عن صفات المخلوق علوا كبيرا، هذا "... وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه: يخافون ربهم عاليا لهم قاهرا، كقوله(وهو القاهر فوق عباده)" (3).

وهذا التعبير يشد إليه قوله تعالى في بداية السورة: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون)(1) وقوله تعالى، بعد هذه الآية: (ولله المثل الأعلى)(60). كما يشد إليه نصوصا أخرى على مساحة النص القرآني كله، تزخر بمعاني السمو والجلالة، وهذا يخدم الدلالة الفكرية التي يلح القرآن عليها..

ويتآزر والتعبير على المحور الأفقي في الآية قوله: (ما يؤمرون) والأمر هو"استعمال صيغة دالة على طلب من المخاطب على طريق الاستعلاء"(4)

"وإيراد الفعل مبنيا للمفعول جري على سنن الجلالة، وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه"(5)وتشير كلمة(واصبا) في: (وله الدين واصبا)(52) إلى ثبوت حقائق الدين وهي وإن كانت ثابتة، إلا أنها متجددة متوسعة، وهي تحمل وجها آخر وهو الدلالة على المشقة و"الواصب الواجب الثابت، لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على

1) سورة الأنعام: (153)

2) الألوسي: روح المعاني ، ج14، ص156.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص412-413.

4) القزويني: التلخيص في علوم البلاغة، ص168.

5) الألوسي : روح المعني، ج14، ص158.

كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب : أي وله الدين ذا كلفة ومشقة ولذلك سمي تكليفا"(1).

وينسجم الوجه الآخر مع قوله تعالى(أفغير الله تتقون)(52) وذلك أن القيام بالتكاليف يستلزم تقوى الله وهكذا يظل النص القرآني حمال أوجه، وهو بهذا يولد المعنى ولا يغلقه.

وتوحي كلمة(مسّ) في قوله تعالى (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون)(53) بقلة الضر وسرعة زواله، وهو يصور حركة خفيفة، وذلك يتقابل واتصال النعم بهم (وما بكم من نعمة فمن الله)(53) واتبع ذلك ل(ثم) التي أوحت ببقاء النعم فترة طويلة من الزمن .

وقد مسهم الضر فجأروا،"والجؤار في الأصل :صياح الوحش واستعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة"(2)

ويبث(بُشِّرَ) في قوله تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى)(58) الحياة والظهور وليست هي في هذا الاستعمال محايدة، من قبيل: أخبر أو بلغ،وإنما تحمل معها الدلالة النفسية،وتدل على الحركات الانفعالية"والتبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور،إلا أنه بحسب أصل اللغة ،عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغيير بشرة الوجه،ومعلوم أن السرور كما يوجب تغيير البشرة، فكذلك الحزن يوجبه، فوجب أن يكون لفظة التبشير حقيقة في القسمين"(3).

ولكن رد الفعل ينزع إلى القتامة والتخفي، ويتصاعد حتى يصل إلى المواراة الحقيقية في التراب (ظل وجهه مسودا وهو كظيم)(58) (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به)(59)(أيمسكه على هون) والإمساك فيه معنى الإخفاء والحبس، (أم يدسه في التراب)(59)

وعلى المحور الرأسي يوحي الظهور بالقوة والتجانس مع الحياة، ويوحي الخفاء بالضعف والتنافر معها، وهذا يستدعي واقع الكفار فهم (كفروا) وذلك بتغطيتهم للإيمان في صدورهم وطمسهم لفطرهم.

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص413.

2) الألوسي : روح المعاني، ج14، ص165.

3) الرازي :التفسير الكبير، ج20، ص56.

والأنثى هي رمز الخصب والإنجاب والعطاء، وكان الجاهليون يدسونها في التراب فكانت حياتهم فقيرة ومجدبة ... ويتجه الفعل (يسمعون) في (إن فيّ ذلك لآية لقوم يسمعون)(65) نحو التعريض والتلويح، وقد "أريد بالسمع القبول، كما في سمع الله لمن حمده، أي لقوم يتأملون فيها، ويعقلون وجه دلالتها،ويقبلون مدلولها"(1)، وهذا أبلغ من التصريح المباشر، وأمكن للمعنى، لأنه من قبيل المعنى الذي يوصل إلى المعنى.

وفي هذه إشارة إلى أن السامع لا بد مستجيب لوضوح الحق وظهوره و"يسمعون ،للإشارة إلى ظهور هذا المعتبر فيه، وأنه لا يحتاج إلى نظر وتفكر، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع فقط"(2)

ويتوجه التعبير إلى المتلقي الواعي الذي يعمل حواسه، و يؤشر أيضا على طبيعة العلم الذي يراد تحصيله، وأنه من العلم الضروري الذي يحصل بالحواس، وهذا من دواعي قوة العلم، "ونقل المعاينة أوعبُ وأتم من نقل الخبر والعلم"(3) ،وقد قيل ليس المخبر كالمعاين.

وتتمثل لنا الفائدة معبرا وطريقا إلى الخير في قوله تعالى(وإن لكم في الأنعام لعبرة)(66) "أي معبرا يعبر به من الجهل إلى العلم، وأصل معنى العبر و العبور التجاوز من محل إلى آخر"(4)

وتوحي الكلمة بالمغادرة والترك والمفارقة، والمفارقة والتخلص حاصلان أيضا من: (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين)(66) وهذا تناظر على المحور الأفقي لألفاظ الآية.

وتستدعي هذه المعاني معاني مشابهة، وهي تخلص المسلمين من الشرك ومفارقتهم لأهله، كما يستدعي نقاء اللين وسهولته- وإن أحاط به ما يغايره-نقاء الإسلام ونبيه، وإن أحاطت بهما ظروف الشرك وعادات المشركين.

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص175.

2) نفسه: ج14، ص175.

3) ابن خلدون، عبد الرحمن:مقدمة ابن خلدون، لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،دار ابن خلدون، الإسكندرية ، بلا تاريخ، ص286.

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص176.

ويلفت (أوحى) الانتباه في: (وأوحى ربك إلى النحل)(68)، ويدل"على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي الإشارة، والوحي الكتاب و الرسالة "(1)

ويصور لنا الحركة الخفيفة، وهي شبيهة بالحركة الانسيابية "التي تشعرنا إذ نحدثها أو نشاهدها بأنها رشيقة ؟ إنها الحركة التي توهمنا بأنها خالية من كل جهد عضلي، فنرى الأعضاء تتحرك حرة طليقة، كأنما يحركها النسيم"(2)

وقد لاقت تلك الإيحاءة الخفيفة من النحل استجابات هائلة، غاية في الدقة والاستمرارية والمثابرة... ولعل هذا التعبير يحمل في طياته معاني التبكيت والتحقير للمعرضين...

ويندرج التعبير: (يأمر بالعدل)(76) تحت ما سماه علماء البلاغة بالإشارة وذلك حين"يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بإيماء ولمحة تدل عليه، كما قيل في صفة البلاغة هي لمحة دالة "(3)

"واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفا بالنطق وإلا لم يكن آمرا، ويجب أن يكون قادرا، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة، وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادرا، ويجب أن يكون عالما، حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور، فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل، يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما، وكونه آمرا يناقض كون الأول أبكم، وكونه قادرا يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء"(4).

ويراعي القرآن الكريم في تعبيراته حال المخاطبين، كي يثيرهم ويسترعي انتباههم وهذا ما عبر عنه المحدثون بموقعية السياق الثقافي، ويتجلى هذا في قوله:(وجعل لكم من الجبال أكنانا)(81)

1) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب الواو، باب الواو والحاء وما يثلثهما.

2) جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص43

3) الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله: خزانة الأدب، تحقيق : عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط(1)،1987م، ج20، ص258.

4) الرازي : التفسير الكبير،ج20، ص88.

"واعلم ان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة...فإن قيل لم ذكر الحر ولم يذكر البرد؟ أجابوا عنه من وجوه:

الوجه الأول : قال عطاء الخراساني: المخاطبون بهذا الكلام هم العرب وبلادهم حارة فكانت حاجتهم إلى ما يدفع الحر، فوق حاجتهم إلى ما يدفع البرد......

والوجه الثاني: في الجواب، قال المبرد: إن ذكر أحد الضدين تنبيه على الآخر، قلت: ثبت في العلوم العقلية، أن العلم بأحد الضدين يستلزم العلم بالضد الآخر. فإن الإنسان متى خطر بباله الحر خطر بباله أيضا البرد، وكذا القول في النور والظلمة والسواد والبياض، فلما كان الشعور بأحدهما، مستتبعا للشعور بالآخر، كان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر"(1)

وقد أطلت الاقتباس للفائدة المرجوة من ذلك، فقد روعي في هذا التحليل حال المتلقي، كما اعتمد على التداعيات والإيحاءات وتطلب المعنى للآخر.

ويوحي حرف الجر: (إلى) في التعبير القرآني (أثاثا ومتاعا إلى حين)(80) بمحدودية النعم وانتهائها عند زمن محدد، لكنه مغيب عن المخاطبين، وذلك أن إلى"تفيد انتهاء الغاية الزمانية"(2)، ومعنى التعبير " إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا" (3) وهذا يوقف المتلقي على حقيقة وجوده والمخلوقات من حوله .

ويأتي التعبير: (ولا هم يستعتبون)(84) مركب الدلالة، فالكفار" لا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقول أو عمل، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء"(4)

وينسجم هذا وقوله: (ثم لا يؤذن للذين كفروا)(84) بل إنه يتضمنه ويختزله.

والمعاني الدالة على الاسكات والإخماد تتقابل مع (نبعث)(84) و(شهيدا)(84). وأفاد التعبير ب(شركاؤنا)(86) معني الاعتراف وإبداء الندم "وقيل قالوا ذلك اعترافا، بأنهم كانوا

---

1) نفسه:ج20، ص95-96

2) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار إحياء الكتب العربية، ج1، ص70

3) الزمخشري : الكشاف، ج2، ص422.

4) الصابوني، محمد علي : صفوة التفاسير، دار الصابوني، ط(9)، بلا تاريخ، مجلد(2) ص138.

مخطئين في عبادتهم"(1) وجاء في ظلال القرآن" فاليوم يقرون(ربنا) واليـــوم لا يقولـــون عـــن هؤلاء إنهم شركاء لله، إنما يقولون هؤلاء شركاؤنا"(2).

وعلى المحور الإفقي تأتي كلمة أخرى مناظرة لهذه، وهي(ندعـــوا)(86) وهـــي "بمعنـــى نعبد"(3) والسؤال المطروح، هو لماذا لم يعبروا باللفظة التي قد يتوهم أنـــها الأنســب للمعنـــى المراد وهي (نعبدهم)؟

يبدو أن لهذا الاختيار دلالة تنسجم والجو النفسي الذي كـــانوا فيـــه، وهـــي تـــأتي تاليـــة لقولهم(ربنا) وقولهم (شركاؤنا) وقد عرض هذا الموقف من قبل، ووردت فيه كلمة شركاء، ولكن كان المتحدث هو الله(ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم)(27).

وتوحي كلمة (كفيلا)(91) في قوله: (وقد جعلتم الله عليكـــم كفيـــلا)(91) بالرقابـــة إذ أن معناها" شاهدا و رقيبا؛ لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مـــهيمن عليـــه..."(4) وتتســق مـــع الكلمات على محورها، مثل الوفاء والعهد(وأوفوا بعهد الله) والأيمان (ولا تنقضوا الأيمان) مـــع قوله: (إن الله يعلم ما تفعلون) وعلى المحور الرأسي، تستدعي طبيعة الإنسان التي تنزع به إلـــى الهوى، ويقل معها الالتزام.

ومن الأفعال التي تصور الحركة البطيئة(تزل) في قوله: (فتزل قـــدم)(94)، وهـــي تنـــذر بانقلاب الحالة، "وهو استعارة للوقوع في أمر عظيم، لأن القدم إذا زلت انقلب الإنسان من حـــال خير إلى حال شر"(5)

وتدور الكلمة حول معاني الاضطراب والقلق.... والكلمات الجارية في واديها هي الزلزلـــة وزلة اللسان....

---

1) الألوسي: روح المعني، ج14، ص208

2) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج13، ص270.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص424.

4) نفسه: ج2، ص425.

5) الألوسي، روح المعني، ج14، ص224.

وفي اختيار (الروح) اسما لجبريل في قولـــه: (قـل نزلـه روح القـدس)(102) دلالات وإيحاءات...، وقد سبق استعمال لفظه(الروح) في بداية هذا النص، وأريد بها هنـــاك، القـرآن، وفي إطلاق الروح على جبريل مناسبة للمهمة التي أنيطت به، وهـــي حمـل رسـالة الله، ثـم أضيفت(الروح)إلى (القدس) الدالة على الطهر، لتزداد الإضاءة تكثيفا والدلالة غنى.

وينسجم التعبير ومناظراته على المحور الأفقي، فقبله (أنزله) ثم (مـن ربـك) المشـعرة بصفات الكبرياء والجلالة وبعده (بالحق) التي تدل على الرسوخ والقوة، ثم يأتي بيـان الغـرض من هذه الألفاظ (هدى وبشرى للمسلمين)(102)"وفيه تعريض بحصول أضـداد هـذه الخصـال لغيرهم"(1) وهذا يستحضر الغياب.

وتحمل كلمة(يلحدون إليه)(103) فوق معناها الأساسي، وهو القصد، معنى آخر، وتتلـون بلون خاص، وهي ممزوجة بموقف متشكل عن ذلك العمل، لذلك جاء التعبير بيلحـدون، التـي تحمل معاني الانحراف، والميلان والمجانبة للحق "ويقال ألحـد القـبر ولحـده، وهـو ملحـد وملحود،:إذا أمال حفره عن الاستقامة، فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عـن اسـتقامة، فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، ولـم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذين يميلون قولهم عن الاسـتقامة إليـه لسـان (أعجمي)"(2) وهي جارية في واد من المفردات ذات دلالات سلبية.

وعلى المحور الأفقي لفظة(أعجمي)(103) تالية ل(يلحدون)(103) وهي موضوعـة" فـي كلام العرب للإبهام، وضد البيان والإيضاح"(3) والأعجمي "الذي لا يفصح"(4)، فـهي تحيـل على صفات الجهل وضعف الرأي، وثمة ألفاظ بعدها تتقابل مع هذه الألفـاظ الموحيـة بالإبـهام والغموض وهي: (عربي مبين)(103)

يومىء التعبير: (من شرح بالكفر صدرا)(106) إلى تغلغل الكفر فـي قلوبـهم ويوحـي برغبتهم فيه،"أي طاب نفسا واعتقده"(5)

---

1) الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص118.

2) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص429.

3) الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص119.

4) ابن فارس،معجم مقاييس في اللغة، كتاب العين، باب العين والجيم وما يثلثهما.

5) الزمخشري،الكشاف، ج2، ص430.

ويجسم التعبير ذلك الأمر المعنوي، ويخرجه إلى الحس، "أي فتحه ووسعه"(1) ومن اللافت أن يشير إلى حالة التأزم والصعوبة، التي يتم فيها إدخال الكفر إلى القلوب، وذلك أن الشرح هو "الفتح والبيان"(2) والكفر هو التغطية والحجب، وهذا يكشف عن التنافر القائم بين الكفر والفطرة. ويتنافى هذا و(من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)(106).

وتباعد (ثم) في قوله: (ثم إن ربك للذين هاجروا...)(110) المؤمنين وجزاءهم وأجرهم عن الكفار، "دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك"(3) وتتضافر معها اللام، في(للذين)موفرة جو الإيواء والحماية .

ويثير التعبير: (... كل نفس تجادل عن نفسها)(111) تساؤلات ف"لقائل أن يقول إن النفس لا تكون لها نفس أخرى، فما معنى قوله: (كل نفس تجادل عن نفسها) والجواب النفس، قد يراد بها بدن الحي، وقد يراد بها ذات الشيء وحقيقته، فالنفس الأولى هي الجثة والبدن، والثانية عينها وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، ولا يهمه شأن غيره"(4)

ويحتمل "أن هذه المجادلة بين الروح والجسد"(5) "وهو تعبير يلقى ظل الهول الذي يشغل كل امرئ بنفسه، يجادل عنها، لعلها تنجو من العذاب ولا غناء في انشغال ولا جدال إنما هو الجزاء"(6)

والجدال في اللغة "من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه وامتداد الخصومة، ومراجعة الكلام"(7)

---

1) الرازي، التفسير الكبير، ج20، ص125.

2) ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة، كتاب الشين والراء وما يثلثهما.

3) الزمخشري، الكشاف، ج2، ص430.

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص128.

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص241.

6) قطب،في ظلال القرآن، ج13، ص285.

7) ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة،كتاب الجيم، باب الجيم والدال وما يثلثهما.

وتعمل اللفظة في اتجاهين، اتجاه نحو الدلالة على الحالة النفسية التي يكون عليها الكفار، واستماتتهم في محاولة النجاة، استرسالهم في الجدل... ويستتبعه على المحور نفسه ذكر النتيجة وهي: (وتُوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون)(111)

والاتجاه الآخر يتعمق في ذواتهم، ويدل على انقسامها وانشطارها، وهو ليس بعيدا عن الأول، بل قد يكون نتيجته ونهايته، أي أن الجدل يستمر حتى تتحل ذواتهم، وتتبرأ منهم.

وهنا إشارة الى أن النفس نفسان، حقيقة النفس، وهي القائمة على أصل الفطرة، ونفس خالفت فطرتها.

وتختزن لفظة الأمن التي وصفت القرية بها(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة)(112) معاني جمة "فالأمن كلمة واحدة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب كلها، لأن الأمن إنما هو السلامة من الخوف فإذا نالوا الأمن بالإطلاق، ارتفع الخوف عنهم وارتفع بارتفاعه المكروه، وحصل السرور المحبوب"(1)

"واعلم أنه يجوز وصف القرية بالأمن، وإن كان ذلك لأهلها، لأجل أنه مكان الأمن وظرف له، والظروف من الأزمنة الأمكنة توصف بما حلها"(2) وكأن الأمن راسخ في بنيان القرية المادي، وفي بنائها الاجتماعي فالأمن متجسد فيها، والأمن بهذا صار صفة للقرية بالأصالة، ولأهلها بالتبعية.

وتتناظر وصفة الأمن صفة الطمأنينة الواردة على المحور الأفقي وألفاظ الآية: (مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان)

ويوحي تعبير: (لباس الجوع والخوف)(112) بشدة الالتصاق واتساع مساحة العذاب، وطول أمده. "وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس، ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث"(3)

---

1) الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، ص11.

2) الرازي،التفسير الكبير، ج20، ص129.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص431.

وأما قوله تعالى: (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف)(112) فمن أغنى التعبيرات وأكثرها تركيبا.

وقد تناول أبو هلال العسكري، كلمة الإذاقة، في تعبير مقارب وهو: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر)(1)فقال"حقيقته لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ، لأن حس الذائق أقوى لإدراك ما يذوقه، و للذوق فضل على غيره من الحواس، الا ترى أن الإنسان، إذا رأى شيئا لم يعرفه شمه، فإن عرفه، وإلا ذاقه، لما يعلم أن للذوق فضلا في تبين الأشياء"(2) "وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منها و يلابس، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف"(3)

ويأتي تعبير:(بما كانوا يصنعون)(112) متفقا ومتآزرا وألفاظ(كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) وفي"صيغة الصنعة إيذان بأن كفران الصنيعة راسخة لهم وسنة مسلوكة"(4) والصناعة ترافقها الدقة والتأنق، ولا تكون إلا في ظروف الأمن والطمأنينة ورغد العيش.

ويتوج تعبير(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب)(116) كل الألفاظ التي دارت في النص ناسبة الكذب والافتراء إليهم،ومن قبله تعبير يؤاخيه، ولكنه على صيغة الخبر(وتصف ألسنتهم الكذب)(62)ويصبح بمثابة البؤرة أو المركز الذي يختزل المعنى ويكثفه ويبعثه ويبثه، وهو "من فصيح الكلام، وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب و محضه، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلت الكذب بحليته، وصورته بصورة، كقولهم وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر"(5)، " وكأن ماهية الكذب مجهولة، وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب، ويوضح ماهيته، وهذا مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذبا"(6)

---

1) سورة السجدة: 21

2) العسكري،أبو هلال الحسن بن عبد الله: كتاب الصناعتين ،تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية– القاهرة، ط(1)، 1952م، ص281.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص431.

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص244.

5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص433

6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص134

ومن التعبيرات المختزنة المختزلة قوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة)(120) "واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة، بما فيها من خير وطاعة وبركة، ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به في الخير"(1) والجمع بينهما ممكن وليس بممتنع.

وتولد هذه الصفة(أمة)المعاني التي جاءت بعدها: (ولم يك من المشركين)(120) شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم(121)وآتيناه في الدنيا حسنة...(122).

وتفيد صيغة: (ولا تك في ضيق مما يمكرون)(127)وفور صفة الضيق وكثرتها،وهي تفيد ذلك، وإن جاءت بأسلوب النهي، لأنه لا يكون لما لا وجود له، أو لما وجوده مستحيل.

"وهذا من الكلام المقلوب، لأن الضيق صفة، والصفة تكون حاصلة في الموصوف،ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة،فكان المعنى فلا يكن الضيق فيك، إلا أن الفائدة في قوله(ولا تك في ضيق)هو أن الضيق، إذا عظم وقوى صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب، وصار كالقميص المحيط، فكانت الفائدة، في ذكر هذا اللفظ، هذا المعنى والله أعلم"(2)

ويستدعي عظم الضيق عظم المكر، وكأن مكرهم يسبب للإنسان ضيقا يحل الإنسان به، فيصبح الجوهر عرضا والعرض جوهرا، ويصبح الموصوف صفة، والصفة موصوفة.

---

1) قطب:في ظلال القرآن، ج13، ص290.

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص144.

المستوى التركيبي

الشـــرط

أسلوب الشرط، سببا من أسباب التضام:

اتفق النحاة وعلماء اللغة قديما وحديثا على إفادة الشرط الجمل تماسكا وترابطا، ولكنـه ربط على مستوى جملتي الشرط وليس ممتدا على مساحة النص، إذ أن روابط النص مختلفة.

وأسلوب الشرط يربط بين جملتيه، فيجعل الأولى سببا والثانية مسببة عنها.

ومن أوائل النحاة الذين نصوا على هذه الميزة للشرط سيبويه، الذي تعرض لـــهذا، أثنـاء تفسيره لحالة جمل الشرط الإعرابية، فقال: "وإنما انجزم هذا الجواب كما انجزم جواب إن تـأتني بإن تأتني، لأنهم جعلوه معلقا بالأول غير مستغن عنه،إذا أرادوا الجزاء، كما أن إن تأتني غـــير مستغنية عن آتك"(1) . "ومعنى الشرط : وقوع الشيء لوقوع غيره "(2) ، وقد أطلق ابن مـــالك على العلاقة القائمة بين جملتي الشرط صفة الاقتضاء، فقال:

" فعلين يقتضين: شرطا قدما   يتلو الجزاء وجوابا وسما"(3)

وهو عين ما تؤديه كلمة التضام في الاصطلاح الحديث مـــن "تطلـب إحـدى الكلمتيـن للأخرى في الاستعمال، على صورة تجعل إحداها تستدعي الأخرى" (4)

"وتقوم هذه الأدوات بوظيفتها في الربط سواء أكانت جازمة أم غـــير جازمـــة، وأســاس علاقة الشرط قائمة على معنى الاستلزام"(5)

---

1) سيبويه: الكتاب،ج3، ص: 93 ، 94

2) المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : المقتضب ، تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب -بيروت، بلا تاريخ ، ج2 ، ص46

3) ابن عقيل ، شرح ابن عقيل ، ج2، ص370.

4) حسان ،تمام : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص94.

5) حميدة ، مصطفى : نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجان. ط(1)، 1997 م ، ص202

وليس أسلوب الشرط بعيدا عما تناولته الدراسات النصية الحديثة، عند حديثها عن علاقات الترابط داخل النص، وذلك " حينما يعقد فيه عنصر معين في الخطاب على عنصر آخر، فالأول يفترض الثاني ، بمعنى أننا لا يمكننا فك شفرته بنجاح إلا بالعودة إلى الثاني"(1).

وبعد، فـ "إن للشرط في العربية وظيفتين، أولاهما معنوية وهي إضافة معنى الشرط إلى الجملة الخبرية، وثانيتهما وظيفة أسلوبية أو تركيبية، وهي جعل الجملة الثانية معلقة بالأولى تعليق المسبب بالسبب أو المعلول بالعلة، أو الملزوم باللازم"(2)

جملة الشرط المبدوءة بـ (إن):

وأول ما يلقانا من جمل الشرط في السورة هي الجمل المبدوءة ب إن، وذلك أنها أم أدوات الشرط " وزعم الخليل أن (إن) هي أم حروف الجزاء، فسألته: لم قلت ذلك؟ فقال: من قبل أني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكن استفهاما، ومنها ما يفارقه فلا يكون فيه الجزاء، وهذه على حال واحدة أبدا لا تفارق المجازاة "(3).

و أما ميزات تلك الجمل المعتمدة على إن فلا يتضح إلا بالتعرف على إن كما رآها أهل اللغة والنحو " و (إن) إنما مخرجها الظن و التوقع فيما يخبر به المخبر"(4)

"و لا تستعمل إن إلا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها، ولذلك قبح إن احمر البسر كان كذا" (5). وقد اتفق البصريون والكوفيون على هذا " أما الكوفيون فاحتجوا ... لأن إن الشرطية تفيد الشك بخلاف إذ ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول إن قامت القيامة كان كذا "(6)

---

1) براون، (ج، ب) و يول ، (ج): تحليل الخطاب ، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطي و د. منير التركي، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، 1997م ، ص : (228)

2) المصري، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام : رسالة المباحث المرضية / الملحق، تحقيق : د. مازن المبارك ، دار ابن كثير – دمشق ، ط (1)، بلا تاريخ، ج1، ص66

3) سيبويه: الكتاب ، ج3 ، ص 63

4) المبرد: المقتضب، ج2، ص56

5) الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر: المفصل في علم العربية، وبذيله المفضل في شرح أبيات المفصل للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي، دار الجيل – بيروت ، ط(2)، بلا تاريخ، ص322

6) الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد: الإنصاف في مسائل الخلاف، ومعه الانتصاف من الإنصاف؛ تأليف محمد محيي الدين، ط(4)، 1961م، ج2، ص632

تفيد (إن) في قوله تعالى(وإن تعدوا نعمة الله...)(18) الشك في أن يخطر ذلك ببالهم، وهم الغافلون عن حضور هذه النعم أو اتساعها وامتدادها....

كما أن الشك يظل قائما حتى لو خطرت تلك النعم ببالهم، وذلك أن العد "أصل صحيح واحد لا يخلو من العد الذي هو الإحصاء"(1)

والآية تعني:"أنكم لا تعرفونها على سبيل التمام والكمال، وإذا لم تعرفوها امتنع منكم القيام بشكرها على سبيل التمام والكمال".(2)

وتثير (إن تحرص على هداهم..)(37) تساؤلا مفاده كيف نُدير(إن) على الشك؟ والرسول كان معروفا بحرصه الشديد على هدايتهم، وقد يجاب عن هذا بالقول إن (إن) قد تأتي بمعنى إذا كما خرجها جماعة من النحويين، حين جاءت في مواضع اليقين، مثل "(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) لأنه لا شك في كونهم مؤمنين، ولهذا خاطبهم في صدر الآية فقال: (يا أيها الذين آمنوا"(3). وربما استعملت (إن) في هذا الموضع لتوحي بأن هذا الحرص ينبغي أن يكون مشكوكا فيه لما عليه المشركون من أحوال تبعدهم عن استحقاق هذا الحرص.

ويترشح أسلوب الشرط في: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)(43) لمعان بلاغية، تخرج عن الشرط العادي، وقد نوه إليها الزمخشري حين تعرض لبيان التعليق في الجار والمجرور، فقال:"فإن قلت بم تعلق قوله: (بالبينات)؟ قلت له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا... وإما بيوحي: أي يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي"(4)

وإذا نظرنا إلى: (فإن تولوا ..)(92) في سياقها، انكشفت لنا بعض مزايا هذا التعبير، فقد حشدت الآيات قبلها قدرا هائلا من الأدلة والعلامات الماثلة ما جعل التولي أمرا مشكوكا فيه لكل

1) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، مادة (عد).

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20 ،ص14، وانظر الكشاف، ج2، ص405

3) الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف،ج2، ص632

4) الزمخشري: الكشاف، ج 2، ص 411

مخاطب يعقل ويتفاعل، والذي يقوي هذه الأدلة حرف الفاء الذي دل على الترتيب والتعقيب. والمعنى "(فإن تولوا) فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب"(1) وفي هذا القلب للسبب مكان المسبب دلالته، إذ يصبح المعنى ، فإن بلغت البلاغ المبين فتولوا فعليك البلاغ المبين. وقد يفيد هذا التعبير الشكلي استمرارية التبليغ، فلا يعدو توليهم أن يكون منتجا تبليغا ومسببا بيانا.

ويخرج الشرط في: (إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون..)(95) مخرج التهييج، ومعنى (إن كنتم تعلمون)"أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز"(2)، والذي يقوي هذا الوجه في الشرط هو أن المخاطب به المسلمون، إذ المراد ب(ولا تشتروا بعهد الله)(95) "عند كثير بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان"(3)

وقد رأى هذا الوجه للشرط غير واحد من علماء اللغة والتفسير، منهم السيوطي، إذ قال:"وأجيب بأنها في الأولى شرط جيء به للتهييج كقولك لابنك: إن كنت ابني فلا تفعل كذا"(4)، "وعلى هذا فالشرط في مثل هذا الأسلوب هو شرط -منطوقا-(صورة) وليس شرطا-مفهوما-(مضمونا)، وفائدته أنه يخرج إلى معان خبرية مضافة، كالتحدي والاستثارة والتذكير والنفي، وهو عندما يقع موقعه يكون أبلغ من الأسلوب العادي، لأنه أسلوب (مركب) من الصورة الشرطية والمضمون الخبري غير الشرطي، شأنه في ذلك شأن كل الأساليب البلاغية التي تخرج عن منطوقها إلى مفهوم يحدده السياق"(5)

ولعل آلية تحقيق(إن) لهذا الهدف البلاغي تكمن في دلالتها على الشك وكأنها جعلت مسألة اتصافهم بالعلم محل شك، وصارت بذلك محتاجة إلى علامات ودلائل تنفي عنها ذاك الشك.

---

1) نفسه: ج2، ص 423. وانظر العمادي: ارشاد العقل السليم،ج5، ص133

2) العمادي: إرشاد العقل السليم،ج5، ص138

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص224

4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: همع الهوامع شرح جمع الجوامع، عني بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة - بيروت ، بلا تاريخ، ج2، ص58

5) القيسي، عودة الله منيع: أسلوب الشرط المجازي في القرآن بالأداة (إن)، البلقاء للبحوث والدراسات، جامعة عمان الأهلية، المجلد الرابع، العدد الثاني، كانون أول 1996م، ص170.

وقد لمس المفسرون هذا الوجه في الآية(فكلوا مما رزقكم الله .... إن كنتم إياه تعبدون)(114)، فنبه الزمخشري على ذلك بقوله:"يعني تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة، لأنها شفعاؤكم عند الله"(1). وكان الألوسي أكثر تصريحا بمعنى التهييج في هذه الآية إذ قال:"تطيعون أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته سبحانه، ومن قال: إن الخطاب موجه للمؤمنين أبقى هذا على ظاهره أي إن كنتم تخصونه تعالى بالعبادة، والكلام مخرج مخرج التهييج"(2)

جملة الشرط بـ(إذا):

جاء هذا الطراز من الجمل الشرطية مفيدا التلازم الحتمي والاقتران اليقيني بين جملة الشرط وجوابه، وكأن الأول سبب من الأسباب الكونية التي توصل إلى نتائجها ولا تتخلف، وذلك "لأن إذ وإذا ليس فيهما معنى الشك"(3) والسبب في ذلك أنهما ظروف تضمنت معنى الشرط، "وفي إذا معنى المجازاة دون إذ"(4)، "وأما إذا فلما يستقبل من الدهر وفيها مجازاة وهي ظرف""وبالنظر إلى الظرف تدخل على المتيقن كسائر الظروف"(5)، وقد "خالفت إذا إن في إفادة العموم قال ابن عصفور فإذا قلت إذا قام زيد قام عمرو، أفادت أنه كلما قام زيد قام عمرو. قال: هذا هو الصحيح ... وفي أن مدخولها لا تجزمه لأنها لا تتمحض شرطا "(6) وعليه فـ "إذا تستعمل في التوقع المتيقن وليس المحتمل المتشكك فيه"(7)

ولدى رجوعي إلى كتب التفسير مظنة العناية بالجوانب البلاغية واللغوية لم أجد إلا إشارات يسيرة ذات علاقة بطبيعة الدراسة، ومن آرائهم التي يستأنس بها قول الألوسي عند تعليقه على الآية: "(إذا أردنا..)(40) ظرف – لقولنا – أي وقت تعلق إرادتنا بإيجاده (أن نقول

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص 432

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص246. وانظر العمادي ج5، ص 147

3) الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2، ص 632

4) سيبويه: الكتاب، ج1، ص213

5) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص151

6) نفسه: ج2، ص152

7) حسين، عبد القادر: البلاغة القيمة لبلاغة القرآن، دار غريب– القاهرة، 1998م، ص35

له كن)"(1) وأشار أبو السعود عند تفسيره ل(ثم إذا مسكم الضر)(53) إلى إذا حين قال:"ولعل إيراد إذا دون إن للتوسل به إلى تحقيق وقوع الجواب"(2)

جملة الشرط بـ (لو):

والحالة الدلالية العامة التي وفرها أسلوب الشرط باستخدام (لو) هي امتناع حالة معينة مع وجود دواع لها، أما أسباب الامتناع فهي مجهولة. وعلى الرغم من أن تلك الحالة ممتنعة ومنفية، ولكن هذا لا يمنع من استحضارها إلى الذهن.

ففي قوله تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء)(35) محاولة من المشركين للتذرع بمشيئة الله الممتنعة على حد زعمهم، وهم بذلك يعزون ذاك الامتناع إلى مجهول، وكانت الآيات قبلها حشدت عليهم أدلة وحججا أشعرتهم بالضيق وألجأتهم إلى هذا المخرج الموهوم.

والذي ينتج هذه الدلالات هو ما وضعت له في اللغة، إذ أنها "تفيد ثلاثة أمور أحدها الشرطية... الثالث الامتناع"(3)، وعبارة الكتاب "وأما لو فلما كان سيقع لوقوع غيره"(4)، "وتقول: ود لو تأتيه فتحدثه، والرفع جيد على معنى التمني، ومثله قوله عز وجل: (ودوا لو تدهن فيدهنون)"(5)، و"لو حرف شرط في مضي، وذلك نحو قولك: (لو قام زيد لقمت)وفسرها سيبويه بأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وفسرها غيره بأنها حرف امتناع لامتناع، وهذه العبارة الأخيرة هي المشهورة والأولى الأصح"(6)

والآية الثانية (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة...)(61)، هي على غرار الأولى، ولكن مضمونها مختلف، إذ أن سبب امتناع المؤاخذة السريعة والتامة مجهول أو

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص143

2) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص120

3) ابن هشام: مغني اللبيب، ج1، ص205

4) سيبويه: الكتاب، ج4، ص224

5) نفسه: ج3، ص36

6) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج2، ص385

أن هذه الآية لا تتصدى للكشف عنه، وعلى الرغم من أن المؤاخذة ممتنعة،ولكن ذلك لا يمنع من استحضارها، وقد ذكرت: (ما ترك عليها من دابة...)

وكأن هذه الآية تحمل أسلوبا في الشرط مركبا، ولكنه من ناحية المعنى لا من ناحية الشكل، إذا أن المؤاخذة مترتبة على الظلم، "(بظلمهم) أي بسبب كفرهم ومعاصيهم"(1)، ثم المؤاخذة تفضي إلى الهلاك وتقضي به.

ويلحظ في أسلوب هذه الآية الشرطي التساوي والتوازي بين كفتي الشرط، ف"ما أتوه من القبائح قد تناهى إلى أمد لا غاية وراءه"(2)، وكذا ما استحقوه من العذاب، ثم إن عظم العذاب يؤشر إلى عظم الجرم.

ولا تكشف لنا الآية: (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...)(93) عن السبب في امتناع ذلك المذكور في الآية، وقد تكشف لنا نصوص قرآنية أخرى عن ذلك، وهي التي تبين الغاية من خلق الإنسان، وما خص به من قدرة على الاختيار وحرية في الإرادة.

ولكن ربما أشار أسلوب الآية إلى أن ذلك – وعلى الرغم من امتناعه – مرغوب فيه، بل إنه لم يمنع من دعوة الناس كلهم إلى اعتناق الإسلام، وإلى جعل الإسلام ظاهرا على كل الأديان، وإلى أن يكون الدين كله لله.

جملة الشرط بـ (من):

يشعر أسلوب الشرط المستخدم (من) بعدم التعويل على أصل الشخص ومكانته أو أي اعتبار آخر، وحقيقته ترتيب جزاء على شخص ما اتصف بصفة ما، بحيث يبدو كل من اتصف بالصفات أو تلبس بالأعمال مستحقا لذاك الجزاء خيرا كان أو شرا.

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص170

2) العمادي:إرشاد العقل السليم، ج5، ص122

وهذا ما أشعر به علماء النحو عند حديثهم عن (من)عموما، وعنها في أسلوب الشرط خصوصا، فقد أدرجها سيبويه تحت عنوان الأسماء التي يجازى بها وتكون بمنزلة الذي "وتلك الأسماء من وما ..."(1) "ومن على خمسة أوجه، شرطية نحو: (من يعمل سوءا يجز به)"(2) "وأما من الشرطية فإنها دالة على شيئين أحدهما الشخص العاقل، وهذا هو المعنى الذي فيه اسم لأنه معنى في نفسها، كما في قولك إنسان وهو معناها الوضعي"(3)، وتفهم دلالتها على العموم من قول ابن عقيل:"أشار بقوله(تساوي ما ذكر) إلى أن (من) وما والألف واللام تكون بلفظ واحد للمذكر والمؤنث المفرد والمثنى والمجموع"(4).

وثمة إشارات للمفسرين تؤازر هذا... فـ(من) في (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ..)(97) "متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟"(5) و"ظاهر الآية يقتضي أن العمل الصالح إنما يفيد الأثر بشرط الإيمان"(6)، والمراد بمن كفر في (ولكن من شرح بالكفر صدرا ...)(106) "الصنف الشارح بالكفر صدرا"(7).

وبذا يمثل لنا هذا الأسلوب قانونا عاما وثابتا، ويسلط الضوء على الفكر والعمل موجها النظر إليهما ثم إلى من حلا به.

الشرط بـ (ما):

وهو شبيه بسابقه من حيث إفادته العموم، إلا أن السابق معلق بشخص، وهذا معلق بشيء والآية المنظومة وفق هذا الأسلوب هي: (وما بكم من نعمة فمن الله)(53)، و(ما) من "باب الأسماء التي يجازى بها، وتكون بمنزلة الذي، وتلك الأسماء: من وما وأيهم، فإذا جعلتها بمنزلة الذي، قلت: ما تقول أقول"(8) "وقال الخليل رحمه الله: إن شئت جعلت من بمنزلة إنسان

---

1) سيبويه: الكتاب، ج3، ص69
2) ابن هشام: مغني اللبيب، ج2، ص18
3) المصري: رسالة المباحث المرضية، ص33، 34
4) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج1، ص147.
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص 427
6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص114
7) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص237
8) سيبويه: الكتاب، ج3، ص69

وجعلت ما بمنزلة شيء نكرتين"(1)، ومن الأدلة على إفادتها العموم أن"رب لا يكون ما بعدها إلا نكرة وقال أمية بن أبي الصلت:

"رب ما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال"(2)

وبذا يصبح معنى الآية "وأي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله"(3) "وهذه اللفظة تفيد العموم و"إنما دخلت الفاء في قوله (فمن الله) لأن الباء في قوله (بكم) متصلة بفعل مضمر، والمعنى : ما يكن بكم أو ما حل بكم من نعمة فمن الله "(4)

وقد يبدو أن في أسلوب الآية الكريمة قلبا للسبب مكان المسبب، إذ أن: (فمن الله)، لا يبدو أنه يصلح جزاء ل(وما بكم من نعمة)، وقد يجاب عن ذلك بأن يقال: إن "الآية جيء بها لإخبار قوم، استقرت بهم نعم جهلوا معطيها أو شكوا فيه، أو فعلوا ما يؤدي إلى أن يكونوا شاكين فاستقرارها مجهولة أو مشكوكة سبب للإخبار بكونها من الله تعالى فيتحقق أن الشرط والمشروط فيها على حسب المعروف من كون الأول سببا والثاني مسببا"(5)

وقد يفيد هذا القلب الشكلي دلالة أخرى، وهي أن كل نعمة يجب أن توجهكم إلى الله وتذكركم به، وبوجوب شكره، فتصبح النعمة مستتبعة شكرا وعبادة، وهذا لا يرشد إليه منطوق الآية وإنما مفهومها، ولا ترشد إليه دلالة اللفظ بل دلالة المعنى.

الشرط بـ (أينما):

وللشرط بـ (أينما) ميزات نستقيها من وظيفة هذه الأداة في تركيب الجملة، ومن معناها الوضعي أيضا، وقد تحدث سيبويه فقال: "وسألت الخليل عن مهما، فقال: هي ما أدخلت معها ما لغوا، بمنزلتها مع متى إذا قلت متى ما تأتني آتك، وبمنزلتها مع أين كما قال سبحانه وتعالى:

---

1) نفسه: ج2، ص105

2) نفسه: ج2، ص108، 109

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص413

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص52

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص164،165

(أينما تكونوا يدرككم الموت)"(1)، وليس قوله بأن ما لغو يعني انعدام أثرها، وإنما هي لزيادة المعنى، فكل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى.

وذكر في موضع آخر "ولا يكون أين إلا للأماكن"(2)، "كما جعلوا الآن كأين وليس مثله في كل شيء، ولكنه يضارعه في أنه ظرف"(3).

وتفهم دلالة أينما على العموم من قول سيبويه: "وأين: أي مكان؟"(4)، ولعل المعنى المستفاد من هذا الأسلوب هو أن فعل الشرط وجوابه يستغرقان الأماكن كلها المعلومة والمجهولة.

والآية الواردة وفق هذا الأسلوب هي:(أينما يوجهه لا يأت بخير)(76)، "ومعنى التوجيه أن ترسل صاحبك في وجه معين من الطريق"(5)، وإذا نظرنا إلى الأداة مع ضميمتها (يوجهه) يتعزز لدينا معنى الضعف والعجز اللذين يتمثلان في ذلك العبد ف"حيثما يصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح"(6)

أسلوب الطلب:

والأسلوب الأخير من أساليب الشرط هو أسلوب الطلب، المتضمن معنى الشرط، وهو بانتفاء أداة الشرط منه أصبح مطلقا غير مقيد بأداة معينة، وهو من جهة أخرى أوحى بالتلقائية وبالعلاقة الآلية بين جملة الطلب وجملة الجواب.

ولا شك أن ما قيل عن أسلوب الشرط يقال عن هذا الأسلوب، وقد جاء في الكتاب "هذا باب من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جوابا لأمر أو نهي أو استفهام أو تمنٍّ أو عرض"(7)،

---

1) سيبويه: الكتاب، ج3، ص 59-60
2) نفسه: ج2، ص219
3) نفسه: ج3، ص299
4) نفسه: ج4، ص233
5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص88
6) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص421
7) سيبويه: الكتاب، ج3، ص93

"وإنما انجزم هذا الجواب كما انجزم جواب إن تأتني بإن تأتني، لأنهم جعلوه معلقا بالأول غير مستغن عنه، إذا أرادوا الجزاء كما أن إن تأتني غير مستغنية عن آتك"(1) "وإنما انجزمت بمعنى الجزاء لأنك إذا قلت ائتني أكرمك، فإنما المعنى: ائتني فإن تأتني أكرمك، لأن الإكرام إنما يجب بالإتيان"(2) وقد "جزم جواب الأمر والنهي والاستفهام والتمني والعرض بإضمار شرط في ذلك كله،والدليل على ذلك أن الأفعال التي تظهر بعد هذه الأشياء إنما هي ضمانات يضمنها ويعد بها الآمر والناهي، وليست بضمانات مطلقة ولا عدات واجبة على كل حالة، وإنما هي معلقة بمعنى، إن كان ووجد وجب الضمان والعدة، وإن لم يوجد لم يجب." (3)

ويظهر بوضوح أن معنى الشرط، وهو"وقوع الشيء لوقوع غيره"(4) منطبق على هذا الأسلوب.

وتظهر التلقائية في قوله تعالى:"(كن فيكون)(40) من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي إذا أردنا وجود شيء، فليس إلا أن نقول له أحدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف"(5)

ونلمس تلك العلاقة أيضا في: (ثم كلي من كُل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه)(69) "وكأنه سبحانه إنما لم يعبر بالإخراج مسندا إليه تعالى اكتفاء بإسناد الإيحاء بالمبادى إليه جل شأنه، وفيه إيذان بعظم قدرته عز وجل بحيث أن ما يشعر بإرادة الشيء كاف في حصوله"(6)

ونلحظها أيضا في قوله تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها)(94) "وانتصب (فتزل) على جواب النهي، وهو استعارة لمن كان مستقيما ووقع في أمر عظيم وسقط،

1) نفسه: ج3، ص93، 94
2) المبرد: المقتضب، ج2، ص82
3) سيبويه: الكتاب، ج3، هامش ص94
4) المبرد : المقتضب، ج2، ص46
5) الزمخشري: الكشاف، ج 2، ص410
6) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص184

لأن القدم إذا زلت تقلب الإنسان من حال خير إلى حال شر"(1) كما يحتمل أن (فتزل) قد نصبت "بأن مضمرة في جواب النهي لبيان ما يترتب عليه ويقتضية"(2)

1) الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف: البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض ، وشارك في تحقيقه: د. زكريا عبد المجيد النوتي و د. أحمد النجولي معوض دار الكتب العلمية -بيروت، ط(1)،1993م، ج5 ،ص515.

2) الألوسي: روح المعاني، ج14،ص224.

الحال

ظهر الحال في السورة ظهورا بارزا، يسمح بعده ملمحا أسلوبيا فيها وقد ظهر في النص أربعين مرة، فضلا عن الحالات التي تحتمل الحالية، إلا أن ثبوتها أقل من ثبوت هذه الحالات. ولا شك أن هذا الحضور الكثيف للحال قد بث في أرجاء السورة الحيوية، وأضفى على النص الراهنية والنبض المستمر، وهذا شأن الحال وميزته، و(الحال إنما هي وصف من أوصاف الفاعل، أو المفعول، في وقت وقوع الفعل منه"(1) "و إنما سمي حالا لأنه لا يجوز أن يكون اسم الفاعل فيها إلا لما أنت فيه تطاول الوقت أم قصر، ولا يجوز أن يكون لما مضى وانقطع، ولا لما لم يأت من الأفعال،إذ الحال إنما هي هيئة الفاعل أو المفعول وصفته في وقت ذلك الفعل"(2).

وهذا تجده متجليا في كل الأحوال التي وردت في السورة، ولعل أوضحها في قوله تعالى: (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه....)(13) و(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)(22) و(... ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم)(25) و(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم....)(28) و(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها)(29) و(جنات عدن تجري من تحتها الأنهار)(31) و(أو يأخذهم في تقلبهم)(46) و(أو يأخذهم على تخوف)(47) و(.... يتفيؤا ظلاله عن اليمين و الشمائل سجدا لله وهم داخرون)(48) و(يخافون ربهم من فوقهم...)(50) و(....له الدين واصبا....)(52) و(يتوارى من القوم ...)(59) و(... أيمسكه على هون أم يدسه في التراب..)(59) و(ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء..)(79) و(... وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها ..)(80) و(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء..)(89) و(.. كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا..)(92) و(... يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها...)(111) و(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا...)(112).

فهذه الأحوال وغيرها، مختلفة الأزمان، فمنها ما مضى ، ومنها الحاضر المشاهد ومنها الأتي، قد أصبحت بهذه العلاقة الحالية راهنة حاضرة، ووفرت للسورة جو الحركة والحياة النابضة، وانظر مثلا إلى قوله تعالى: (يتوارى من القوم)(59) كيف صورت لنا هذه الجملة

---

1) سيبويه: الكتاب، ج1، هامش ص44

2) ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي: شرح المفصل، عالم الكتب- بيروت، مكتبة المتنبي- القاهرة، بلا تاريخ، ج2، ص55.

الحالية الحدث الذي طوته الأيام، وتعاقبت عليه السنين صورته حاضرا أمامنا،وكأنه يحدث في التو واللحظة.

ولعل سؤالا ها هنا يسأل عن السبب أو الغاية من وراء اختيار أوصاف معينة، أو هيئات مخصوصة، لتكون حاضرة وراهنة، في حين تركت الصفات الأخرى، والأحداث الباقية على وضعها الحقيقي، وليس عسيرا على الدارس أن يصل إلى رأي مفاده، أن الاهتمام بهذه الأوصاف كان أكثر، وأن العناية باطلاع المتلقي عليها-على هذه الحالة- كانت أكبر، كي ينفعل بها، ويقف منها موقفه من الراهن الحاضر،لا موقفه من القديم الماضي، أو موقفه من الآتي، الذي قد تصور له نفسه بعده أو استبعاده، فالنفس أبدا مشغولة باللحظة الراهنة أكثر من انشغالها باللحظة الفائتة، أو اللحظة الآتية.

كما أن الحال كان وسيلة من وسائل التصوير، بما "هو فضلة دالة على هيئة صاحبه"(1) و"بأنه الوصف الفضلة، المنتصب، للدلالة على هيئة"(2)

والحال يفوق الصفة في الوصف والبيان؛ ذلك أنك إذا "قلت: جاءني زيد الماشي، لكان معناه، المعروف في المشي، وكان جاريا على زيد، لأنه تحلية له، تبيين أنه زيد المعروف بهذه السمة، ليفصل ممن اسمه مثل اسمه، بهذا الوصف، فإذا قلت: جاءني زيد ماشيا، لم ترد أنه يعرف بأنه ماش، ولكن خبرت بأن مجيئه وقع في هذه الحال، ولم يدلل كلامك على ما هو فيه قبل هذه الحال أو بعدها"(3).

والحال -في الحقيقة- يشبه الخبر "لأن الحال خبر"(4). من جهة حصول الفائدة به، "ألا تراك قد أثبت الركوب في قولك: جاءني زيد راكبا: لزيد، إلا أن الفرق، أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه، ولم تجرد اثباتك للركوب به ولم تباشره به ابتداء، بل بدأت، فأثبت المجيء، ثم وصلت به الركوب فالتبس به الإثبات على

---

1) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: همع الهوامع شرح جمع الجوامع، صححه محمد بدر الدين النعماني، دار المعرفة – بيروت، بلا تاريخ، ج1، ص236

2) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج1،ص625.

3) المبرد، المقتضب، ج4، ص299، 300

4) ابن يعيش: شرح المفصل، ج2، ص56

سبيل التبع لغيره، وبشرط أن يكون في صلته"(1)، وعليه، فإنه من جهة الاتفاق مع الخبر، قد جرى اختياره من بين خيارات كثيرة، كان من الممكن أن تختار، وتجعل هي الفائدة المعطاة، أو الوجه المضيء.

وهكذا جاءت الأحوال في هذه السورة مصورة للهيئات المختلفة، ومبينة لها، بل إن التصوير الذي وفرته الأحوال كان تصويرا فنيا، ينتقى به المشهد المراد، والوجه المطلوب بيانه وإظهاره، والحركة المنوي وصفها.

وتسترعي انتباه الدارس لهذا النص عدة حالات، برز فيها التصوير القائم على الاختيار والانتخاب، فالملائكة تنزل (بالروح من أمره)(2) "بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد"(2)، وليست هي نازله بالقوة أو بالعذاب أو غير ذلك، (والأنعام خلقها لكم)(10) "أي ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان"(3)و(فيها دفء)(10) "ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم، فقال: (فيها دفء)"(4)

وحين تحدثت السورة عن الدواب التي تحمل الأثقال لم يجعل وجه المنة توفير الوقت، مع أنه متحقق بها، وقريب من الوجه المذكور، وإنما كان الاهتمام بالمشقة والتعب الشديد(وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس...)(7)

وعند تناول النص للمخلوقات المبثوثة على الأرض، لم يعمد إلى وجوه التشابه بينها – وما أكثرها – ولكنه عمد إلى وجوه الاختلاف، ولعلها الأقرب إلى هدف الآية و الآيات جميعا، وهو إقامة الحجج، ولفت الأنظار إلى حقائق الدين(وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه)(13) "فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية، آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده"(5)

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص164

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص400

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص401

4) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية – بيروت، بلا تاريخ، ج3، ص183

5) نفسه: ج3، ص189

أما السفن فقد اختيرت لها حالة الجري على الماء، واختير لهذا الجري وصف خاص، وهو المخر(وترى الفلك مواخر فيه)(14)

و"(مواخر)أي جواري، إنما حسن التفسير به، لأنها لا تشق الماء إلا إذا كانت جارية"(1) وهذا أدعى إلى الفخامة والقوة، وهما أدعى إلى استحضار عظمة المسخر وقدرته .

والذين لا يؤمنون بالآخرة (قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)(22) فقلوبهم "لا يؤثر فيها وعظ، ولا ينجع فيها تذكير"(2) وفوق ذلك هم مستكبرون.

والذين يضلهم الكفار إنما يضلونهم بغير علم (.. ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم..)(25)، وهذه الحال أفادت مزيدا من التشنيع عليهم والتبكيت لهم، و"(بغير علم) حال من المفعول، أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال"(3)، "وفيه تنبيه على أن كيدهم لا يروج على ذي لب، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء"(4).

وتتوفى الملائكة الكفار في حالة ظلمهم لأنفسهم (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم..)(28) وهذا الوصف يشعر بانتهاء حياتهم بالظلم، وينذر بسوء العاقبة في الآخرة. فالملائكة توفتهم "حال كونهم مستمرين على الشرك، الذي هو ظلم منهم لأنفسهم، وأي ظلم حيث عرضوها للعذاب المقيم"(5).

وفي المقابل تتوفى الملائكة المؤمنين طيبين (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)(32)، "والمعنى أنهم صالحو الأحوال مستعدون للموت، والطيب الذي لا خبث فيه"(6)، وإذ تتوفاهم

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص7
2) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص193
3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406
4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص124
5) نفسه: ج14، ص128
6) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص474

الملائكة طيبين، فإنها تحييهم بالسلام (يقولــون ســلام عليكــم)(32) و "(يقولــون) حــال مــن الملائكة"(1).

والذين مكروا السيئات يأخذهم الله في تقلبهم (أو يأخذهم في تقلبهم)(46)، ولعل اختيار هذه الحالة، كان لإبعاد أي وهم من الأوهام، التي قد ترد على أولئك الكفار، حين يظنــون أن حالــة الحركة والتقلب هي أبعد ما تكون عن الإفناء والتدمير، فهو "يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم، فإنــه تعالى قادر على إهلاكهم في السفر، كما أنه قادر على إهلاكهم في الحضر، وهم لا يعجــزون الله بسبب ضربهم في البلاد البعيدة، بل يدركهم حيث كانوا"(2).

وكما كان الأخذ واقعا وقت عدم توقعهم له ، كان واقعا في وقت التوقع والترقب، ولكــلا الوقوعين غاية وحكمة (أو يأخذهم على تخوف..)(47)، "وهــو أن يــهلك قبلــهم، فيتخوفــوا، فيأخذهم العذاب، وهم متخوفون متوقعون"(3).

وقد أراد الله أن يتوفى المؤمنين على حالة من الخير، لا مزيد عليها، فاختار لهم أن يتوفوا طيبين "وهي كلمة مختصرة، جامعة للمعاني الكثيرة"(4).

وتتوالى مجموعة من الأحوال متجانسة ومتآزرة في نسق الطاعة والخضوع لله وللحــق، (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلالــه عــن اليميــن والشــمائل ســجدا لله وهــم داخرون)(48)، فما خلق الله من شيء ظلاله ساجدة، وتلك المخلوقات داخرة، "وخــص الظــل بالذكر، لأنه سريع التغير، والتغير يقتضي أمرا مغيرا غيره، ومدبرا له، ولما كان سجود الظــلال في غاية الظهور، بدئ به، ثم انتقل إلى ســجود مــا فــي الســموات ومــا فــي الأرض"(5)، والساجدون، مما خلق الله في السموات والأرض والملائكة غير مستكبرين (ولله يسجد مــا فــي السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون)(49)، وهم خــائفون (يخــافون ربهم من فوقهم)، "وهذه المخافة مخافة الإجلال"(6)، ولله ما في السموات والأرض، وله الديــن

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص133

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص39

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص411

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص25

5) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص483

6) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص206

ويتجلى الاختيار للحال أيضا في قوله سبحانه: (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة)(119) "أي عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه"(1).

ولا شك بأن الحال وسيلة من وسائل الربط المحكم، بينه وبين صاحب الحال والعامل فيهما، وذلك أن "العامل في الحال يكون العامل في ذي الحال"(2) فالعلاقة التي يقوم الحال عليها هي الملابسة(3)، والذي يدل على هذه العلاقة، طبيعة الحال ودوره، "والحق أن الإعراب لا ينتظم الكلمات كقولك: ضرب اللص مكتوفا، إلا بعد أن يكون هناك تعلق ينتظم جميع معانيها"(4)، "والمقصود بالحال، تقييد الحدث المذكور"(5).

وفوق ذلك فإن الحال في المعنى خبر ثان "ألا ترى أن قولك، جاء زيد راكبا، قد تضمن الإخبار بمجيء زيد وركوبه في حال مجيئه"(6) ولكنه يتميز عن الخبر الثاني من حيث طريقة التحامه بصاحب الحال وبالحدث.

وعند مجيء الحال جملة، لا بد لها من رابط "يعقلها بما قبلها ويربطها، لئلا يتوهم أنها مستأنفة، وذلك يكون بأحد أمرين، إما الواو وإما ضمير يعود منها إلى ما قبلها"(7).

وعلاقة الملابسة هذه كانت ماثلة في أحوال السورة، فالباء في (ينزل الملائكة بالروح)(2)، "للحال أي: ملتبسة بالروح، وقيل بمعنى مع"(8).

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص433

2) ابن يعيش: شرح المفصل، ج2، ص58

3) أنظر: حسان،تمام: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب- القاهرة- ط(1) 1993، ص8

4) السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط(1)، 1983م، ص273، 274

5) الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن: شرح كافية ابن الحاجب،قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: د.أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، ط(1)،1998م، ج2، ص55

6) ابن يعيش: شرح المفصل، ج2، ص62

7) نفسه: ج2، ص66

8) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص459

وكذلك (خلق السموات والأرض بالحق...)(3)، "أي أوجد ذلك ملتبسا بما يحق له بمقتضى الحكمة"(1). و(لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس...)(7) و"إلا بشق الأنفس في موضع الحال من الضمير المرفوع في بالغيه، أي مشقوقا عليكم"(2).

والمضللون إنما يقعون ضحية التضليل، بسبب ملابستهم للجهل (.. ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم...)(25).

وتتوفى الملائكة الكافرين، وهم ملتبسون بالظلم (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم..)(28)، "أي حال كونهم مستمرين على الشرك"(3).

والرجال الذين أرسلهم الله إلى الناس منذرين كانوا "رجالا ملتبسين بالبينات"(4).

وأخذ الكفار يكون وقت تلبسهم في التقلب، أو تلبسهم بالتخوف (أو يأخذهم في تقلبهم...)(46)، (أو يأخذهم على تخوف..)(47) ونزل الله (الكتاب تبيانا لكل شيء) أي ملتبسا بتبيان أي شيء.

وحين يلقي الكفار يوم القيامة السلم يلقونه ملتبسا بقولهم (ما كنا نعمل من سوء) (فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء..)(28) "أي ألقوا السلم قائلين ما كنا إلى أخره"(5)

---

1) الألوسي: روح المعاني. ج14، ص96

2) العكبري: التبيان في إعراب القرآن، ج2، ص87

3) الألوسي: روح المعاني. ج14، ص128

4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص411

5) الألوسي: روح المعاني. ج14، ص129

التقديم والتأخير

حقق التقديم والتأخير في السورة غايات دلالية، وأسهم مع غيره في سبك النص، وتقليب وجوه التعبير فيه، مما أبعد عنه الرتابة والملل.

والتقديم والتأخير قد ينظر إليه من منظور الرتبة المحفوظة والرتبة غير المحفوظة، وقد ينظر إليه بوصفه عائدا إلى اختيارات أسلوبية محضة.

وفي السورة آيات أدى التقديم فيها أغراضا دلالية واضحة، تعود إلى إبراز المقدم والعناية به، أو تخصيص المعنىفيه، بالإضافة إلى غايات أخرى... ومن ذلك قوله تعالى: (ومنها تأكلون)(5)، والجملة جزء من آية من الله –سبحانه– فيها على الناس بخلق الأنعام لهم: (والأنعام خلقها لكم)(5). وأول الآية شديد الارتباط بآخرها، فالبداية تشعر بالتخصيص: "أي ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان"(1)، ويتعزز هذا المعنى، ويلمس أثره بالجملة الأخيرة من الآية، وهي تحكي ما يجري في حياتهم اليومية من تجسيد للمعنى، وقد قدم فيها الخبر أو متعلقه: (منها)، لتؤكد عملية الانتفاع منها بالأكل، وكأن أكلهم، وهو ما هو للإنسان، مختص بها، "فإن قلت: تقديم الظرف في قوله (ومنها تأكلون) مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها، قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، أما الأكل من غيرها فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه..."(2)، وليس بالضرورة أن يكون التقديم مفيدا الاختصاص الحقيقي دائما، "والتخصيص غالب الأمر لازم للتقديم"(3)، على أن هذا التقديم لم يخل من فائدة معنوية، فقد أظهر أهمية الأنعام بوصفها طعاما للإنسان، كما أسهم في سبك الآية، إذ جاءت الجملة الأخيرة: (ومنها تأكلون) مماثلة مع سابقتها: (فيها دفء ومنافع)، كما تماثلت مع الجملة اللاحقة لها: (ولكم فيها جمال) (6).

وقريب من هذا التركيب قوله تعالى: (وعلى الله قصد السبيل)(9)،غير أن التخصيص في هذا أوضح؛ إذ لا سبيل للناس إلى الهداية الواضحة المعالم إلا بالرسالات التي أرسلها الله، وبالبيان الذي بينه، فقد يهتدي الإنسان إلى الإيمان بالخالق، لكنه لن يهتدي إلى ما يريده إلا ببيان

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص401

2) نفسه: ج2، ص401

3) القزويني: الإيضاح، ج1،:ص110

منه، فالمعنى "وعلى الله بيان قصد السبيل"(1)، أما سلوك الإنسان له أو الانحراف عنه فذاك شيء آخر. ونلحظ انسجام التركيب الثاني في الآية: (ومنها جائر)، ورتبة الخبر والمبتدأ في الثاني رتبة محفوظة، وحتى في الآية التالية تبقى التراكيب المناظرة لهذا التركيب متماثلة معه: (منه شراب)(10)، (ومنه شجر)(10)، (فيه تسيمون)(10).

وموضوع الآية: (وهو الذي سخر البحر)(14) المركزي هو تسخير الله البحر للناس، وقد قررت ذلك الجملة الأولى، ثم تلتها : (لتأكلوا منه لحما) بتقديم شبه الجملة على المفعول به، وهي باتصالها بالسابقة تؤدي غايتها من إبراز أهمية البحر، ومن فوائد التقديم بيان أهمية المقدم،"كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى"(2)، وتتلوه مباشرة: (وتستخرجون منه حلية تلبسونها) على شاكلتها في الوظيفة والشكل، وبها تكتمل الفكرة، وتترسخ أهمية البحر، فيطرأ عدول على التراكيب اللاحقة: (وترى الفلك مواخر فيه)، حيث وقعت شبه الجملة (فيه) في رتبتها العادية، وربما أغنى ذلك الفعل (ترى) عن التقديم، إذ أن ما تشير إليه الجملة مشاهد، وفوق ذلك فإن مضمون الجملة مختلف عن مضمون سابقتها.

ويحقق التقديم في قوله تعالى: (وبالنجم هم يهتدون)(16) دلالات معنوية، مع تحقيقه تناسبا صوتيا، وليس أحد الأمرين على حساب الآخر، بل إن كلا منهما يتطلب التقديم مستقلا عن الآخر، والمعنى المستفاد من هذا التركيب هو بيان أهمية النجم في حياة العرب، وهو "مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصا، هؤلاء خصوصا يهتدون"(3). ويأتي التركيب في سياق موضوع الهداية، إذ سبق بقوله: (لعلكم تهتدون)(15)، تعقيبا على خلق الله سبحانه مخلوقات دالة على الهداية، وبذا وحد التقديم موقعية الهداية في الآيتين، فالأولى مختومة بـ(تهتدون)، والثانية مختومة بـ(يهتدون)(16)، وحصل في ذلك تناسب صوتي قائم على اتحاد الفاصلة.

وفي الآية: (...للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)(30) تقديم للخبر على المبتدأ ورغم أنه تقديم جار على أصله ، إلا أنه لم يخل من فائدة، ولا سيما أن المقدم مشعر بعلية حدوث الجزاء، ويتآزر وهذا التعلق الذي أفاده التركيب التجانس الصوتي بين السبب والمسبب، وفي هذا

1) الرازي: التفسير الكبير،ج19، ص236

2) سيبويه: الكتاب، ج1، ص34

3) الزمخشري: الكشاف،ج2، ص405

التركيب إعلاء لصفة الإحسان ،وإبراز لها وفيه ترغيب للناس بالوفاء بها ،فليس للجزاء الحسن سبيل غيرها.

ويتماثل مع التركيب السابق قوله تعالى: (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء)(60) وتبين الوجه الآخر لمواقف الناس، غير أن هذا قد يفوق الأول في إظهار العلاقة بين الخبر والمبتدأ، إذ أن هنا التقديم أفاد تخصيصا، أي أن مثل السوء لهم وحدهم، مضاعفا بذلك من الذم لهم، "ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة"(1)، وهذا يشعر بعلية الكفر في استحقاقهم ذلك الذم. وفي المقابل فإن المثل الأعلى لله وحده: (ولله المثل الأعلى)(60).

ويؤكد التركيب: (وعلى ربهم يتوكلون)(42) معنى التوكل ويمدح المؤمنين لتمثلهم إياه تمثلا تاما،

ويبين التقديم أن اعتماد المؤمنين هو على الله وحده، والحق أن التوكل لا يكون إلا على هذا الوجه، وهو الانقطاع "بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية إلى الحق"(2)، فكأن التقديم أكد المعنى بعد وجوده، وهو بذلك يصل إلى أعلى درجات المدح للمؤمنين بإيراده المعنى بالجملة الخبرية المفيدة للتحقق، والمعنى المتحقق هو المعنى الأكمل والأمثل، فقد كانوا "منقطعين إليه معرضين عمن سواه، مفوضين إليه الأمر كله"(3). وقد أحدث التقديم عدولا في أسلوب الآية، فقد بدأت ب(الذين صبروا)، وكان المتوقع أن تستمر.. وتوكلوا على ربهم، لكن عدولها عن ذلك نبه المتلقي لأهمية المعنى الذي تضمنته.

وفي معرض الحديث عن استكبار الكفار عن الخضوع لخالقهم يكشف النص القرآني عن شأن المخلوقات وحالها إزاء هذه المسألة: (ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون)(49)، فهي لا تعبد سواه، وهم يستكبرون عن عبادته "والتقديم لإفادة القصر"(4)، والآية تنكر عليهم ذلك، وكأن المعنى: أتكفرون بالله وكل شيء سواكم يفرده بالعبادة.

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14 ، ص170

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص36

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص146

4) نفسه: ج14، ص157

ويتلو هذا التركيب تركيبا قبله، قدم مفعوله على فاعلـــه: (ثـــم إذا مســـكم الضـــر فإليـــه تجأرون)(53)، ولعله يكشف عن سبب جؤارهم، فالضر قد مسهم هم، ولم يكونوا ليجـــأروا، لـــو أنه أصاب غيرهم، ويدل على عنايتهم الشديدة بأنفسهم أن الضر قد مسهم "مساســـا يســـيرا"(1)، فجأروا إلى الله ، "والجؤار هو رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة"(2)، والغريب أنهم يلجأون إلـــى الخالق الذي يكفرون به ويستكبرون عن عبادته.

وكما أفاد التقديم تلك الفائدة، فقد حافظ على الفاصلة الموحدة، ما أبقى ذلك التوالـــي فـــي المعاني والأصوات.

وبعد أن يرفع الله –جل ثناؤه– الضر عنهم يعودون إلى الإشراك به: (... إذا فريق منكـــم بربهم يشركون)(54)، أي "إذا فريق أي جماعـــة منكـــم بربـــهم الـــذي رفـــع الضـــر عنـــهم يشركون"(3)، وفي التقديم مزيد من الإظهار لبشاعة فعلهم، ويمكن أن نلتفت إلى فاصلـــة الآيـــة وهي (يشركون)، فنجدها منسجمة صوتيا مع سابقتها: (تجأرون)، وهي مع ذلك تبرز المفارقـــة الشديدة في المعنى.

وتسلط الآية: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)(72) الاهتمام على (من أنفســـكم) وهـــي تتناول حالا من أحوال الناس، "ذكره الله تعالى ليستدل به على وجود الإلـــه المختـــار الحكيـــم، وليكون ذلك تنبيها على إنعام الله تعالى على عبيده بمثل هذه النعم"(4)، ولا يخفى أن تقديم (مـــن أنفسكم) أدل على هذه المعاني، فالمرأة كالرجل في الإنسانية، لا تختلف عنه في شيء ومع ذلـــك ميزها الله كما ميزه بصفات تجعلهما زوجين. وتستمر التراكيب بعدها على نسقها ما أســـهم فـــي سبك الآية ولاءم بين مكوناتها، مع أدائه معاني خاصة فالجملة التالية: (وجعل لكم من أزواجكـــم بنين وحفدة)، قدم فيها (من أزواجكم) كما قدم في السابقة (من أنفسكم)، ويمكن أن يؤدي التقديـــم فيها معاني التخصيص، إذ أن الزوجات هن من البشر لا غير، كما أن الأبناء هم من الزوجـــات لا غير، ويظل التقديم مستمرا في الآية إلى آخرها، لكن الجمل تتحول من الخبرية إلى الإنشـــائية الاستفهامية: (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)(72)، والاستفهام في الآيـــة إنكـــاري،

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص165

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص413

3) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص210

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص 83

ومعلوم أن ترتيب الألفاظ بحسب الأولوية في استحقاق الإنكار "وجملة الأمر، أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل فإن بدأت بالاسم، فقلت: أأنت فعلت؟ ... كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور"(1)، وأولى الألفاظ بالإنكار: (بالباطل)، "والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى (يؤمنون) وقدم للحصر، فيفيد أنه ليس لهم إيمان إلا بذلك ، كأنه شيء معلوم مستقيم"(2)، ومثلها، (وبنعمت الله هم يكفرون)(72) وكأنهم، وقد قلبوا المعاني وعكسوا الحقائق قلب القرآن الكريم التراكيب المختصة بذلك.

وفي السورة مواضع قدم المفعول فيها على الفاعل، وأدى ذلك دلالات واضحة، ومنها قوله سبحانه: (... ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(33)، وفيها قدم المفعول على الفعل والفاعل، ما يزيد من إبرازه، "وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة، وبعد الفاعل... فإن عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل، فقالوا ضرب عمرا زيد، فإن ازدادت عنايتهم به قدم على الفعل الناصبة، فقالوا: عمرا ضرب زيد"(3)، وظلم الإنسان نفسه أمر غريب، ومخالف لطباع الإنسان مهما كان، ورغم ذلك، وقعوا فيه، بل إن التركيب قد يوحي بأنهم لم يظلموا إلا أنفسهم، وذلك "لإفادة أن غائلة ظلمهم آيلة إليهم، وعاقبته مقصورة عليهم"(4). وفي هذا التركيب حجبت نفوسهم خلف ظلمهم، وبدا وكأنهم قد تجاوزوها، وتجاوزوا متطلباتها وراحوا ينشطون في فاعلية الظلم التي دان استمرارها وبالا على نفوسهم وتغطية لها.

والمراد هنا إبراز أثر ظلمهم على ذواتهم، لأنهم قد لا يعنون بالآثار الواقعة على غيرهم، وهي موجودة، إذ أن ظلمهم يتعدى ذواتهم إلى غيرهم.

والتركيب: (فإياي فارهبون)(51) "يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله"(5)، وهو مترتب على حقيقة سابقة: (إنما هو إله واحد فإياي فارهبون)(51)، والفاء تشعر بذلك، وكما تضمن التركيب التفاتا وهو عدول بالأسلوب، تضمن

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص92

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص191

3) ابن جني: المحتسب، عن أحمد محمد ويس: جماليات التقديم والتأخير في الدرس البلاغي علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي- بجدة، 1998م، المجلد السابع، الجزء التاسع والعشرون، ص287

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص134

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص50

أيضا تقديما وهو عدول آخر، تآزر مع الالتفات في أداء الغاية، ومنها تلوين الخطاب وإثارة المتلقي.

وفي الآية التالية يتحول التركيب من الطلب إلى الإنشاء الاستفهامي: (أفغير الله تتقون)(52)، وسلط فيه الإنكار على أن يكون غير الله بمثابة أن يتقى. ويشبه التركيب: (إن كنتم إياه تعبدون)(114) التراكيب السابقة.

وفي السورة آيات قدم بعضها على بعض، وروعي في التقديم رتب غير الرتب النحوية، ومنها قوله: (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)(6) حيث قدم فيها الإراحة على التسريح، رغم كون التسريح يسبق الإراحة في الزمان، وظاهر من الجملة الأولى أن الدلالة البارزة في الآية هي الدلالة الجمالية، ولكونها أوضح في الإراحة منها في التسريح قدمت عليه، "فإن قلت لم قدم الإراحة على التسريح قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها"(1)، وكأن الجملة الأولى ذات الشحنة الدلالية الأعلى تسبق إلى الذهن فتستقر فيه ثم تأتي الثانية رادفة لها، أو متممة لفكرتها.

وكذا قوله: (وعلى الله قصد السبيل منها جائر)(9)، إذ أن الأصل هو الهداية، والضلال حالة طارئة عليه، وهذا شأن الحقائق والأباطيل في كل فروع الحياة، فإن العالم كله قائم بالحق، فأي انحراف عن الحق أو خروج عنه محكوم عليه بالزوال.

ومثلها: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17)، إذ أن الفكرة الأساسية التي ينبغي أن تكون مقياسا لغيرها، هي الإيمان بالخالق بمفهومه الصحيح، والتركيب بهذا الترتيب يحاكي ذلك، فحين يقول: (أفمن يخلق) يتبادر إلى الذهن اختصاص الله سبحانه بالخلق والصفات التي يستلزمها هذا الاختصاص، ثم يحضر ما تبقى من الجملة: (من لا يخلق) النقيض، فإذا هو باهت زاهق.

ويمن الله سبحانه بما في الآية: (.. وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)(80)، ومن ذلك ما ينتفع الناس به من جلود الأنعام، حيث يتخذون منها

---

1) الزمخشري: الكشاف ج2، ص401

بيوتا، مغايرة لبيوتهم المعهودة، وهم يستخفونها حالتي السفر والإقامة، وتقديم السفر على الإقامة أدل على ظهور المنة.

وتظهر الآية : (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون)(19) انكشاف سرائر الناس على الله، كما تتكشف له ظواهرهم، وقدم ذكر السر على العلن، لتباين الحالتين، في رأي الناس وفي سلوكهم، فهم في السر أجرأ على المخالفة. وتخاطب الآية -فيما تخاطب- كفار مكة الذين "كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله تعالى يسرون ضروبا من الكفر في مكايد الرسول عليه السلام"(1).

كما أن في تقديم السر تعريضا بمعبوداتهم التي تفتقر إلى هذه الصفة وإلى غيرها، فقد "زيف في الآية أيضا عبادتها بسبب أن الإله يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية"(2).

وربما توهم الإنسان أنه يستطيع أن يؤخر أجله، أو تأمل في ذلك، لما ركب عليه من حب البقاء، فتأتي الآية: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(61) منهية هذا الوهم، ولأن الغالب على الناس رغبتهم في تأخير الموت، لا في تقديمه، قدم التأخير على التقديم مع شمول النفي للأمرين.

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص15

2) نفسه: ج20، ص15

مستوى المعاني

الجملة

الجملة بين الاسمية والفعلية:

بلغت الأفعال المضارعة في السورة 236 فعلا، سواء كانت في جملة اسمية أو فعلية، والأفعال الماضية 174 فعلا، في حين كانت أفعال الأمر 23 فعلا، وهذا يظهر غلبة الأفعال المضارعة على غيرها من الأفعال.

الجمل الفعلية المضارعة الأفعال:

ظهرت في السورة، على نحو أدى إلى آثار أسلوبية ودلالية، أشاعت جو الحركة والتجدد، وحملت معاني، لا يطويها زمان الماضي أو يشكك بوقوعها فعل الأمر... فالآية (ينزل الملائكة بالروح من أمره)(2) استهلت بالفعل المضارع، "والتعبير بصيغة الاستقبال للإشارة إلى أن التنزيل عادة مستمرة له تعالى"(1) والآية (وتحمل أثقالكم إلى بلد)(7) جاءت بعد جملة اسمية، وهي (ولكم فيها جمال)(6) وتغيير النظم إلى "الفعلية المفيدة للحدوث"(2) قد يشعر باستمرار انتفاع العرب بهذه النعمة وشمولها جميع الأوقات وسائر الأحوال، وقوله تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون)(8) جاء بصيغة الاستقبال، "للدلالة على الاستمرار والتجدد، أو لاستحضار الصورة"(3)، ولما كان الإنبات للزرع عملا دائما، جاء بصيغة المضارع (ينبت لكم به الزرع)(11)، "وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار، وأن الإنبات سنته سبحانه الجارية على ممر الدهور، أو لاستحضار الصورة لما فيها من غرابة"(4)

ومثل هذه الآيات، أو قريب منها قوله تعالى: (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا)(14) (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)(14)(وترى الفلك مواخر فيه)(14) (ولتبتغوا من فضله)(14)، وهنا يقوم الفعل المضارع بدور مهم في التصوير وفي استحضار تلك المشاهد

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص143

2) نفسه:ج14، ص، 100

3) نفسه:ج14، ص 102

4) نفسه:ج14، ص 106

و"التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن"(1)، حيث "يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة"(2). وحملت الجمل في الآية (14) معاني المنة من الله سبحانه على عباده، بنعم مستمرة، فناسب تلك المعاني، هذا الأسلوب، ذو الأفعال المضارعة المستمرة.

وحتى يكون الإخزاء للكفار أكبر، جاءت الآيات المنبئة به، بصيغة المضارع (ثم يوم القيامة يخزيهم)(27) (ويقول أين شركائي)(27)، وحتى يكون التكريم للمؤمنين أوضح، جاءت الآيات المبشرة به، بصيغة الجمل الحاضرة الأفعال (تجري من تحتها الأنهار)(31) (يقولون سلام عليكم)(32).

وهكذا آيات على غرارها، ولكنها ذات مواضيع أخرى، كقوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة)(33) (أو يأتي أمر ربك)(33) (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون)(45).

وحين وصف الله تعالى الملائكة ومداومتهم على الطاعة، جعل ذلك في جمل ضارعة الأفعال، مستمرة الحدوث(يخافون ربهم من فوقهم)(50) (ويفعلون ما يؤمرون)(50).

وكان الغرض من جمل أخرى زيادة التشنيع على الكفار وأعمالهم؛ بإحضارها إلى الذهن، بصيغة الحاضر، كالآية: (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم)(56) (ويجعلون لله البنات سبحانه)(57) (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به)(59) (أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)(59) (ويجعلون لله ما يكرهون)(62) (وتصف ألسنتهم الكذب)(62).

وربما استبعد الإنسان الموت، وفر من تصوره، فتحضره الآية إلى ذهنه، وتصوره أمامه: (والله خلقكم ثم يتوفاكم)(70).

وتختار للحياة ، ومظاهرها المتدفقة، أفعال مضارعة: (لتأكلوا منه لحما طريا)(14) (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)(14) (تستخفونها يوم ظعنكم)(80) (يأتيها رزقها رغدا)(112).

---

1) قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، ص 32

2) نفسه: ص 32

وبعد، فلا تخفى المزايا التي وفرها الفعل المضارع؛ بتصوير الأحداث والمشاهد، ونقل الأمور السالفة، أو الآتية، من الغياب إلى الحضور.

الجملة الفعلية :

الفعل الماضي:

خفت الحركة في هذا النوع من الجمل، وأدت الجمل الماضية، أغراضا تختلف عن الجمل المضارعة، وربما يكون السبب في ذلك عائدا إلى اختلاف الماضي عن الحاضر، فالماضي يؤدي معنى اليقين، يظهر ذلك في "قولهم: إن قمت قمت، فيجيء بلفظ الماضي والمعنى (معنى المضارع)، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع، واستقر (لا أنه) متوقع مترقب"(1) "ونحو من ذلك لفظ الدعاء، ومجيئه على صورة الماضي الواقع؛ نحو أيدك الله ، وحرسك الله، إنما كان ذلك تحقيقا له، وتفاؤلا بوقوعه، أن هذا ثابت بإذن الله وواقع من غير شك"(2)

وأول جملة يتجلى فيها الفعل الماضي، مؤديا معنى اليقين، قوله تعالى: (أتى أمر الله)(1) "الذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرا لقرب وقوعه"(3)، "وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه"(4)

وقد أريد لمجموعة من المعاني الرسوخ في القلوب والعقول، وهي معان عقدية إيمانية، فتشكلت في جمل فعلية ماضية الأفعال، من مثل قوله تعالى: (خلق السموات والأرض بالحق)(3)، "ومن الدلائل المذكورة على وجود الإله الحكيم، الاستدلال بأحوال السموات والأرض، فقال: (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) و (خلق الإنسان من نطفة)"(5)، وهي "إشارة إلى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم"(6)، وكذلك (وسخر

---

1) ابن جني، عثمان: الخصائص، ج3، ص105

2) نفسه: ج3، ص332

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص400

4) الشوكاني، ج3، ص181

5) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص288

6) نفسه: ج19، ص288

اليل والنهار والشمس والقمر)(12)، "وثبت أن محرك الأفلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسما وجسمانيا، وذلك هو الله تعالى"(1)، "وإيثار صيغة الماضي، قيل للدلالة على أن التسخير أمر واحد مستمر، وإن تجددت آثاره"(2)، (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا)(43)، "والمعنى: أن عادة الله تعالى من أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولا إلا من البشر، فهذه العادة مستمرة لله سبحانه وتعالى"(3)

والأفعال المستعملة في الجمل السالفة، وإن كانت بصيغة الماضي؛ إلا أن معظمها مستمر، كالخلق والتسخير وغيرهما، ووجدت بعض الأفعال الماضية التي أنجزت أحداثها، وانتهت، مثل: (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون)(113)، و (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل)(118)، و(إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه)(124): وفي المقابل وجدت أفعال ماضية دلت على أحداث حدثت وما زالت، كقوله تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل)(75)، و(وضرب الله مثلا عبدا)(75) و(وضرب الله مثلا رجلين)(76)، و(وضرب الله مثلا قرية)(112).

وهي مع ذلك تدل على الثبوت، كما تقدم.. وسنرى هذه الميزة في جمل السورة الاسمية.

أسلوب الأمر:

وهو من الأساليب الإنشائية، "والأظهر أن صيغته من المقترنة باللام، نحو: ليحضر زيد، وغيرها، نحو: أكرم عمرا، ورويد بكرا، موضوعة لطلب الفعل، استعلاء لتبادر الفهم، عند سماعها إلى ذلك المعنى، وتستعمل لغيره، كالإباحة، نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين، والتهديد، نحو: (اعملوا ما شئتم)، والتعجيز، نحو: (فأتوا بسورة من مثله)، والتسخير، نحو: (كونوا قردة خاسئين)، والإهانة، نحو: (كونوا حجارة أو حديدا)، والتسوية، نحو: (اصبروا أو لا تصبروا)، والتمني، نحو: ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي، والدعاء، نحو: رب اغفر لي، والالتماس كقولك لمن يساويك رتبة، بدون استعلاء، ثم الأمر، حقه الفور؛ لأنه الظاهر من الطلب"(4) ، وهو قد يكون طلب فعل، وقد يكون طلب ترك، وطلب الترك هو النهي "وله

---

1) نفسه: ج20، ص3

2) الألوسي: روح المعاني، ج14،ص 109

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص36

4) القزويني: التلخيص في علوم انبلاغة، ص 169،170،171

حرف واحد، وهو (لا) الجازمة، نحو قولك: لا تفعل، وهو كالأمر في الاستعلاء، وقد يستعمل في غير طلب الكف، أو الترك كالتهديد"(1)

ولم يشغل أسلوب الأمر مساحة واسعة في السورة، قياسا إلى الجمل المضارعة الأفعال والماضية، ولعل ذلك عائد إلى طبيعة السورة المكية؛ إذ عنيت – في غالبها – بأمور العقيدة، ويتطلب أداؤها أسلوبا يأتي قبل الأمر الصريح، ويختلف عنه، وفي ذلك مراعاة لحال المتلقي المحتاج إلى تمكين قواعد فكرية في نفسه، ثم البناء عليها... وقد يعود ذلك أيضا إلى شيوع ظاهرة أخرى في النص القرآني، تتمثل في إيراد الطلب بأسلوب خبري، سواء كان الطلب، طلب فعل أو طلب ترك، وظهر هذا في آيات عديدة، "كقوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن) و(والمطلقات يتربصن) و(سلام عليكم) ... ولهذا جعلها العلماء من أمثلة الواجب"(2)، ومثلها في السورة، (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)(12)، و(والله يعلم ما تسرون وما تعلنون)(19)، و(إنه لا يحب المستكبرين)(23)، "وجوز كونه عاما مع حمل الاستفعال على ظاهره من الطلب، أي لا يحب من طلب الكبر فضلا عمن اتصف به"(3)، وقوله تعالى، مادحا المؤمنين: (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)(42)، وكثير غيرها...

وطلب الترك كذلك ورد في جمل منفية مثل: "(فلا رفث ولا فسوق) على قراءة نافع، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا، (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)"(4)، "وقال الزمخشري في قوله تعالى: (لا تعبدون إلا الله) ورود الخبر والمراد الأمر أو النهي أبلغ من صريح الأمر والنهي؛ كأنه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه"(5)

ويردد علماء البلاغة "أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح"(6)، لكن هذا القول لا يشكل في البلاغة قانونا، والبلاغة أبعد ما تكون عن ذلك، وهي القائمة على تعدد المقالات بتعدد المقامات، والمقام المستدعي تصريحا ومواجهة يليق به الأسلوب الصريح،

---

1) نفسه: ص 171

2) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة- بيروت، ط(2)، بلا تاريخ، ج3، ص347

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص122

4) الزركشي، البرهان، ج3، ص347

5) نفسه: ج3، ص351

6) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 55

والمؤمنون المستعدون للاستجابة خوطبوا بأساليب غايرت ما خوطب به الكفار المعاندون، ولـهذا خاطب الله رسوله قائلا: (وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا)(1).

وفي هذه السورة تنوعت المقامات الداعية إلى استخدام أسلوب الأمر، على أنه ظـل لكـل أسلوب خصائصه وأغراضه، فوجد مقام التكليف بالأحكام الثابتة، وقام مقام التقريع، وظهر مقـام القدرة.

ففي مقام التكليف ظهرت التكاليف العامة، في نصوص الأمر الصريحة (أن أنذروا أنـه لا إله إلا أنا فاتقون)(2)، حيث الإنذار بالإسلام، "والإنذار هو الإعلام مع التخويف"(2)، أمر تطلبـه الحياة الإنسانية، ولا تستغني عنه، ويستدعي حصوله حصول لازمته، وهي التقوى، ومثل هـذه الآية، قوله تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...)(36) فـهي سنة الله الثابتة، وقانونه الأزلي مع الأمم، ذلك أنه "ما من أمة إلا وقد بعـث الله فيـهم رسـولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت"(3) ولمـا كان هذا هو شأن المعاني جاءت معلنة هذا الإعلان، وواضحة هذا الوضوح.

وتأتي أوامر أخرى موافقة للسابقة أو مترتبة عليها، وهي: (فسيروا في الأرض فـانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(36)، "والمعنى سيروا في الأرض معتبرين، لتعرفوا أن العذاب نـازل بكم كما نزل بهم"(4)، وقريب منه الآية: (أن أنذروا..)(2)، و (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنيـن إنما هو إله واحد فإياي فارهبون)(51)، وهكذا تتوازى الأوامر، فبعد الأمر بفكرة عقدية أساسـية، يتلوها أمر بفكرة عملية فرعية، ولكنها في الوقت نفسه كلية، من حيث صفتها الجامعة للامتثـال بكل فروعه وبأحسن هيئاته، وفي الآية "نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم.. وهو أبلغ في التـرهيب من قوله وإياه فارهبون"(5)، ولأن المقام مقام ترهيب، فقد تضافرت وسيلة الالتفات مع وسـيلة أخرى، وهي توجيه الخطاب إليهم بالأمر، بما يحمله من استعلاء ومواجهة.

---

1) النساء: 63

2) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص225

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص409

4) الرازي التفسير الكبير: ج20، ص30

5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص413

وثمة حكم هام آخر جرى إيراده بالأمر الصريح، وهو الوفاء بعهد الله (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها..)(91)، ثم أردفه بقوله: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها)(62)، وقد "ذكروا في تفسير (بعهد الله) وجوها، قال صاحب الكشاف: عهد الله هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام... الثاني: أن المراد منه كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره"(1)، وفي هذه الآيات تأكيد على أهمية العهد وضرورة الوفاء به، وتكرار الأمر بصور وألفاظ مختلفة يشعر بذلك (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم)(94)، "والمراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض العهد"(2)، (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا)(95)، "يريد عرض الدنيا وإن كان كثيرا"(3). ولأن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وقراءة القرآن منزهة عن حضور الشياطين ووساوسهم "أمر الرسول بالاستعاذة عند قراءة القرآن لدفع تلك الوساوس"(4). وجاء الأمر بالقول موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)(102) بعد أن قالوا (إنما أنت مفتر)؛ لتظهر المقابلة الضدية بين مقولة الباطل ومقولة الحق. ويأتي الأمر باتباع ملة إبراهيم: (اتبع ملة إبراهيم)(123) لتقرير أمر عقدي، "والمراد هنا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه"(5)

ولحرص القرآن الكريم على وضوح طريق الدعوة، وضرورة الالتزام بها، جاء الأمر بذلك صريحا: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)(125)، "واعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة"(6).

وفي نهاية السورة أوامر متدرجة من الأمر بالمعاقبة، إلى الأمر بالصبر عن إيقاعها، و"(المرتبة الأولى) قوله: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)"(7)، "(المرتبة الثانية) الانتقال من التعريض إلى التصريح، وهو قوله (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، وهذا تصريح بأن

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص108،109

2) نفسه: ج20، ص112

3) نفسه: ج20، ص 113

4) نفسه: ج20، ص117

5) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص250

6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص140

7) نفسه: ج20، ص143

الأولى ترك ذلك الانتقام"(1)، ثم جاءت "(المرتبة الثالثة) وهو ورود الأمر بالجزم بالترك، وهو قوله (واصبر)"(2)، "ولما كان الصبر في هذا المقام شاقا وشديدا، ذكر بعده ما يفيد سهولته، فقال: (وما صبرك إلا بالله) أي بتوفيقه ومعونته"(3)، ولما كان الصبر شاقا طلبه صريحا ومباشرا، ولما كان واقع الكفار يبعث على الحزن والضيق نهي الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنهما، (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون)(127)؛ تسلية له وإشعارا بسوء أفعالهم "والمراد من النهيين محض التسلية لا حقيقة النهي"(4)

خروج الأمر عن أصل معناه:

أفاد الأمر في مواضع من السورة التهديد والوعيد، ويلمح ذلك ، في قوله تعالى: (فلا تستعجلوه)(1)بعد قوله (أتى أمر الله)، "والذي هو بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرا، لقرب وقوعه"(5)، وأمر الله هو "عقابه للمشركين، وقال جماعة من المفسرين القيامة"(6)، "واستعجال العذاب منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم"(7)، "والحاصل أنه عليه السلام، لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولم يروا شيئا، نسبوه إلى الكذب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، بقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)"(8)، ، لا يمنع التهديد من غرض آخر، وهو التهكم، "وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم"(9)

ويظهر التهديد جليا في قوله تعالى: (فتمتعوا فسوف تعلمون)(55)، وفيها "تخلية ووعيد"(10)، وقوله: "(فتمتعوا) لفظ أمر، والمراد منه التهديد"(11)، والذي يكشف عن التهديد

---

1) نفسه: ج20، ص143
2) نفسه: ج20، ص 143
3) نفسه: ج20، ص 143
4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص259
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص400
6) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص181
7) الأندلسي، أبو حيان: ج5، ص458،459
8) الرازي: التفسير الكبير، ج19،ص223
9) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص182
10) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص414
11) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص53

ويقويه، قوله: (فسوف تعلمون)، "أي عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب"(1)، ولا ريب أن الأمر بالتمتع، على سبيل التهديد يفسد عليهم تمتعهم، ويحيله سببا للوعيد والعذاب، ووفر أسلوب الأمر هنا، رهبة ومواجهة بمضمونه "والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط"(2).

وأفاد الأمر في حالات أخرى بيان قدرة الله تعالى، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(40)، وكن "من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي إذا أردنا وجود شيء ، فليس إلا أن نقول له احدث فهو يحدث عقيب ذلك، لا يتوقف، وهذا مثل، لأن مرادا لا يمتنع عليه"(3). وهذا الأسلوب يخرج عن أصل معنى الأمر، الذي لا يجزم فيه بتحقيق المراد، "وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك آمرا: اذهب واقتل واضرب"(4)

ومثل الفعل السابق، أو قريب منه، قوله تعالى، متكلما عن النحل: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (68) ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا)(69)، وأفاد الأمر التسخير؛ ذلك أن النحل لا تعقل، وإنما سخرت بإلهام الله لها، "ثم ذكر تعالى على جهة تعديد النعمة والتنبيه على المنة ثمرة هذا الاتخاذ والأكل والسلوك، وهو . له: (يخرج من بطونها شراب)"(5)

وأما أسلوب الأمر المفيد للإباحة، فلم يكثر وروده في السورة، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة السورة المكية، وإلى طبيعة الواقع والمتلقي. وظهر أسلوب الإباحة في قوله تعالى: (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون)(114)، ويؤدي هذا الأمر مع الإباحة أغراضا أخرى، منها التوبيخ، ذلك أن الله "أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب، وشكر إنعامه بذلك، وقال: (إن كنتم إياه تعبدون)، يعني تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله"(6). ويشعر هذا الأمر أيضا بالامتنان، والتذكير بالنعمة، يظهر ذلك بما عطف على الأمر بالأكل، وترتب عليه: (واشكروا نعمت الله)، ومن المعلوم أن صيغة الأمر "ترد بمعنى

---

1) نفسه:ج20، ص54

2) الألوسي: روح المعاني. ج14،ص 166

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص410

4) سيبويه: الكتاب، ج1، ص12

5) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص497

6) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص432

الإنعام كقوله تعالى: (كلوا من طيبات ما رزقناكم)، وهذا، وإن كان فيه معنى الإباحة فإن الظاهر منه تذكير النعمة"(1)

ويظهر التقريع والتوبيخ في قوله: (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين)(29)، "وإنما صرح تعالى بذكر الخلود؛ ليكون الغم والحزن أعظم"(2)، ويقابله للمؤمنين قوله: (... يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)(32)، ولا يخفى ما يحمله الأمر الصريح من معاني البشارة والحفاوة، وقد قيل: "إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة"(3).

ويلمح في قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)(43) شيء من التوبيخ أو التبكيت، لأن الخطاب موجه لقريش، التي قالت: "الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فقيل: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) على ألسنة الملائكة (فاسألوا أهل الذكر) وهم أهل الكتاب، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرا"(4)، ويتعزز هذا التوبيخ، حين يقترن بالشرط الذي أفاد "معنى التبكيت والإلزام"(5).

وفي قوله تعالى، مخاطبا المشركين (فلا تضربوا لله الأمثال) توبيخ لهم؛ لأن النهي يعني "لا تجعلوا لله مثلا؛ لأنه واحد لا مثيل له"(6)، ويعززه قوله: "(إن الله يعلم)، كنه ما تفعلون وعظمه"(7)، "(وأنتم لا تعلمون) كنهه وكنه عقابه"(8)، وذلك أن الارتباط القائم بين إن وما دخلت عليه والنهي هو ارتباط وثيق، وهو بمثابة التعليل له، ومثله: (إن) في قوله تعالى: "(إن زلزلة الساعة شيء عظيم) بيان للمعنى في قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) ولم أمروا بأن يتقوا"(9).

---

1) الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف: البرهان في أصول الفقه، علق عليه وخرج أحاديثه: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط(1)، بلا تاريخ، ج1، ص 109

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص22

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص408

4) نفسه: ج2، ص408

5) نفسه: ج2، ص408

6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص85

7) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص420

8) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص420

9) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص249

وكما يحمل النهي في قوله تعالى: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام)(116) تحريما للتشريع المفتقر إلى النصوص والأمارات الشرعية؛ فإنه يوبخ الذين يتصفون بذلك، فالمعنى "لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم، ويجول في أفواهكم، لا لأجل حجة وبينة، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة"(1).

الجملة الاسمية في السورة:

والجملة الاسمية بطبيعتها تدل على الثبوت، وتناسب ذلك مع المعاني التي أدته تلك الجمل، وأبرز تلك المعاني، معاني العقيدة، حيث أعلى درجات اليقين والسكون والطمأنينة... يظهر ذلك في قوله تعالى: (أنه لا إله إلا أنا)(2)، وحملت هذه الجملة أول فكرة عقدية ، وأهم فكرة ظلت الرسالات السماوية تلح عليها، وتدعو لها، وتلت هذه الجملة، جملة فعلية طلبية (فاتقون)(2)، ويبدو التباين بين الجملتين، من حيث الشكل؛ لتباين الدلالة؛ فالأولى تخاطب في النفس الإنسانية قوتها الأولى وهي "المسماة بالقوة النظرية، وسعادة هذه القوة في حصول المعارف، وأشرف المعارف، وأجلها معرفة أنه لا إله إلا هو، وإليه الإشارة بقوله: (أن أنذروا انه لا إله إلا أنا)"(2)، "والقوة الثانية هي القوة المسماة بالقوة العملية، وسعادة هذه القوة في الإتيان بالأعمال الصالحة وهو عبودية الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (فاتقون)"(3).

ويظهر العدول من الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله تعالى: (والنجوم مسخرات بأمره)(12)، التي جاءت بعد (وسخر لكم اليل والنهار)(12)، "وعدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار"(4).

وتتكرر الجمل الاسمية الدالة على الوحدانية، كما في قوله (إلهكم إله واحد)(22)، ورغم "إثبات الوحدانية ووضوح دليلها"(5) استمر المشركون على شركهم، ومثلها قوله: "(إنما هو إله واحد)(51)، والمعنى أنه دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من إله، وثبت أن القول بوجود

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص433

2) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص266

3) نفسه: ج19، ص 266

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص109

5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص 406

إلهين محال"(1). وتتوالى الجمل الاسمية، ذات المعاني العقدية: (وله ما في السموات والأرض)(52)، (وله الدين واصبا)(52). ومن المعاني المندرجة ضمن العقيدة، صفات الله تبارك وتعالى: (إن ربكم لرؤوف رحيم)(7)، و(إن الله عليم قدير)(7)، و(إن الله على كل شيء قدير)(77)

وكما جاءت الجملة الاسمية حاملة معاني العقيدة، وهي الراسخة، حملت لنا كذلك سننا كونية، وحقائق إنسانية، وخصائص ثابتة، نرى في ذلك إخبار القرآن عن الإنسان المنتقل من حالة التناهي في العجز إلى التناهي في القوة، (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)(4). وأخبرنا بما لنا من الأنعام، من خصائص كامنة فيها أبد الدهر، (ولكم فيها دفء)(5) (ومنافع)(5) (ولكم فيها جمال)(6) وتوازيها نعمة السماء، الماء، وخصائصها (لكم منه شراب)(10)، (ومنه شجر)(10)، وكذلك نعمة السكن والظلال (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)(80)، (والله جعل لكم مما خلق ظلالا)(81). وعن حقيقة القرآن أخبر بقوله: (وهذا لسان عربي مبين)(103)، وبلاغة القرآن مسألة ثابتة للقرآن، ملازمة له، يدركها المؤمن ويدركها غيره.

وقد تنوعت الجمل الاسمية في موضوعاتها، فمنها ما تحدث عن المؤمنين، ومنها ما تحدث عن الكفار، ومنها ما جاء حكاية عن الكفار.

الجمل الاسمية عن المؤمنين:

في السورة جمل اسمية تتناول المؤمنين، بذكر صفاتهم، أو التحدث عن جزائهم، ويظهر ذلك في: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)(30)،(ولدار الآخرة خير)(30)، (جنات عدن يدخلونها)(31)، لهم فيها ما يشاؤون)(31)، (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)(32)، (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة)(41)، (ولأجر الآخرة أكبر)(41)، (وهم لا يستكبرون)(49)، وحين تعرض القرآن لذكر الذين يعملون الصالحات شرط لقبولها الإيمان، وأورده بجملة اسمية؛ ليدل على ثبات الصفة في الموصوف: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن)، وكذلك حين رخص للمكره بالتلفظ بالكفر ذكر الحالة التي ينبغي أن يكون عليها (وقلبه مطمئن بالإيمان)(106)، "والمراد هنا السكون والثبات على ما كان بعد إزعاج

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص50

الإكراه"(1)، وأورد الله الصبر صفة للمؤمنين بجملة اسمية وأرادها بذلك أن تكون صفة راسخة فيهم (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(126)، "وفيه إرشاد إلى أنه إن صبرتم فهو شيمتكم المعروفة، فلا تتركوها في هذه القضية"(2)، ولم يكن التنويع في إيراد صفتي التقوى والإحسان لمجرد التنويع، بل أفاد تنويعا دلاليا في قوله تعالى: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(128)، "وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث، كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم"(3)

الجمل الاسمية متحدثة عن الكفار:

وثمة جمل اسمية متعلقة بالكفار، طبعتهم بصفات لا تفارقهم: (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا)(20)، (وهم يخلقون)(20)، "ثم ذكر صفة أخرى من صفاتهم فقال: (أموات غير أحياء) يعني أن هذه الأصنام أجسادها ميتة، لا حياة بها أصلا"(4). وتتعاقب صفاتهم (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)(22) (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين)(27)، وهذا "يدل على أن ماهية الخزي والسوء يوم القيامة مختصة بالكافر، وذلك ينفي حصول هذه الماهية في حق غيرهم"(5)، وهم (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم)(28)، (ومنهم من حقت عليه الضلالة)(36)، "أي ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف"(6)، (وما لهم من ناصرين)(38) تؤكد المعنى السابق، حين تنفي عنهم النصرة وتيئسهم منها (وظل وجهه مسودا)(58) "أي ممتلئا غما وحزنا"(7) (وهو كظيم)(58) "أي مملوء غيظا"(8) و(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء)(60)، و(أن لهم النار)(62)، "والمعنى وجب أن لهم النار، وكيف كان الإعراب، فالمعنى، هو أنه يحق لهم النار ويجب ويثبت"(9)، (وأنهم مفرطون)(62)(فهو وليهم)(63)، "أي فهو ناصرهم اليوم، لا ناصر لهم غيره"(10) (ولهم عذاب

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص236

2) نفسه: ج14، ص258

3) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص153

4) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص193

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص20

6) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص409

7) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص57

8) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص168

9) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص63

10) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص415

أليم)(63)، (وأكثرهم الكافرون)(83)، "والمراد أن أكثرهم المصرون الثابتون على كفرهم إلى يوم يلقونه"(1) (وهم لا ينظرون)(85)، ويجب أن يكون العذاب دائما، وهو المراد من قوله: (وهم لا ينظرون)، وفرق بين هذه الجملة وسابقتها: (فلا يخفف عنهم)(85) "وهو أن عدم التخفيف بعد رؤية العذاب، فلذا لم يؤت بجملة اسمية بخلاف عدم الإمهال، فإنه ثابت في تلك الحالة"(2)، و(إنكم لكاذبون)(86)، ولم يقل إنكم لتكذبون، (ولكم عذاب عظيم)(94)، و (الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله)(104)، (ولهم عذاب أليم)(104)، (وأولئك هم الكاذبون)(105)، "فإن قيل: قوله: (لا يؤمنون بآيات الله) فعل، وقوله (وألئك هم الكاذبون) اسم وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية قبيح، فما السبب في حصولها هنا؟ قلنا: الفعل قد يكون لازما، وقد يكون مفارقا، والدليل عليه قوله تعالى: (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) ذكره بلفظ الفعل، تنبيها على أن ذلك السجن لا يدوم، وقال فرعون لموسى عليه السلام: (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين)، ذكره بصيغة الاسم تنبيها على الدوام... إذ عرفت هذه المقدمة فنقول: قوله: (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) ذكر ذلك تنبيها على أن صفة الكذب فيهم راسخة دائمة"(3)، ومثلها: (فعليهم غضب من الله)(116)، و (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم)(108) و"(أولئك هم الغافلون) الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم"(4) و(هم الخاسرون)(109)، "والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم"(5) (ولهم عذاب عظيم)(117).

الجمل الاسمية على ألسنة الكفار:

ونوع آخر من الجمل الاسمية، تلك التي وردت على ألسنة الكفار، في معرض ردهم على دعوة الحق، أو في معرض هجومهم عليها وعلى أصحابها، ومن ذلك قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم: (إنما أنت مفتر)(101)، "وبالغوا في نسبة الافتراء للرسول بلفظ إنما، وبمواجهة

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص209
2) نفسه: ج14، ص207
3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص121
4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص430
5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص127

الخطاب، وباسم الفاعل الدال على الثبوت"(1)، "وقد بالغوا في نسبة الافتراء إلى حضرة الصادق المصدوق.. وجاءوا بالجملة الاسمية مع التأكيد"(2)

المسند إليه:

ظهرت في السورة ظاهرة، تتمثل بإظهار المسند إليه، والعناية به، بغية تنبيه المتلقي إليه، وكان ذلك بتقديمه والبناء عليه، "وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له، قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب ، كان له عليه، وعدى إلى ضميره، فشغل به، كقولنا في: (ضربت عبد الله) عبد الله ضربته: فقال: وإنما قلت عبد الله فنبهته له، ثم بنيت عليه ضربته ورفعته بالابتداء"(3)، وإذا "أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل ، وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأه، بذكره، وتوقعه أولا، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعد ، بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار"(4).

دلالات ذكر المسند إليه:

أسندت الأخبار في هذه السورة إلى الله بهذا اللفظ وبغيره، وأسندت إلى المؤمنين، وإلى الكفار وإلى المخلوقات الأخرى، وكان لإبراز المسند إليه دلالات عامة، تمثلت بتنبيه المتلقي إليه، وإشعاره بعلة اختياره، دون سواه، وأدى ذكر كل واحد منها هدفا خاصا، ضمن الهدف العام.

أما الإسناد إلى الله تعالى فأفاد تذكير المتلقين بالخالق وصفاته، في معرض إسناد أخبار معينة إليه، أفادها ذلك التذكير، وأدى كل لفظ دلالته الخاصة، وأول ما يلحظ من ألفاظ المسند إليه، لفظ الجلالة "الله"، جاء ذلك في قوله تعالى: (إن الله لغفور رحيم)(8) (لا جرم أن الله يعلم ما تسرون وما تعلنون)(23) (والله أنزل من السماء ماء)(65) (والله خلقكم)(70) (إن الله عليم قدير)(70) (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق)(71) (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)(72) (إن الله يعلم)(74) (إن الله على كل شيء قدير)(77) (والله أخرجكم من بطون

---

1) الأندلسي: أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص518

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص231

3) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص101

4) نفسه: ص199

أمهاتكم)(78) (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)(80) (والله جعل لكم مما خلق ظـــلالا)(81) (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)(90) (إن الله يعلم ما تفعلون)(91) (والله أعلم بما يــنزل)(101) (وأن الله لا يهدي القوم الكافرين)(107) (فإن الله لغفور رحيم)(115) (إن الله مع الذين اتقــوا)(128)، هذا والمسند إليه إن كان ذكره "بالعلمية فإما لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم يخصــه كقوله تعالى: (قل هو الله أحد)"(1)، أو قد يكون لأغراض أخرى، وفي الآيــات أعــلاه تكــرار مقصود للفظ الجلالة "الله" وهو لفظ يختص بالخالق، ولم يطلق على شيء ســـواه، كمــا أنـــه لا يختص بصفة من صفاته، بل إنه يحضر إلى الذهن كل صفاته، "و"الله" أي الــذي لــه الإحاطــة الكاملة بجميع صفات الإكرام والانتقام"(2)، "و"الله" أي الذي لـــه الأمــر كلــه"(3)، و""الله" أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما..."(4)، "و"الله" أي الذي له الجلال والإكرام"(5).

وليست الأمور المسندة إليه تعالى كبقية الأمور، إنما هي ذات حضــور دائــم فــي حيــاة الناس، وفي فكرهم وشعورهم، من قبيل السر والعلن، وليست بالقضية الهينة لدى الإنسان، الــذي يسبب له افتقاره إلى العلم ضيقا وخوفا، كما أن في ذكر هذه الصفة لله تعالى تعريضا بمــا كــان عليه العرب من عبادة ما لا يتوفر عليها، أي "أنه زيف في الآية أيضا عبادتها بســبب أن الإلــه يجب أن يكون عالما بالسر والعلانية، وهذه الأصنام جمادات لا معرفة لها بشيء أصــلا فكيــف تحسن عبادتها"(6)

وعليه فإن الدلالات المستفادة من هذا الأسلوب، هي إسناد هذه الصفات والأفعــال إلــى الله حصرا، ونفي قدرة غيره عليها، وهي أمور الخلق وإنزال الماء من السماء، وتوزيع الرزق علــى المخلوقات، والهداية والعلم...، وتكتسب هذه الأفعال التي أسندت إلى الله تعالى شرعية مطلقـــة، وتتلقى بالتسليم، يظهر ذلك مثلا في (والله فضل بعضكم على بعض فـــي الــرزق)(71)، أي أن

---

1) القزويني: الإيضاح، ج1،ص35

2) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه ووضح حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط(1)، 1995م، ج4، ص256

3) نفسه: ج4، ص283

4) نفسه: ج4، ص290

5) نفسه: ج4، ص296

6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص15

الذي قرر ذلك وفعله هو الله. والهدف العام الذي تحققه الآيات هو رد النـــاس إلـــى عبـــادة الله وحده، مادام أنه المحدث لكل ما ذكر والمصرف له.

والشكل الثاني من أشكال المسند إليه الضمير (هو) في قوله تعالى: (هو الذي أنـــزل مـــن السماء ماء)(10)، (وهو الذي سخر البحر)(14)، (وهو العزيـــز الحكيـــم)(60)، (وهـــو أعلـــم بالمهتدين)(125)، ويشترك هذا مع غيره في الدلالات العامة، فـ"(هو) لا غيره مما تدعي فيـــه الإلهية (الذي انزل) أي بقدرته الباهرة(من الســـماء)"(1) مـــاء، وقولـــه تعـــالى (وهـــو أعلـــم بالمهتدين)(125) معناها أن "حصول الهداية والضلالة والمجازاة عليها فإلى الله سبحانه، لا إلـــى غيره"(2).(وهو الذي سخر البحر)(14) تدل على تسخير البحر للركوب، وهو من أعظم آيـــات الله،وربما أفهم إيراد المسند إليه ضميرا للغيبة ضرورة حضور العائد إليه فـــي ذهـــن المتلقـــي، وذلك أن المسند إليه، إن "كان بالإضمار فإما لأن المقام مقام التكلم... وإمـــا لأن المقـــام مقـــام الغيبة؛ لكون المسند إليه مذكورا أو في حكم المذكور"(3).

وورد المسند إليه، بلفظ (الرب) وله خصوصية، تتبع من دلالـــة اللفظـــة، ومـــا يوحيـــه اختيارها...، وقد وردت أربع مرات، منها قوله تعالى: (ثم إن ربك للذين هاجروا...إن ربك مـــن بعدها لغفور رحيم)(110)، "وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين إيماء إلى علة الحكـــم، وفي إضافة الرب إلى ضميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة إظـــهار لكمـــال اللطف به عليه السلام، وإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمـــة بواســـطته عليه السلام،لكونهم أتباعا له"(4). وتكرر لفظ الرب في الآية (119) "وتكرير (إن ربك) لتـــأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير صلـــى الله عليه وسلم، مع ظهور الأثر في التائبين للإيماء إلى أن إفاضة آثار الربوبيـــة مـــن المغفـــرة والرحمة عليهم"(5).

هذا بالنسبة إلى الألفاظ العائدة إلى الله عز وجل، أما بالنسبة إلى غيرها من المبتدآت، فقـــد برز فيها عامل الاختيار، وكان لذلك أثر في الدلالة. ومعلوم أن ذكر المسند إليه قد يكون "لأنـــه

---

1) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص50

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص256

3) القزويني: الإيضاح، ج1، ص34

4) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص144

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص249

الأصل، ولا مقتضى للحذف، وإما لإظهار تعظيمه، أو إهانته"(1). "وإما لكون الخبر عام النسبة إلى كل مسند إليه، والمراد تخصيصه بمعين، كقولك: زيد جاء"(2)

ولفت ذكر المسند إليه نظر المتلقي إليه بالذات، وما كان من شأنه، دون غيره، وأبرز مواضعه في السورة قوله تعالى: (فإذا هو خصيم مبين)(4)، فإذا هو بالذات، وبالرغم مما كان عليه، دون غيره "منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعدما كان نطفة من مني جمادا لا حس به.. ولا حركة"(3)، (والنجوم) على أهميتها للعرب ومقدار تعظيمهم لها (مسخرات بأمره)(12)، (وبالنجم هم)(16) تحديدا (يهتدون)(16)، "كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشا، وكان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم فخصصوا"(4). (والذين يدعون من دون الله)(20) أي الذين اختارهم هؤلاء معبودات لهم (لا يخلقون شيئا)(20)، (وهم يخلقون)(20)، وكذلك (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة)(22) سلط فيها الإنكار إلى القلوب "وإسناد الإنكار إلى القلوب؛ لأنها محله، وهو أبلغ من إسناده إليهم"(5)، (وهم مستكبرون)(22)، "ولعله لم يسلك في إسناد الاستكبار ، مثل ذلك، لأنه أثر ظاهر، كما تشير إليه الآية بعد؛ وقد قال بعض العلماء: كل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه إلا التكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان"(6). وذكر المسند إليه في: (فما هم بمعجزين)(46) يوحي بإهانتهم، وأما ذكره: (وهم داخرون)(48) و(وهم لا يستكبرون)(49) فينبه السامعين إلى أن هذه المخلوقات – على كثرتها وعظمتها – صاغرة غير مستكبرة، (وهم) أي الملائكة (لا يستكبرون). ونقل لنا القرآن الكريم حالة الكافر عند سماعه بولادة الأنثى بالآية (ظل وجهه مسودا وهو كظيم)(58)، حيث أسند الاسوداد إلى الوجه، "وذلك لأن الإنسان إذا قوي فرحه، انشرح صدره، وانبسط روح قلبه من داخل القلب، ووصل إلى الأطراف ولا سيما إلى الوجه، لما بينهما من التعلق الشديد"(7)

---

1) القزويني: الإيضاح، ج1، ص17

2) نفسه: ج1، ص33

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص401

4) نفسه: ج2، ص405

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص121

6) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص121

7) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص56

أما الضمير في: (وهو كظيم) فالظاهر عوده على الكافر، مع استئثار القلب بالحصة الأكبر "أي: ممتلئ القلب حزنا وغما، أخبر عما يظهر في وَجهه، وعن ما يجنه قلبه"(1). ويوم القيامة يكون الشيطان هو ولي الكفار: (فهو وليهم اليوم)(63)، "أي فهو ناصرهم اليوم، لا ناصر لهم غيره، نفيا للناصر لهم على أبلغ الوجوه"(2). وبعد أن أنعم الله عليهم بنعم كثيرة، إذا بهم يكفرون: (أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون)(72)، "(وبنعمت الله) أي الملك الأعظم (هم)، وله عليهم خاصة –غير ما يشاركون فيه الناس من المنن له (يكفرون)"(3).

والإسناد إلى (أنتم) في قوله (وأنتم لا تعلمون)(74)، يوفر مواجهتهم بمجانبتهم للعلم، وقصورهم عنه، ويفيد الإسناد إلى ضمير الغائبين في قوله: (وهم لا يستعتبون)(84) اختصاصا، والمعنى "(ولا هم) أي خاصة (يستعتبون)"(4). ويوحي الإسناد إليه، وإلى نظرائه في: (ولا هم ينظرون)(85)، (والذين هم به مشركون)(100)، (هم الخاسرون)(109)، وغيرها بتغييبهم وإهمالهم على مستوى القول، كما أهملوا على مستوى الفعل. و(ما عندكم)(96) أيها الناس (ينفد)(96)، (وما عند الله)(96) (باق)(96)، و(من) بدلالتها على العموم، هي المسند إليها الوعد بالجزاء الحسن الموفور في (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى)(97) و"(من) متناول في نفسه للذكر والأنثى، فما معنى تبيينه بهما؟ قلت: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور، فقيل (من ذكر أو أنثى) على التبيين ليعم الوعد النوعين جميعا"(5)، "وهذا شروع في تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص؛ دفعا لتوهم اختصاص الأجر الموفور بهم وبعملهم المذكور"(6)

ومثلها في الأسلوب – وإن تقابلت معها في المعنى – الآية: (من كفر بالله)(106)، و(من شرح بالكفر صدرا)(106)، فهي تحمل تحذيرا لكل من يكفر كائنا من كان. وأنبأنا الله بقول الكفار، الذي تضمن اتهام الرسول – عليه السلام – بالافتراء: (إنما أنت مفتر)(101)، "وبالغوا

1) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص488
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص416
3) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص292
4) نفسه: ج4، ص 300
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص427
6) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص139

في نسبة الافتراء للرسول بلفظ (إنما) بمواجهة الخطاب"(1). وافترى الكفار عليه بقولهم: (إنما يعلمه بشر)(103، فرد عليهم القرآن: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي)(103)، وأسند العجمة إلى اللسان، وهو أبرز أعضاء النطق، واللغة منسوبة إليه، "واللسان في كلام العرب اللغة"(2)، وأسند الفصاحة والبيان إلى (هذا) المشار به إلى القرآن في قوله: (وهذا لسان عربي مبين)(103)، ولعله يفيد توبيخا لهم، وهو الماثل أمامهم، مثولا يسمح لهم بإدراك واقعه العربي المبين. "وإن كان المسند إليه بالإشارة، فإما لتميزه أكمل تمييز؛ لصحة إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة حسا، كقوله:

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه"(3)،

"وإما للقصد إلى أن السامع غبي، لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس... وإما لبيان حاله في القرب ... كقولك: هذا زيد..."(4). والإسناد إلى (أولئك) في قوله تعالى: (وأولئك هم الكاذبون)(105)، و(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم... وأولئك هم الغافلون)(108) أفاد استبعادهم وتحقيرهم، "(وأولئك) أي البعداء (البغضاء) (هم) أي خاصة (الكاذبون)"(5)، ومعلوم أن الكاف إذا اتصلت باسم الإشارة، جعلته للبعيد "فإذا أريد الإشارة إلى البعيد أتي بالكاف وحدها"(6)، "وقد يجعل (البعيد) ذريعة إلى التحقير"(7) والذي يقوي ذلك السياق.

حذف المسند إليه:

"وأما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر؛ وإما لذلك مع ضيق المقام. وإما لتخييل أن في تركه تعويلا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلا على شهادة

---

1) الأندلسي: أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص518
2) نفسه: ج5، ص 518
3) القزويني: الإيضاح، ج1، ص38
4) نفسه:ج1، ص39
5) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص313
6) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج1، ص134
7) القزويني: الإيضاح، ج1، ص38

اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين!! وإما لاختبار تنبه السامع له عند القرينة... وإما لإيهام السامع أن في تركه تطهيرا له عن لسانك، أو تطهيرا للسانك عنه"(1)

وفي السورة ثلاثة مواضع، اتضح فيها حذف المسند إليه، وكان لهذا الحذف دلالاته المقصودة، وهي: (أموات غير أحياء)(21)، و(قالوا أساطير الأولين)(24)، و(متاع قليل)(117)، "و(أموات) خبر مبتدأ محذوف، أي هم أموات"(2)، وحذفه قلل من حضوره إلى الذهن، وكشف عن تجاهل واحتقار له؛ إذ لم يثبت وجوده لفظ، يدل على الاهتمام به أو يوضحه، واستولى الخبر على الجملة، واستأثر هو بالاهتمام.

وحين سئل الكفار: (ماذا أنزل ربكم)(24) (قالوا أساطير الأولين)(24)، هكذا دون أن يقولوا "ما أنزله ربنا"، وهم المنكرون لانتسابه إلى الله، ولا يتفق الإقرار بكونه من عند الله مع وصفه بالأساطير، وربما أرادوا من حذفه إفهام السامعين خلوه من الذهن، وعلى هذا يكون التقدير: "المذكور أساطير الأولين"(3)، وإذا قدر ""المنزل أساطير الأولين" فـ"هو على سبيل السخرية""(4). و"(متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف، أي منفعتهم فيما هم عليه من أعمال الجاهلية منفعة قليلة، وعقابهم عظيم"(5). وحذف المبتدأ يشكك بكون ما هم فيه متاعا، "أي ما هم فيه لفنائه، وإن امتد ألف عام (ولهم) بعده (عذاب أليم) ومن ألمه العظيم دوامه، فأي متاع هذا"(6). ويشبه هذا ما قيل في: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)(106) من أنه "لم يصرح به إيماء إلى أنه ليس بكفر حقيقة"(7)

المسند:

ليست الأخبار ذات طبيعة واحدة، فمنها الأسماء المفردة؛ وفيها الجامدة والمشتقة، ومنها الجمل اسمية وفعلية. ولم يخل هذا التباين في أشكال الخبر من دلالات، كان لا بد من التعرض لها وبيان دورها.

---

1) القزويني: الإيضاح، ج1، ص31
2) الأندلسي: أبو حيان، البحر المحيط، ج5، ص468
3) نفسه: ج5، ص470
4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406
5) نفسه: ج2، ص433
6) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص320
7) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص143

الأخبار المشتقة:

الأصل في الجملة الاسمية أن تكون أخبارها أوصافا، وقد قيل: "الاسم متعين للابتداء؛ لدلالته على الذات، والصفة للخبرية؛ لدلالتها على أمر نسبي"(1)، "والأصل في الخبر أن يكون أحد الأوصاف الخمسة؛ ذلك أن الموصوف يحمل جرثومة الحدث بدلالته على موصوف بالحدث"(2)

ولم تخرج الجمل الاسمية في السورة عن هذا الأصل؛ إذ كثرت فيها الأخبار المشتقة، وتنوعت فجاءت من أسماء الفاعلين وأسماء المفعولين وصيغ المبالغة وبعض الصفات المشبهة وبعض أسماء التفضيل. وتشترك هذه الأوصاف في معان عامة، تلك هي للدلالة على الثبات والرسوخ – على تفاوت بينها في ذلك – ولكنها جميعا تغاير الفعل، الدال على الحدوث والتجدد، ذلك أن "موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"(3)، وإذا جاء المسند اسما "فيستفاد منه الثبوت"(4). غير أن هذه الأوصاف تعد نوعا خاصا من الأسماء، فهي مشتقات، "والمشتق: ما أخذ من غيره، ودل على ذات، مع ملاحظة صفة كعالم وظريف"(5)، ولا بد من ملاحظة ذلك في الأخبار المشتقة في آيات السورة، فهي تبرز الصفات ملتبسة بالذوات.

ويمكن لنا تقسيم الأخبار المشتقة بحسب المسند إليه، وأولاها ألفاظ الذات العلية ثم المؤمنون والكفار والمخلوقات الأخرى كالنجوم. وكذلك الأخبار التي أسندها الكفار إلى الرسول عليه السلام.

---

1) القزويني: التلخيص، ص121-122

2) حسان: البيان في روائع القرآن،ص42

3) الجرجاني: دلائل الإعجاز: ص133

4) القزويني: الإيضاح، ج1، ص86

5) الحملاوي، أحمد: شذا العرف في فن الصرف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت،1991م، ص49

أما المشتقات التي أسندت إلى الله تعالى، فقد كثرت منها صيغ المبالغة، ومعلوم أنها صيغ "بنيت للمبالغة؛ لأنها بنيت للفاعل من لفظه"(1)، "وأجروا اسم الفاعل؛ إذ أرادوا أن يبلغوا في الأمر ، مجراه إذا كان على بناء فاعل لأنه يريد به ما أراد بفاعل، من إيقاع الفعل؛ إلا أنه يريد أن يحدث عن المبالغة، فما هو الأصل الذي عليه أكثر المعنى: فَعُول وفَعَّال ومِفْعال وفَعِل. وقد جاء: فعيل كرحيم و عليم"(2). ووردت هذه الصفات منسوبة إلى الله تعالى في مواضع مختلفة من السورة، وهي – مرتبة – (إن ربكم لرؤوف رحيم)(10)، (إن الله لغفور رحيم)(18) (فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47)، (وهو العزيز الحكيم)(65)، (إن الله عليم قدير)(70) (إن الله على كل شيء قدير)(77)، (إن ربك من بعدها لغفور رحيم)(110)، (فإن الله لغفور رحيم)(115)، (إن ربك من بعدها لغفور رحيم)(119)، وأبرزت هذه الصيغ صفات الرأفة والرحمة والمغفرة والعزة والحكمة والعلم والقدرة، وهي إذ نسبت إلى الله تعالى، فقد اكتسبت غزارة في دلالتها، وتميزا في معناها، بل إنها أفادت مع التكثير والمبالغة، معنى الكمال؛ ذلك أنها صفات الخالق، لا صفات المخلوق المحدود. على أن مجرد توفر تلك الصفات في جهة ما دال على عظمتها، وفارض على الآخرين هيبتها والتوجه إليها، فكيف وقد توافرت في الخالق؟! ولعل موقعها في آخر ألآي ذو أثر، إذ يترك للمتلقي المجال للتفكير فيها والتدبر، والذهاب معها إلى أن تنفد طاقته ولا تنفد دلالتها. وربما استدعت هذه الصفات الصفات المقابلة، وهي صفات البشر، فصفة الرحمة والمغفرة في قوله: (إن الله لغفور رحيم)(18)، مثلا، أنتم المستفيدون منها، "حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم بتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها"(3)

والله بذلك "كثير الرحمة والمغفرة ... ومن رحمته إدامتها عليكم"(4)، وصفة العلم كذلك، في: (إن الله عليم بما كنتم تعملون)(28) تعني أنه عالم بما كنتم عليه، والله رؤوف رحيم، بمعنى: "أنه يمهل في أكثر الأمر؛ لأنه رؤوف فلا يعاجل بالعذاب"(5). وقد يحمل هذا جانبا من التوبيخ، لأن صفة الرأفة والرحمة والمغفرة، الواردة على سبيل التكثير، يقابلها من الإنسان أفعال كثيرة تستدعي هذا القدر من المغفرة والرأفة والرحمة. وقد يزيد من هذا التوبيخ تكرار تلك الصفات، ويصاحبه من من الله على عباده؛ بتفضله عليهم بها، وبإنعامه عليهم بآثارها.

---

1) سيبويه: الكتاب، ج1، ص117

2) نفسه: ج1، ص110

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص405

4) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص191

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص40

ولعل في تكرار بعض الصفات كالقدرة في هذه التراكيب وبهذه الصيغ، إيماء إلى ما كان عليه كفار مكة، بخاصة من عدم تيقنهم بهذه الصفة أو عدم تفهمهم لها، وإلى الإنسان بعامة، الذي يظل مشدودا إلى الأشياء المادية، وإلى الصفات البشرية المحدودة. وفي الآية (70): (إن الله عليم قدير)، "ذكر أنه جل شأنه مستمر على العلم الكامل والقدرة الكاملة، لا يتغيران بمرور الأزمان، كما يتغير علم البشر وقدرتهم، ويفيد الاستمرار الجملة الاسمية، والكمال صيغة فعيل"(1).

ومع اشتراك هذه الصفات في تلك المعاني؛ إلا أنها تختلف في خصوصيات لكل منها، فالصيغة على وزن فعول تختلف في دلالتها عنها على وزن فعيل؛ ذلك أن فعولا لمن كثر منه الفعل، أو إذا "كان قويا على الفعل قيل فعول مثل صبور"(2)، وأما فعيل فـ"هو لمن صار له كالطبيعة"(3)، وهو في المبالغة يدل على معاناة الأمر وتكراره، حتى كأنه خلقة في صاحبه، وطبيعة فيه"(4).

ويمكن للدارس أن يتلمس تلك الفروق في صيغ السورة، فيجد صفات الرأفة والغفران مقرونة إلى صفة الرحمة غير مرة، وقد يوحي هذا بأن صفة الرحمة هي بمثابة القاعدة الأولى والسجية الراسخة التي تصدر عنها الرأفة والمغفرة؛ ذلك أنه يلمح من صيغتيهما معنى الفعل والأثر على الناس، أكثر مما يلمح من (رحيم) الدالة بشكلها على السجية والطبع، وكذلك الشأن مع صفتي العزة والحكمة: (وهو العزيز الحكيم)(65)، حيث تظهر لهما آثار ، ويتسبب عنهما أحكام وأفعال لله سبحانه.

ويصف الله ما عنده من الثواب أو النعيم الذي ينعمه على عباده بالبقاء بصيغة اسم الفاعل: (وما عند الله باق)(96)، وقد سبق هذه الجملة إخبار عما عند الناس بالنفاد، غير أنه بصيغة الفعل: (ما عندكم ينفد)(96)، "وفي إيثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى"(5)

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص188

2) العسكري، أبو هلال: الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط(3)، 1979م، ص15

3) السيوطي: همع الهوامع، ج2، ص97

4) السامرائي، فاضل: معاني الأبنية في العربية، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط(1)، 1981م، ص117

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص225

وأما الصفات التي نسبت إلى الكفار فهي الإنكار: (قلوبهم منكرة)(22)، والاستكبار: (وهـم مستكبرون)(22)، ونفى عنهم النجاة من العذاب: (فما هم بمعجزين)(46)، ووصـف وجوههم بالسواد: (ظل وجهه مسودا)(58)، ونسب إليهم الحزن والغم الشديد: (وهو كظيم)(58)، ونسبهم إلى الإهمال والنسيان: (وأنهم مفرطون)(62)، "أي متروكون منسيون في النار"(1)، وأسند إليهم الكفر: (وأولئك هم الكافرون)(83)، والشرك في: (والذين هم به مشركون)(100)، ونسب إليهم الكذب: (وأولئك هم الكاذبون)(105)، وكذلك الغفلة: (وأولئك هم الغافلون)(108)، والخسران (هم الخاسرون)(109)، والظلم: (وهم ظالمون)(113). ويغلب اسم الفاعل على المشتقات الأخرى التي وصف بها الكفار ، وتوجد بينها الصفة المشبهة، ووردت مرتين، واسم المفعول مرة، وصيغة المبالغة مرة.

ويدل اسم الفاعل – بوصفه من الأسماء – على الثبوت، وتدل أسماء الفاعلين المنسوبة إلى الكفار على رسوخ تلك الصفات فيهم: (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة)(22)، أي أن "هم مستمرون على شركهم منكرون وحدانيته"(2)، "وإسناد الإنكار إلى القلوب لأنها محله"(3)، وهي بذلك "لا يؤثر فيها وعظ ولا ينجع فيها تذكير"(4)، (وهم مستكبرون)(22)، وهم بذلك يجمعون صفتين: "إصرارهم على الإنكار واستمرارهم على الاستكبار"(5).

ويشبه قوله تعالى: (فما هم بمعجزين)(46) قوله تعالى: (وما هم بمؤمنين)(6) وقد استعمل اسم الفاعل لإخراج "ذواتهم من جنس المؤمنين؛ مبالغة في تكذيبهم؛ ولهذا أطلق قوله: (مؤمنين) وأكد نفيه بالباء. ونحو (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها)"(7)، ومعنى (الكافرون) في قوله (وأكثرهم الكافرون)(83) "الجاحدون المعاندون"(8)، "والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال"(9) حاصل من هذه الصيغة، وكذلك (الكاذبون) في (إنكم

1) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص212
2) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص469
3) الألوسي: روح المعاني، ج14، 121
4) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص121
5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص121
6) البقرة: 8
7) القزويني: الإيضاح، ج1، ص101
8) الأندلسي،أبو حيان: البحر المحيط، ج5، 509
9) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص134

لكاذبون)(86)، "وفيه من الإشعار بالحرص على تكذيبهم ما فيه"(1)، وشـــبيه بـــهذا الوصـــف (المشركون) في (والذين هم به مشركون)(100)، و(الكاذبون) في (وأولئك هم الكـاذبون)(105)، "أي أولئك هم الكاذبون على الحقيقة، الكاملون في الكذب، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكـذب، أو أولئك الذين عادتهم الكذب، لا يبالون به في كل شيء"(2)، وهذه الصيغة تنبيه "علـى أن صفـة الكذب فيهم ثابتة راسخة دائمة"(3)، "والكاذبون اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام"(4)، وقريـب منه (الغافلون)، في قوله: (وأولئك هم الغافلون)(108) أي "الكاملون في الغفلة، الذيـن لا أحـد أغفل منهم لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها"(5). و(الخاسـرون) فـي (لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون)(109)، "والمقصود التنبيه على عظيم خسرانهم"(6)، "وفيـه دلالة على تماديهم في الكفر والعناد وتجاوزهم في ذلك كل حد معتاد"(7). والصفة المشبهة التـي وصف بها الكفار هي اسوداد الوجه، في قوله: (ظل وجهه مسودا)(58)، وتدل الصفة المشـبهة بشكل عام على الثبوت، و"الصفة المشبهة: ما اشتق من فعل لازم، لمن قام بـه، علـى معنـى الثبوت.. "قوله على معنى الثبوت" أي الاستمرار واللزوم"(8)، وهي في الآيـة تصـور حالـة الحزن الشديد، ومقدار التغير الذي يلم بالكفار ، حال سماعهم بولادة الأنثـى "واسـوداد الوجـه كناية عن العبوس والغم والتكره والنفرة التي لحقته بولادة الأنثى"(9). وقد أتبعت لتلـك الصفـة صفة أخرى وهي (كظيم) في قوله: (وهو كظيم)(58)، وهي صفة لقلوبهم؛ تبيـن مـدى الغـم والحزن الذي تحمله قلوبهم، "و(كظيم) يحتمل أن يكون للمبالغـة، ويحتمـل أن يكـون بمعنـى مفعول"(10)، وكلاهما يؤدي معنى المبالغة في الوصف. ووصف الكفار بـ(مفرطـون) وهـي اسم مفعول، "وهو ما اشتق من مصدر المبني للمجهول، لمن وقع عليه الفعل"(11)، وتوحي هـذه

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص209
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص429
3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص121
4) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص520
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص430
6) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص127
7) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص244
8) الاستراباذي: شرح كافية ابن الحاجب، ، ج3، ص500
9) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص488
10) نفسه: ج5، ص488
11) الحملاوي: شذا العرف، ص56

الصيغة بتأثر حاملها ووقوعه تحت الفعل، وفوق ذلك، فإن معنى (مفرطون) في قوله:(وهم مفرطون)(60) أنهم "منسيون متروكون"(1)، وهذا يؤكد وصفهم بالسلبية والإهمال.

أما المؤمنون، فقد وصفوا بالإيمان، في قوله: (وهو مؤمن)()97 والاطمئنان (وقلبه مطمئن بالإيمان)()106، والأمن والاطمئنان في قوله: (كانت آمنة مطمئنة)(112)، والقنوت والحنفية: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا)(120)، ونفى عنه الشرك: (ولم يك من المشركين)(120)، ونسب إليه الشكر: (شاكرا لأنعمه)(121)، وأدرجه في الصالحين: (وإنه في الآخرة لمن الصالحين)(122)، ثم نفى عنه الشرك مرة ثانية: (وما كان من المشركين)(123)، وأسند إلى المؤمنين الإحسان في قوله: (والذين هم محسنون)(128).

ومعظم الصفات التي نسبت للمؤمنين هي من أسماء الفاعلين، واسم الفاعل ، بوصفه من الأسماء، دال على الثبوت والرسوخ، وذلك بخلاف الأفعال الدالة على الحدوث والتجدد، وأسند الاطمئنان في قوله: (وقلبه مطمئن بالإيمان)(106) إلى القلب، وقد نزلت بعد أن تلفظ عمار بالكفر، "فقيل يا رسول الله: إن عمارا كفر. فقال: كلا، إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه"(2)، وهذا الحديث يعزز المعنى الذي تفيده صيغة اسم الفاعل (مطمئن)، ويتضافر هنا شكل الصيغة مع معناها، إذ أن "معنى الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد هنا السكون والثبات"(3). وكذلك في قوله: (كانت آمنة مطمئنة)(112)، ومعنى آمنة "ذات أمن لا يغار عليهم"(4)، وكونها مطمئنة يعني "أنها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق"(5)، وقد تغيرت الصفة اللاحقة بها: (يأتيها رزقها)(112)، "وتغيير سبكها عن الصفة الأولى، لما أن إتيان الرزق متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر"(6). وأسند إلى إبراهيم عليه السلام صفة القنوت: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله)(120)، و"القانت: القائم بأمر الله"(7)، ونفى عنه عليه السلام الشرك بأبلغ أسلوب، إذ قال: (ولم يك من

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، 415
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص430
3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص236
4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص129
5) نفسه: ج20، ص129، 130
6) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص145
7) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص434

المشركين)(120)، و"معناه أنه كان من الموحدين في الصغر والكبر"(1)، "ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم كان غارقا في بحر التوحيد"(2)، "(ولم يك من المشركين) في أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا"(3). وأورد صفة الإحسان بصيغة الاسمية ، في: (والذين هم محسنون)(128) "لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم"(4)، وأسند إلى إبراهيم عليه السلام صفة الحنفية، بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت، "والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه"(5).

وينسب الله – تبارك وتعالى – إلى الإنسان صفة الخصومة، بصيغة المبالغة، "وصفا للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة"(6)، "والخصيم من صفات المبالغة من خصم بمعنى اختصم أو بمعنى مخاصم"(7)، ويتبعها بصفة الإبانة: (فإذا هو خصيم مبين)(4)، باسم الفاعل، "والمبين الظاهر الخصومة، أو المظهرها"(8).

وثمة مشتقات أسندت إلى مخلوقات أخرى، وأدت دلالاتها الخاصة فـ(النجوم مسخرات بأمره)(12)، "والمعنى أنها مسخرة لما خلقت له بقدرته تعالى وإيجاده"(9)، ومسخرات اسم مفعول، وتدل هذه الصيغة على من وقع عليه الفعل، وعلى ثبوت هذا الفعل فيها، وإذا كان التسخير أسند إلى النجوم بتلك الصيغة المفيدة للدوام والاستمرار، فإن الظلال، وهي ظلال كل الأجرام أسند إليها الدخور بصيغة اسم الفاعل: (وهم داخرون)(48)، "والمعنى أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها ... أي ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه... والأجرام في أنفسها داخرة"(10). وينقل لنا القرآن وصف الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم، إذ قالوا (إنما أنت مفتر)(101)، بهذه الصيغة التي

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص136
2) نفسه: ج20، ص 137
3) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص145
4) نفسه:ج5، ص 153
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص434
6) نفسه:ج2، ص 401
7) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص 460
8) نفسه: ج5، ص460
9) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص109
10) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص412

أرادوا بها رميه – عليه السلام – بالافتراء الثابت والدائم، "وبالغوا في نسبة الافتراء للرسول بلفظ إنما، وبمواجهة الخطاب، وباسم الفاعل الدال على الثبوت"(1)

وورد اسم التفضيل مخبرا به، في السورة، كما في قوله تعالى:(أن تكون أمة هي أربى من أمة)(92)، والآية: (وجادلهم بالتي هي أحسن)(25) (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(126). وجاءت الأولى في معرض النهي عن نقض العهود، وتحذير الناس منه، بحثا عن القبيلة الأقوى أو الجماعة الأقوى، و"نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم، إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها، غدرت الأولى، ونقضت عهدها، ورجعت إلى هذه الكبرى"(2)، ومعنى أربى "أكثر... وهذه الزيادة، قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف ... و المعنى: أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم، لسبب أن أمة أزيد في القوة والكثرة من أمة أخرى"(3)، ويترتب على ذلك أن النكث المعلق بهذا السبب سيبقى مستمرا باستمرار سببه، وهو التفاوت بين جماعات البشر.

ويخاطب الله رسوله وحاملي دعوته بأن يتخيروا من الأساليب أحسنها، في قوله: (وجادلهم بالتي هي أحسن)(125) أي "بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة"(4)، وتترك هذه الصيغة لكل مكلف أن يبدع غاية ما يصل إليه فكره من أساليب الجدال الحسن. ثم لا يكون الأحسن اليوم هو الأحسن في الغد.

وتجعل الآية: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(126)، الصبر على عدم المعاقبة خيرا منها، " وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة والإنفاع أفضل من الإيلام"(5)، وفي كل خير، ذلك أن الأول مصرح به من الله والثاني خير منه.

والآيتان: (ولدار الآخرة خير)(30) و(ولأجر الآخرة أكبر)(41) يشبه التفضيل فيهما التفضيل فيما سبق، غير أنه لا يشبهه من جميع الوجوه، ذلك أن ما ينالونه في الدنيا جزء من

---

1) الأندلسي.أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص518

2) القرطبي. محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي – القاهرة ،1967م، ج10،ص 171

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص111

4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص435

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص143

الخير، لكن وقوعه في الدنيا الفانية المحدودة، يجعله مغايرا لخير الآخرة، ولا يقوم معه في مفاضلة حقيقية، "والكلام كما يشعر به كلام غير واحد على حذف مضاف، أي ولثواب دار الآخرة، أي ثوابهم فيها خير مما أوتوا في الدنيا من الثواب"(1)، (وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء، قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذكر لك من الآخرة أكثر)(2). وتدل لفظتا الدنيا والآخرة على معناهما، وحلت فيهما الصفة محل الموصوف فالدنيا هي الحياة الدنيا، والآخرة كذلك، وتستدعي الحياة الدنيا الحياة القصوى، وهي الغاية في الخير، وتستدعي الحياة الآخرة –الحياة الأولى ، وتوحي الآخرة بالبقاء، وتشعر المتلقي بالانتظار والترقب، في مقابل الأولى المعيشة والمكشوفة.

ويقرب الله تعالى في الآية: (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب)(77)أمر الساعة وسرعة حدوثها، إلى الأذهان، فيشبه ذلك بأسرع ما يدركه المتلقي العادي، وهو لمح البصر، ثم ينطلق منه إلى ما هو أسرع دون تحديد، ووفر ذلك صيغة: (أقرب)، التي لم يذكر معها المفضول، (كما تقول: (أنت أفضل) ولا تقول من أحد، وكما تقول(الله أكبر)، ومعناه الله أكبر من كل شيء)(3) .

و(كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه هو كلمح البصر، أو هو أقرب: إذا بالغتم في استقرابه)(4)، فدلالة (أقرب)مفتوحة، وهذا يترك للإنسان أن يتناهى في تصوره، ينتهي تصوره، ولا تنتهي دلالتها.

وليست خير في قوله تعالى (إنما عند الله هو خير لكم)(95) كـ (خير) الأولى في قوله (ولدار الآخرة خير)(30)، ذلك أن الأولى تهدف إلى بيان الخير لهم، بأنه خير الآخرة، وأن ما يعدهم الكفار به في الدنيا ليس خيرا، و المراد منه حجبهم عن الآخرة، ويؤكد ذلك صدر الآية(ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا)(95)،"(ولا تشتروا) لا تستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسير، وهو ما كانت قريش يعدونه ويمنونهم، إن رجعوا، (إنما عند الله) من إظهاركم وتغنيمكم ومن ثواب الآخرة (خير لكم. ما

---

1) الألوسي: روح المعاني،ج14، ص131
2) الزمخشري: الكشاف، ج2. ص410
3) سيبويه، الكتاب، ج2، ص33
4) الزمخشري: الكشاف، ج2. ص421

عندكم) من أعراض الدنيا"(1). ويظهر من هذا أن (خير) خرجت عن كونها للتفضيـــل، لتـدل على (ثبوت الوصف لمحله، من غير تفضيل)(2) ك(قولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مـــروان؛ إنه على معنى عادلا)(3) . و(أعلم) في قوله تعالى: (والله أعلم بما ينزل) (101) و(إن ربك هــو أعلم بمن ضل عن سبيله)(125) (وهو أعلم بالمـــهتدين)(125) خرجــت هـــي الأخــرى عــن التفضيل، لتدل على أن الله هو العالم، "والظاهر أن صيغة التفضيل التي هـــي(أعلــم)فـــي هــذه الآيات يراد بها مطلق الوصف، لا التفضيل؛ لأن الله لا يشاركه أحد في علم ما يصير إليه خلقــه من شقاوة وسعادة"(4).

هذا، وأن أطلق العلم على ما يتصف به المخلوق، إلا أنه يظل مغايرا لعلم الله؛ فـــلا تقــع المفاضلة وبالرغم من خروج هذه الصيغة عن التفضيل، تبقى محتفظة به شكلا، وربما أبقى هــذا الشكل أثرا، يكمن في غنى الدلالة وعلو الصفة، حتى إذا توهم أحد أن صفة العلم التام قائمة فـــي أحد، فالله أعلم، ولا يخفى الفرق بين قولنا عليم وأعلم، (التي معناها المبالغـــة والمفاضلـــة)(5)، ويعزز هذا أن المفضول لم يذكر معها؛ ذلك أن صيغة التفضيل إذا (أضيفت إلـــى شـــيء فـــهي بعضه، كقولك : زيد أفضل الناس)(6).

---

1) نفسه:ج2، ص427

2) الحملاوي، شذا العرف، ص61،62

3) ابن الحاجب، أمالي ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار- عمان، دارالجيل - بيروت، 1989م، ج1، ص315

4) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 1983م، ج3، ص386

5) ابن جني، الخصائص، ج3، ص333

6) نفسه:ج3، ص 333

التوكيد

اهتمت العربية بالمعنى وتمكينه، ووفرت لذلك وسائله، وهذا شأن اللغة، بوصفها وسيلة للتخاطب، ولا سيما اللغة العربية،"وذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها... فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدرا في نفوسها... فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها،... أصلحوها ورتبوها..."(1).

ومن أبرز وسائل العناية بالمعنى التوكيد بأشكاله المختلفة، "وجدوى التأكيد أنك إذا كورت فقد قررت المؤكد، وما علق به في نفس السامع ومكنته في قلبه، وأمطت شبهة، ربما خالجته، أو توهمت غفلة وذهابا عما أنت بصدده فأزلته"(2). والتأكيد على ذلك، يهدف إلى إنجاح عملية التخاطب، ويدل على حضور المتلقي في ذهن منشئ النص، أو المتكلم، ولا يدل استخدامه – بالضرورة– على إنكار المخاطب للخبر، أو شكه فيه، بل قد يكون ذلك، ويكون غيره، مما يتعلق بطبيعة المعنى، بأن يكون ذا أهمية، فيراد تثبيته في نفس المخاطب، "ومن دواعي التوكيد إماطة الشبهة لغرابة الخبر، وحاجته إلى التقرير والتحقيق"(3)، وذلك كقوله تعالى: (فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك)(4)، "تكرير الضمير في (أنا ربك) لتوكيد الدلالة، وتحقيق المعرفة، وإماطة الشبهة"(5).

والتأكيد جار في كلام الناس، قديما وحديثا، والحاجة داعية إليه نفسيا واجتماعيا. والمتلقي للمعاني المؤكدة لا يحتاج إلى القيام بجهد تأويلي لفهم المعنى؛ لأن التوكيد ينفي كل التوقعات والافتراضات إلا واحدا. وكما ينظر إلى التوكيد من جهة المتلقي؛ فإنه ينظر إليه من جهة منشئ النص؛ إذ يكشف عن تمسكه بمضامين كلامه، وحرصه على تحقيقها، وتكشف مؤكداته عن مدى إصراره.

---

1) ابن جني: الخصائص، ج1،ص215

2) الزمخشري: المفصل، ص111-112

3) أبو موسى، محمد حسنين: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، بلا تاريخ، ص342

4) سورة طه: 11،12

5) الزمخشري: الكشاف، ج3، ص42

والقرآن الكريم، كتاب الله الخالد، إلى الإنسانية كلها - والعرب هم أول من تلقاه - حوى معاني عظيمة الأهمية، وخاطب العرب بأفكار ناقضت مألوفهم، وهم "أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض؛ للغلظة والأنفة وبعد الهمة"(1)، "والممعن في البداوة منهم ضعيف الإيمان بدين، قل أن يؤمن إلا بتقاليد قبيلته، وما ورثه عن آبائه"(2). وتبقى الحاجة إلى التأكيد قائمة مع كل المتلقين، عربا وغير عرب...

التوكيد في السورة:

وفي السورة معان عامة، أكدت بأساليب مختلفة... ولعل أبرزها معاني العقيدة، وأولها توحيد الألوهية؛ ذلك الأمر الذي كان استقر نقيضه في نفوس كثير من العرب، فاحتاجوا إلى ما يزعزعه أو يستأصله فازدحمت المؤكدات على إثبات الوحدانية ، وتكررت على مساحة النص، فمن بداية السورة، قوله: (لا إله إلا أنا)(2)، بأسلوب الحصر، إلى أساليب أخرى، كالتقديم في قوله: (وعلى الله قصد السبيل)(9)، بما يفيده التقديم من الحصر أيضا، إلى التأكيد بإبراز الضمير، العائد إليه - تعالى - مسندا إليه، في قوله: (هو الذي أنزل..)(10)، وتكرر هذا النمط مرات عديدة، ومثلها الآيات الجارية على نمط قوله: (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)(82). ولكنها تميزت عن سابقاتها في تصريحها بلفظ الجلالة وإبرازه. وكما أتى النص على أوهام الشرك الفكرية، أتى أيضا على نماذج بشرية موهومة، كان العرب يتعلقون بها، كما كان حالهم مع سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ إذ كانوا يزعمون أنهم على ملته، فنفى عنه الشرك مرارا، وذلك كي يسقط أي تعلق لهم به، وفي المرة الأولى أثبتت له الآية الدين القويم: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا)(120)، "والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه، ونفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش، في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم"(3)، وتلاها نفي الشرك عنه بقوله الصريح: (ولم يك من المشركين)(120)، وأردفه بمجموعة من الصفات، هي في الحقيقة ثمار التوحيد، مثل شكره لنعم الله، واختيار الله له، وإنعامه عليه ليكون من الصالحين، ثم نفى عنه الشرك مرة أخرى: (وما كان من المشركين)(123)

---

1) ابن خلدون: المقدمة، ص106

2) أمين، أحمد : فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية -بالقاهرة، ط(9)، 1964م، ص10

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص 434

وأخذ التوكيد في السورة أشكالا مختلفة، أدت جميعا معاني مشتركة، إلا أنه كان لاختلاف أشكال التوكيد دلالات خاصة.

وأبرز أشكال التوكيد التي ظهرت في السورة: التوكيد ب، (إنّ)، والتوكيد المعنوي واللفظي، والتوكيد بالقسم، والتوكيد بالحصر والاستثناء المفرغ، وثمة أساليب أخر أكدت المعاني بها، ولكنها تندرج ضمن موضوعات أخرى كالتقديم والتأخير وموضوع الجملة وغيرها...

التوكيد بـ(إنّ):

تؤكد (إنّ) مضمون الجملة، وهي حرف توكيد تنصب الاسم وترفع الخبر، و"كلمة (إن) لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه"(1). وفي السورة جمل كثيرة أكدت بـ(إن)، ورافقتها اللام المؤكدة في كثير من الأحوال، كما في قوله: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(11) و(إن الله لغفور رحيم)(18) و(فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47) و(إنكم لكاذبون)(86) و(وإن ربك ليحكم)(124). وجاءت في مواضع كثيرة تحمل مع التوكيد تعليلا للحكم قبلها، ومن ذلك: (إن الله لغفور رحيم)(18) "فالجملة تعليل للحكم بعدم الإحصاء"(2)؛ إذ أنها جاءت بعد قوله: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(18)، ومثلها: (.. فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47)، "لأنه أمهلهم ودعاهم إلى التوبة"(3)، وكذلك (فإن الله لا يهدي من يضل)(37) جاءت "علة للجواب المحذوف، أي إن تحرص على هداهم لم ينفعك حرصك شيئا فإن الله – تعالى – لا يهدي من يضل"(4)، وهي بذلك أكدت مضمون الجملة وربطتها بما قبلها. ومن ذلك قوله: (إن ربكم لرؤوف رحيم)(7)، وقد تلت قوله: (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)(7)، أي أن ذلك، كان لأن الله رؤوف بالناس رحيم، وما حملهم على الأنعام إلا أثر من آثار تلك الصفات الراسخة.

والله كذلك متصف بالغفران والرحمة: (إن الله لغفور رحيم)(18)، وهي صفات متأصلة ومؤكدة، وهي في الحقيقة، مسببة النعم المستفيضة الخارجة عن الحصر، (وإن تعدوا نعمة الله لا

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص258

2) الألوسي : روح المعاني، ج14، ص119

3) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل: إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية – بيروت، ط(3)، 1988م، ج2، ص397

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص139

تحصوها إن الله لغفور رحيم)(18)، واقتضى الأمر توكيدا لتلبس الناس بأحوال تجعلهم في كثير من الأحيان غير جديرين بتلك النعم.

وتشمل الآية: (لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)(23) وعيدا للكافرين، "والمعنى أنه – تعالى – يعلم إصرارهم على هذه المذاهب الفاسدة، ليس لأجل شبهة تصورها...، بل ذلك لأجل التقليد.. فلهذا قال: (إنه لا يحب المستكبرين، وهذا الوعيد يتناول كل المتكبرين"(1)، وهذا المعنى المؤكد، وهو عدم حب الله للمتكبرين يزيد أسباب العذاب، وينفي أي سبب للنجاة.

ويأتي أخذ الله –سبحانه– للكفار شيئا فشيئا، وذلك مسبب عن صفات متأصلة هي الرأفة والرحمة:(أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47)،"والتخوف التنقص"(2)، ويلمح في هذا التأكيد ترغيب لهم بالارعواء عن غيهم، ذلك أنه "يؤكد لقصد الترغيب، نحو، (فتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم)"(3).

والتعبير: (إن في ذلك لآية لقوم يسمعون)(65) والآيات الجارية على نسقه، يفيد أن تلك المظاهر الحيوية المشار إليها – مع أدائها وظيفة مهمة للحياة– معلل وجودها بأدائها وظيفة أسمى، وهي الدلالة على حقائق الحياة، ومثلها: (إن في ذلك لآية لقوم يعلمون)(67)

ويبدو التعليل واضحا في قوله: (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(74) بعد نهيه –تعالى– عن ضرب الأمثال: (فلا تضربوا لله الأمثال)(74)، وأيا كان معنى ضرب الأمثال؛ فإن مراد هذا التوكيد إشعارهم بتباين علمهم عن علم الله، وربما صعب على أولئك المتلقين تقبل هذه الحقيقة، ولا سيما والأمر يهز قاعدة مهمة وكلية، هي منشأ الخلاف الفكري الحاصل بين الإسلام وحملته من جهة، والكفر وأتباعه من جهة أخرى، والمسألة الجديرة بالاهتمام هي أن هذه التأكيدات الحاصلة باللغة لم تكن بمعزل عن الأدلة العقلية المحسوسة، ولو كانت محض تأكيدات لغوية لما ألزم ذلك المتلقي بشيء، ولما استثار عقله، فها هنا، وبعد أن بين لهم أنهم لا يفلحون في ضرب الأمثال ساق لهم مثلا حسيا، يحمل في طياته أدلة عقلية، يتوصل إليها المتلقي بنفسه... وذلك في: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه

1) الرازي: التفسير الكبير، ج 20، ص 17

2)الزمخشري: الكشاف،ج 2، ص411

3) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص195

سرا وجهرا هل يستوون)(75)، ثم تلا ذلك التعقيب:- (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)(75) ليكون بمثابة التثبيت لهذه الحقيقة المتحصلة من هذا المثل.

وقوله : (إن الله يعلم ما تفعلون)(91) يؤكد نسبة العلم إلى الله -تعالى- مطلقا، ويظلل الجملة الطلبية قبله، ويعزز الطلب: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)(91)، وأما لماذا أكد العلم بالذات، فلكون الإيمان به هو الأدعى إلى الالتزام في الظاهر والباطن.

والجملة: (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)، كما تأكد مضمونها ب، (إن) فقد أكدت الجملة قبلها، وهي: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)، ذلك أن الأولى ترسي قاعدة مفادها أن الناس سيظلون بين ضال ومهتد، ولا سبيل إلى هدايتهم جميعا، فاقتضى ذلك من الرسول وحملة دعوته الدعوة إلى الإسلام بالأساليب التي ذكرتها الآية، وأن تكون هي محل نظرهم. وهكذا أفادت (إن) في هذا الأسلوب تأكيدا مركبا، فهي تؤكد جملة لاحقة، هي علة لجملة سابقة، وهكذا "ترى الجملة إذا هي -(إن)- دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر"(1)..، ".. وهذا الضرب ، كثير في التنزيل جدا، من ذلك قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم)"(2)، "فقوله: (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) بيان للمعنى في قوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم) ولم أمروا بأن يتقوا"(3)

وتختم السورة بجملة مؤكدة ،(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(128)
وهي سبب عام للالتزام بالأوامر واجتناب النواهي ، وهي قاعدة كلية، فلهذا حظيت بعناية،"وهي تعليل لما سبق من الأمر والنهي "(4) ،وهي لغير ما ورد في السورة أيضا، إذ أن معناها عام، "والمراد بالمعية الولاية الدائمة، التي لا يحول حول صاحبها شئ من الجزع والحزن وضيق الصدر"(5).

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص243

2) نفسه: ص243

3) نفسه: ص249

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص259

5) نفسه: ج14، ص259

وليست (إنّ) الواردة في السورة كلها على هذا النحو، إذ أن منها ما جاء في بداية كلام . " و اعلم أن الذي قلنا في "إن" من أنها تدخل على الجملة من شأنها، إذا هي أسقطت منها إن يحتاج فيها إلى الفاء لا يطرد في كل شيء وكل موضع ... فإنك قد تراها قد دخلت على الجملة ، ليست هي مما يقتضي الفاء، وذلك فيما لا يحصى، كقوله تعالى : (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون)" (1).

وهذه التي في بداية الكلام على حالين، حال جاءت فيه مصاحبة للام المؤكدة، و أخرى وردت غير مصاحبة لها، ولا اختلاف بينهما إلا في درجة التوكيد. و "إنا إذا استقرينا الكلام وجدنا الأمر بينا في الكثير من مواقعها، أنه يقصد بها إلى الجواب، كقوله تعالى: (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا، إنا مكنا له في الأرض)"(2). ويبدو هذا واضحا في قوله تعالى: (قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم و السوء على الكافرين)(27)؛ حيث سبقت بسؤال : (ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم)(72)،غير أن المجيب عنه ليس المسؤول، ذلك أن السؤال للتوبيخ والتقريع، وهم " يقولون ذلك شماتة بهم "(3)، ويسهم التوكيد في تعميق تلك المعاني، " والفائدة فيه أن الكفار كانوا ينكرون على المؤمنين في الدنيا، فإذا ذكر المؤمن هذا الكلام يوم القيامة، في معرض إهانة الكافر كان وقع هذا الكلام على الكافر وتأثيره في إيذائه أكمل، وحصول الشماتة به أقوى"(4)

ويبدو المعنى محتاجا للتوكيد، ليدفع ما قد يتوهمه من غفل عن غرض السؤال، فظنه سؤالا عن أماكن الشركاء.

وقد تأتي (إنّ) أو (أنّ) رادة ادعاء، غير مجيبة عن سؤال مباشر، وذلك كما في قوله: (لا جرم أن لهم النار)(62) إذ ادعى الكفار أن لهم الحسنى: (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى)(62)، فردت الآية (لا جرم...) الإدعاء، ولما كان الإدعاء مؤكدا، جاء الرد مؤكدا بتأكيد أعظد، و"رد الله سبحانه عليهم بقوله: (لا جرم أن لهم النار) أي حقا أن لهم مكان ما

---

1) الجرجاني. دلائل الإعجاز، ص 248

2) نفسه: ص 249

3) الزمخشري الكشاف ، ج2، ص 407

4) الرازي: تفسير الكبير، ج20، ص21

جعلوه لأنفسهم من الحسنى النار"(1)، وأتبعت هـذه الجملـة بـأخرى علـى نسـقها: (وأنـهم مفرطون)(62)؛ ليزيد من بيان توغلهم في العذاب.

ومثل هذه الآية قوله: (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون)(86)، جاءت بعد ادعاء المشـركين، وهو: (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك)(86)، "وفيه من الإشعار بـالحرص على تكذيبهم ما فيه، ويؤيد ذلك تأكيدهم الجملة الدالة على التكذيب أتم تأكيد"(2). ويمتـاز هـذا التوكيد باجتماع مؤكدين، وهما (إن) واللام، بالإضافة إلى دلالة اسم الفاعل على الثبوت، ولعـل ذلك عائد إلى ما يتوقع من الكفار من محاولات التخلص من العذاب، ولو بأدنى سـبب، "وأمـا جعلها إذا جمع بينها وبين اللام... للكلام مع المنكر فجيد؛ لأنه إذا كان الكلام مع المنكر كـانت الحاجة إلى التأكيد أشد، وذلك أنك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك، إذا كـان هنـاك من يدفعه وينكر صحته، إلا أنه ينبغي أن يعلم أنه كما يكون للإنكار قد كان من السـامع، فإنـه يكون للإنكار يعلم أو يرى أنه يكون من السامعين"(3)

وأما قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ..)(90) فلعله موضـح لسؤال محتمل بعد "قوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب) للتنبيه عليه، فإنها إذا نظر إلى أنـها قـد جمعت ما جمعت مع وجازاتها استيقظت عيون البصائر وتحركت للنظر فيما عداهـا"(4). "وإذا استقريت وجدت في هذا الذي ذكرت لك من تنزيلهم الكلام إذا جاء بعقب مـا يقتضـي سـؤالا منزلته إذ صرح بذلك كثيرا، فمن لطيف ذلك، قوله:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي"(5)

وفي التوكيد تعريض بكفار مكة، الذين كانوا يرشقون النبي عليه السلام والإسلام بالتـهم، فيزعمون أن "قوله كالسحر: يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجـل وبين زوجته.."(6)، فجاءت الآية رادة عليهم كل اتهاماتهم، ومبينة مأمورات الإسلام ومنهياته.

1) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص212

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص 209

3) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص251،252

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص220

5) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص182

6) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: سيرة النبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث -القاهرة، بلا تاريخ، ج1، ص407

وكأن سائلا يسأل بعد قوله: (قل نزله روح القدس منَ ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين)(102)، هذا الشأن مع المسلمين، فما الشأن مع الكافرين، فيأتي الجواب مؤكدا: (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم)(104)، وذلك أنهم تلبسوا بأسباب الضلال وأعرضوا عن أسباب الهداية، ثم يرد المعنى عينه مرة أخرى مؤكدا بألفاظ التأكيد ووسائل أخرى: (لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون)(109)، ويتقابل هذا والموقف من المؤمنين: (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)(110)، وهذا يضفي على نفوس المؤمنين طمأنينة وأمنا، وهو تبشير مؤكد، متضمن ذكر طاعاتهم وتضحياتهم، ما يشعر برضا الله عنهم، وإن زلوا أحيانا، وفيه "دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك"(1) الكفار.

وترد الآية: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين)(120) على كفار قريش ادعاءهم، أنهم أتباعه عليه السلام، وتستمر بعدها الجمل المؤكدة... (وإنه في الآخرة لمن الصالحين)(123)، وأكد المعنى بـ(إن) واللام وباسم الفاعل، وبهذه الوسائل المجتمعة تتصاعد درجة الإصرار على رسوخ المعنى، وفيه تعريض بكفار قريش، وفي الآية إجابة لدعاء سابق منه عليه السلام، حين "قال: (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين)، فقال هاهنا: (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) تنبيها على أنه أجاب دعاءه"(2)، والتوكيد يفيد قوة الاستجابة، وقطعية الوفاء به.

ورافقت (إنّ) في قوله تعالى: (وإن لكم في الأنعام لعبرة)(66) اللام، وهي "لام الابتداء، وفائدتها أمران: توكيد مضمون الجملة، ولهذا زحلقوها في باب إن عن صدر الجملة كراهية ابتداء الجملة بمؤكدين"(3)، والجملة المؤكدة بها وبـ(إنّ) هي في كثير من الأحيان، "جواب عن إنكار منكر"(4) وحال الكفار في عدم اعتبارهم بهذه النعمة، وهي شديدة الاتصال بهم، حال المنكر لها أو المنكر لكونها عبرة.

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج 2، ص 430

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص137

3) ابن هشام: المغني، ج1، ص189

4) القزويني: الإيضاح، ج1، ص19

التوكيد المعنوي:

هو كغيره من أنواع التوكيد يعنى بتقوية المعنى في نفس المتلقي، و"اعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكنته، واحتاطت له، فمن ذلك التوكيد، وهو على ضربين: أحدهما تكرير الأول بلفظه... والثاني تكرير الأول بمعناه. وهو على ضربين: أحدهما للإحاطة والعموم، والآخر للتثبيت والتمكين"(1)، ومن ألفاظ التوكيد المعنوي المفيد للإحاطة والعموم: كل وأجمع وأكتع وأبضع، ومن ألفاظه المفيدة للتمكين النفس والعين، "وكذلك إذا جئت بالنفس والعين؛ فإن لظان أن يظن حين قلت: فعل زيد، أن إسناد الفعل إليه تجوز أو سهو أو نسيان، وكل وأجمعون يجديان الشمول والإحاطة"(2)

وجا التوكيد المعنوي في قوله تعالى: (ولو شاء الله لهداكم أجمعين)(9) و"يدل على أنه تعالى ما شاء هداية الكفار ... لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء شيء لانتفاء شيء غيره"(3)، والمعنى المؤكد هنا هو قدرة الله على جعل هدايته تستغرق الناس جميعا، عير أن الله تعالى لم يرد ذلك، وفائدته تقرير حقيقة أن المخاطبين بين خيارين على طرفي نقيض، وأن وقوع الناس في الضلال يبقى أمرا ممكنا حتى النهاية، وفائدته للرسول صلى الله عليه وسلم ولأتباعه، نفي الحزن لبقاء ضالين، رغم وضوح سبل الهداية، ومضمون الجملة مؤكد بقوله: (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر)(9).

وتشترك مع التوكيد المعنوي في تحقيق أعراضه ألفاظ أخرى، وإن لم تذكر مع ألفاظه، كلفظة (كاملة)، الواردة في قوله تعالى: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة)(25)، ذلك أنها تفيد الإحاطة والشمول، "وقوله (كاملة) معناه أنه تعالى لا يخفف من عقابهم شيئا، بل يوصل ذلك العقاب بكليته إليهم"(4)، ويكشف هذا التوكيد عن مدى الغضب الذي استحق عليهم، ويؤشر على فظاعة أعمالهم، وتقطع كلمة (كاملة) عليهم كل سبيل إلى الأمل في التخفيف، وتنهى أي افتراض تفترضه عقولهم.

---

1) ابن جنى: الخصائص،ج3، ص 101،102،104

2) الزمخشري: المفصل، ص 112

3) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص 237

4) نفسه: ج20، ص18

التوكيد اللفظي:

وهو "تكرار اللفظ الأول بعينه اعتناء به"(1)، ومنه أيضا "تكرار اللفظ بمرادفه، نحو: (ضيقا حرجا)"(2).

ومن المعاني المؤكدة على هذه الطريقة، ما ورد – عن معبودات الكفار – في قوله: (أموات غير أحياء)(21)، ويقصيهم هذا عن الحياة إقصاء تاما وأبديا، فهي "أموات:جمادات لا حياة فيها، غير أحياء: يعني أن من الأموات ما يعقب موته حياة...، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها"(3)، وهذا التأكيد، بتكرار ألفاظ ذات معان واحدة، في أمر جلي، يشعر بجهل الغافل عن إدراك معناه، وسفاهة عقله، "والكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان، وهم في نهاية الجهالة والضلالة، ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبي، فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة"(4).

وضرب الله مثلا لعقائد الكفار بالبنيان، ولنقضها على أه‍ها، بهدم البنيان، فقال: (.. فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم)(26)، وكان القول: فهدمه عليهم كافيا لأداء المعنى الأساسي، إلا أن التعبير حينها يكون عاديا، يكتفي بالرمز إلى المعنى وتوصيله، ولكن النظم القرآني، تميز بقوة التصوير، حين أتى بعبارة: (من القواعد) وبعبارة: (فخر عليهم السقف من فوقهم)، فقطعتا الطريق على أي تأويل أو افتراض، و"دل هذا الكلام على أنهم كانوا تحته، وحينئذ يفيد هذا الكلام أن الأبنية قد تهدمت، وهم ماتوا تحتها"(5)

ويضرب الله للكفار مثلا آخر، يبين لهم فيه "تباين الحال بين جناب الخالق سبحانه، وبين ما جعلوه شريكا له من الأصنام"(6)، فيقول : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا)(75) بهذه الألفاظ

1) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج2، ص214

2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بلا تاريخ، القسم الأول، ص339

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص20

5) نفسه: ج20، ص20

6) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص223،224

المتعاقبة والمتآزرة في الدلالة على الضعف والعجز، وتعددت الألفاظ؛ لنفـــي أي وهــم يضــر بوصول المعنى صافيا مؤديا وظيفته في حملهم على الاستدلال والنظر، "أما ذكر المملوك فليميز عن الحر، لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف"(1)، ويقترب هذا الأسلوب مما أطلقوا عليه الاحتراس، "وهو أن يكون الكلام محتملا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال؛ كقوله تعالى: (اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)(2)، فاحترس –سبحانه – بقوله: (من غير سوء) عن إمكان أن يدخل في ذلك البهق والبرص"(3).

ويبرز التكرار في قوله: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)(91) سخافة ذلك الفعل، والتكرار وقع بقوله (أنكاثا)، و"(أنكاثا) حال مؤكدة... وهو الغـــزل مـــن الصـــوف، والشعر يبرم وينسج، فإذا أحكمت النسيجة قطعتها ونكثت خيوطها المبرمة"(4)

ورغم أن (من) من صيغ العموم، التي تستغرق الذكر و الأنثـــى؛ إلا أن النظـــم الكريـــم، يردفها بهما في قوله: (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى..)(97)، "وهذه الآية للوعد بـــالخيرات والمبالغة في تقرير الوعد من أعظم دلائل الكـــرم والرحمـــة، إثباتـــا للتـــأكيد، وإزالـــة لوهـــم التخصيص"(5). ويقترب هذا الأسلوب مما أطلقوا عليه الاستقصاء، "والاســـتقصاء يـــرد علـــى المعنى التام الكامل فيستقصي لوازمه وعوارضه وأوصافه وأسبابه، حتى يستوعب جميع ما تقع الخواطر عليه، فلا يبقى لأحد فيه مساغ"(6).

وينقل لنا القرآن الكريم قول الكفار، في معرض دعواهم صحة موقفـــهم: (وقـــال الذيـــن أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا)(35) ويتضمن توكيـــدا لفظيـــا، لضمير المتكلمين، بالضمير المنفصل (نحن)، "ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشـــيئة الطعـــن في الرسالة، أي لو كان ما قاله الرسول حقا من المنع من عبادة غير الله ... لـــم يقـــع منـــا مـــا

---

1) الزمخشري: الكشاف، مجلد2، ص420
2) القصص: 32
3) الزركشي: البرهان، ج3، ص64،65
4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص110
5) نفسه: ج20، ص114
6) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص223

يخالف ما أراده منا"(1)، ويلمح من التأكيد بـ(نحن) نوع من الاعتزاز، وقد تبعه: (ولا آباؤنا)(35).

ووقع التوكيد اللفظي في قوله: (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)(110) بتكرار(إن ربك) ، وكررت لطول الكلام بين اسم إن وخبرها، ذلك أنه "إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول، أعيد ثانية تطرية له وتجديدا لعهده، ومنه ...(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم)"(2). وعزز هذا التكرير تعهد الله بما وعد، ودل على أهمية ما توسط العبارتين، إذ لا مناص من ذكره، وهو المشتمل على صفات المؤمنين وأعمالهم.

وتواردت آيات عدة، لتأكيد توحيد الألوهية، وهو أمر كان نقيضه أساسا لمعتقدات العرب، ويمكن إدراج تلك الآيات ضمن التوكيد اللفظي، وهي: (إلهكم إله واحد)(22) و (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين)(51) وتلاها مباشرة (إنما هو إله واحد)(51). وأريد بذكر العدد في كل مرة تسليط انتباه المتلقي إلى دلالة العدد سواء في الإفراد أو التثنية، ولتتجرد للمعنى ألفاظ مختصة به؛ إذ أن لفظة (إله) تحمل دلالة على العدد، وكذا (اثنين) "فإن قلت إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين .. لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص.. وأما رجل ورجلان ... فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد ورجلان اثنان، فما وجه قوله: (إلهين اثنين)؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعني به منهما والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به"(3).

وربما تلمح في كل آية خصوصية، إذ لو قيل: إنما هو إله، لأمكن أن يتصور المتلقي أن المقصود إثبات الألوهية له، ولم تدل الجملة على التوحيد دلالة قطعية، ولما أتبعت (إلهين) بـ(اثنين) نبه ذلك إلى مدى التنافر بين صفة الألوهية، -ويلازمها الاستغناء والتفرد- والتعدد.

---

1) الشوكاني، فتح القدير ، ج3، ص200

2) السيوطي: الإتقان، ج3، ص200

3) الزمخشري الكشاف، ج2، ص413

التوكيد باللفظة:

في العربية ألفاظ للتحقيق،يستدعيها المقام،فتؤدي معنى التوكيد، وللألفاظ دلالتها الذهنيـــة، ومنها ما تجعل "الصورة الذهنية من الجلاء والصقل، بحيث لا تترك مجـــالا للوهــم أو الشــك ويكون هذا عادة حين تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات الملموسة. وهــي عمليــة أشــبه بتحميض الصورة الشمسية لتوضيح معالمها، فبعد أن كانت لا تدرك إلا إدراكا عقليا بعيدا عـــن الحواس أصبحت مما يرى ويلمس ويشم، وسهل على الأذهان القاصرة أن تفــهم مدلولــها، وأن تتبين حدودها ومعالمها، بعد أن كانت مجرد فكرة عقلية، قد يضل الذهن في حدودها"(1)

وفي السورة ألفاظ أدت هذا الأثر، منها (حاق) في قوله: (وحـــاق بــهم مــا كــانوا بــه يستهزءون)(34) "(وحاق بهم) أي نزل على وجه أحاط بجوانبهم"(2) "وأصـــل معنـــى الحيـــق الإحاطة مطلقا، ثم خص في الاستعمال بإحاطة الشر، فلا يقال أحاطت به النعمة بل النقمة، وهـذا أبلغ وأفظع من أصابهم"(3)، "ومادة حاق .. تدور على الإحاطة ويلزمها صلابة المحيط وليـــن المحاط به"(4)، وتؤدي هذه اللفظة دلالة حسية، وكأن تلك الآثام تشــكلت ســورا ماديــا أحــاط بالكافرين. وفي الآية نفسها كلمة (أصاب) ، تؤدي معنى محققا، وتشي بقدر من الحسية؛ ذلــك أن "الصاد والواو والباء أصل صحيح يدل على نزول شيء واستقرار قراره"(5)، فكأن العقاب قـــد رسا عندهم واستقر قراره فيهم.

ومثل هذه الألفاظ (طبع) في قوله: (أولئـــك الذيـــن طبـــع الله علـــى قلوبـــهم وســـمعهم وأبصارهم)(108)،"والطبع: الختم وهو التأثير في الطين ونحوه.. ويقال طبع الله علـــــى قلـــوب الكافرين... أي ختم، فلا يعي وعظا ولا يوفق لخير.. وهو التغطية على الشيء والاستيثاق مـــن أن يدخله شيء..كما قال الله تعالى: (أم على قلوب أقفالها"(6)، ولنـــا أن نتصـــور حالـــة ذلـــك المطبوع على كل وسائل ربطه بالعالم الخارجي، كيف يغدو منغلقا على ما فيه من الفساد، غـــير منفعل بأي دليل.

---

1)أنيس، إبراهيم: دلالة الألفاظ، ص160.

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص27.

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص134.

4) البقاعي: نظم الدرر، ج4،ص265.

5) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب الضاد، باب الضاد و الواو وما يثلثهما.

6) ابن منظور: لسان العرب، كتاب العين، فصل الطاء المهملة.

وأدت (حقت) في قوله: (ومنهم من حقت عليه الضلالة)(37) معنى اليقين "أي ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف"(1)، وتشعر هذه اللفظة بأن مناسبة حصلت بينهم وبين الضلالة، فهي لم تقع بهم وحسب، بل إنها وقعت في مكانها في هذا الوجود، فهي تطلبهم، وهم يطلبونها.

وقريب منه قوله: (بلى وعدا عليه حقا)(38)، أي أن الوفاء بهذا الوعد حق واجب على الله.

القسم:

"وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر وأكثرها الواو ثم الباء، يدخلان على كل محلوف به، ثم التاء، ولا تدخل إلا في واحد، وذلك قولك: والله لأفعلن، و بالله لأفعلن، (وتالله لأكيدن أصنامكم)"(2)، و"اعلم أن القسم توكيد لكلامك"(3). ولا يخفى أن القسم من أقوى وسائل التوكيد، بل قد يكون أقواها، ولعل ما يزيد من دلالته على التوكيد صدوره عن الخالق عز وجل، "وقد قيل ما معنى القسم منه تعالى؛ فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده! وأجيب بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عاداتها القسم، إذا أرادت أن تؤكد أمرا، وأجاب أبو القاسم القشيري بأن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها"(4). ومن أهداف القسم إشعار المتلقي بأهمية المقسم عليه، ويظهر ذلك في القرآن الكريم، حيث أنه "سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها"(5). "وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : (وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق) صاح وقال: من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ قالها ثلاثا، ثم مات"(6).

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص409.
2) سيبويه: الكتاب، ج3،ص496.
3) نفسه:ج3، ص104.
4) السيوطي: الإتقان، ج4، ص46.
5) نفسه: ج4، ص49.
6) الزركشي: البرهان، ج3، ص41.

وفي السورة مجموعة من الأقسام، حذف في معظمها جملة القسم، و"وحذف جملة القسم كثير جدا، وهو لازم مع غير الباء من حروف القسم وحيث قيل لأفعلن، أو لقد فعل، أو لئن فعل، ولم يتقدم جملة فثم جملة قسم مقدرة، نحو لأعذبنه عذابا شديدا"(1).

أما المعاني المقسم عليها في السورة فموضوعها العقيدة، وتأتي الجملة (لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)(23) حاملة وعيدا مؤكدا على ما بدر من الكفار وما هم عليه، و"(لا جرم) حقا أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد"(2)، "وقد يغني لفظ (لا جرم) عن لفظ القسم تقول: لا جرم لآتينك"(3)

وشكك الكفار بضرورة النبوة، فأكدتها الآية: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا... فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(36)؛ ذلك أنهم طعنوا في النبوة "فقالوا : لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان سواء جئت أو لم تجيء.. وإذا كان الأمر كذلك فالكل من الله، ولا فائدة من مجيئك وإرسالك"(4)، فرد عليهم القرآن ذلك، وأرفق مع القسم دليلا محسوسا، يظهر لمن سار في الأرض وتدبر أحوال الأمم بعد إرسال الرسل وتكذيبهم لهم. ويتكرر هذا المعنى مقسما عليه في : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك..)(63)، ويصرح فيها بالمقسم به وبحرف القسم (التاء)، "وتختص بالتعجب"(5)، وهو من ضلال تلك الأمم رغم إرسال الرسل، ويتعاضد القسم هنا، وذلك أنه أخبر عن إرسال الرسل إلى أمم سابقة " مقسما على ذلك ومؤكدا بالقسم وبقد التي تقتضي تحقيق الأمر على سبيل التسلية للرسول – صلى الله عليه وسلم – لما كان يناله بسبب جهالات قومه"(6).

ويتكرر القسم في قوله: (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه)(113)، وترافق القسم بينة معززة لصدق رسالته، وهي معرفتهم به، فهو(رسول منهم) يعرفونه، ويعرفون القرائن التي حفت رسالته، وبينة أخرى وهي النتيجة التي أصابت مكذبيه، (فكذبوه فأخذهم العذاب)(113).

---

1) ابن هشام: المغني، ج2، ص174.
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406.
3) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص469.
4) الرازي: التفسير الكبير، ج20،ص27.
5) ابن هشام: المغني، ج1، ص106.
6) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص491.

ويستميت الكفار في محاولة دفعهم مسألة البعث، وينقل لنا القرآن ذلك، بقوله: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم)(38)، "وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محال في بديهة العقل"(1)، وربما يكشف هذا التناهي في القسم عن مدى ضيقهم من ذكر البعث، ورغبتهم في إقصائه ونفيه من عالمهم العقلي والنفسي.

وعلى إثر هذا الإنكار تتوالى مجموعة من الجمل القسمية، التي تثبت موضوع البعث والحساب، وتنقل لنا بعضا من أحداثه أو مشاهده، ومنها قوله: (تالله لتسئلن عما كنتم تفترون)(56)، وهي واردة على سبيل الوعيد، و"(لتسئلن) وعيد"(2)، وهذا سؤال توبيخ وتهديد"، و"يقع ذلك في الآخرة، وهذا أولى"(3)، ولعل التعجيب هو من حالهم التي سيكونون عليها، وقد افتروا في الدنيا. إلى قوله: (وليبينن لكم يوم القيامة)(92)، و(ولتسئلن عما كنتم تعملون)(93)، "واللام في (ليبينن لكم) و(لتسئلن) هما الموطئتان للقسم"(4)، وفي الأولى "إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام"(5)، والقسم عمق هذا الإنذار. ثم قوله: (ولنجزين الذي صبروا أجرهم)(94)، "واللام هي الموطئة"(6)، وتعلق المجازاة بصفة الصبر، إنما هو "لاحتياج جميع التكاليف إليه، فالصبر هو رأسها"(7)، وكذلك (ولنجزينهم أجرهم)(97)، "وينبغي أن يكون على تقدير قسم ثان... فيكون من عطف جملة قسمية على جملة قسمية، وكلتاهما محذوفتان"(8).

أسلوب الحصر بـ(إنما):

ويشعر هذا الأسلوب ببداهة مضمونه، وأن المعنى مسلم به، مخرجا إياه من دائرة النزاع والجدل، ومغنيا المتكلم عن الدليل، فالمسألة لا تحتاج إلى دليل، وقصارى ما تريده الجملة تذكير المتلقي بأمر غاب عنه، أو غاب عنه الالتزام بمتطلباته، و"اعلم أن موضوع (إنما) على

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص31.
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص414.
3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص55.
4) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص426.
5) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص426.
6) الشوكاني: فتح القدير، ج3، ص237.
7) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص516.
8) نفسه: ج5، ص517.

أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته... تفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك... تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ"(1)

ونلمح هذا في آيات السورة المشتملة على هذا الأسلوب، ويتجلى أكثر ما يتجلى في إثبات معاني العقيدة، وهي المعاني الواضحة للجميع، إذ لولا ذلك لعذر من لا يؤمن بها؛ لعدم مساعدة عقله له في إدراكها، وأهم قضايا العقيدة التي ألح القرآن عليها الألوهية، وفي السورة وردت في قوله: (إنما هو إله واحد)(51) بعد آيات عدة ، أقامت أدلة متنوعة فأضحت مجلوة للحس والعقل، مستغنية عن المراء والجدل، "والمعنى: أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود إلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد"(2)، والقصر هو قصر الموصوف على الصفة، والصفة هي الألوهية، جاءت موصوفة بـ(واحد) ولا يتم المعنى إلا بهما معا، وهذا المعنى هو ما فر الكفار من الإيمان به، حين استنكروا جعل الآلهة إلها واحدا، ولم يستنكروا وجود الإله.

وتوحيد الألوهية يعني إفراده بالطاعة والخضوع، ولا سبيل إلى معرفة العباد بكيفية الطاعة إلا برسل، وهي المسألة الثانية التي حرصت السورة على وضوحها، بإثبات أهمية بعث الرسل، وبتوضيح مهماتهم، والآية: (فإنما عليك البلاغ)(82) تتصدى لهذه المهمة، ومعلوم أن الرسول عليه السلام كان كثير الانشغال بأمر الناس، حريصا على هدايتهم جميعا، فأكدت الآية أنه لا ينبغي أن يكون ذلك محل النظر، إنما الواجب عليه -عليه السلام- وعلى المسلمين من بعده، البلاغ المبين، فـ"ليس عليك إلا ما فعلت من التبليغ التام"(3). والاختصاص واقع في المبتدأ الذي هو (البلاغ المبين)، فلا تفيد الآية أن البلاغ عليه لا على غيره، وهي تشبه "قوله تعالى: (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)، فإنك ترى الأمر ظاهرا في الآية... في المبتدأ الذي هو البلاغ"(4).

ولطمأنة المؤمنين، تقصر الآية: (إنما سلطانه على الذين يتولونه)(100) سلطان الشيطان على من جعل للشيطان سلطانا عليه، والاختصاص في الخبر، أي أن وقوع سلطان الشيطان محصور فيمن تولوه، لا في غيرهم، وفيه تعريض بمن يكون حاله كذلك.

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص254

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص50

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص96،97

4) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 265

ويبالغ الكفار "في نسبة الافتراء للرسول بلفظ (إنما) وبمواجهة الخطاب..."(1)، وذلك في قولهم- الذي أخبرنا الله تعالى به- (إنما أنت مفتر)(101) والاختصاص واقع في الخبر، فهم ينفون عنه أية صفة غير الافتراء، أو أنهم لم يعتدوا بغير هذه الصفة، والأمر في زعمهم ظاهر معلوم. ويكررون افتراءهم هذا في قولهم: (إنما يعلمه بشر)(103)، "يقولون إنما يعلم القران النبي عليه الصلاة والسلام (بشر) على طريق البت"(2)، والاختصاص واقع في الفاعل، ومعلوم "أن الاختصاص مع (إلا) يقع في الذي تؤخره من الفاعل والمفعول، فكذلك يقع مع (إنما) في المؤخر منهما دون المقدم"(3) فهم أرادوا تأكيد انتساب القرآن إلى البشر، وهم بذلك يأملون إعفاء أنفسهم من اتباعه، فليس لكلام البشر قدسية، وجاءت الآية مخبرة عنهم هذه الافتراءات بعد ذكر موضوع النسخ: (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر)(101)، وهم بذلك يعرضون بأن هذا التغيير تغيير البشر، "وكانوا يقولون: إن محمدا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، فيأتيهم بما هو أهون"(4). وبعد هذه الافتراءات على ألسنة الكفار جاء الرد: (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله)(105)، "رد لقولهم -(إنما أنت مفتر)- يعني إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عليه عقابا"(5)، والاختصاص في الفاعل، فكأنه لا أحد في الدنيا يفتري الكذب إلا الكفار، وليس الاختصاص واقع في المفعول، الذي هو الكذب لأنه بعض جرائمهم، وهي مسألة بديهية فقد جحدوا الآيات البينات ، فصار الافتراء شيمتهم. وقد غفلوا عن حقيقتهم فاقتضى تذكيرهم.

وتأتي الآية: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(40) في مقام بيان قدرة الله تعالى، ويبدو إيجاد الأشياء -بحسب هذا التركيب- منحصرا بقول الله (كن)، وهذا بخلاف أمر المخلوق؛ الذي إن أراد شيئا وجب عليه توفير أسبابه، "وهذا مثل؛ لأن مرادا لا يمتنع عليه"(6) سبحانه.

---

1) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص518
2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص232
3) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 262،263
4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص428
5) نفسه: ج2، ص 429
6) نفسه: ج2، ص410

وترد الآية: (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه)(124)، في معرض الرد على زعم اليهود؛ "فإن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شعائر الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظا عليه"(1)، والاختصاص واقع في الخبر، أي أنه عليهم، لا على غيرهم، ويعزل هذا الأسلوب اليهود وشعائرهم عن أسباب التأثير، ويطوي بذلك صفحتهم.

وتحصر: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به..)(115) المحرمات في المذكورات، وقد يكون الحصر إضافيا؛ أي أن المراد منه نفي تحريم تلك التي كان الكفار يحرمونها دون دليل، و"اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الأشياء الأربعة، بالغ في تأكيد ذلك الحصر، وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأشياء تارة، وفي النقصان عنها أخرى، فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام"(2). وفي حصر المحرم بما حرمه الله تأكيد على مسألة مهمة، من مقتضيات الألوهية، وهي إفراد الله بالتشريع.

تكرار التراكيب:

وعلى مساحة السورة، تكررت تراكيب، وأثر ذلك في المتلقي، وظاهرة التكرار قائمة في القرآن الكريم، وهو تكرار للفظ والمعنى، أو تكرار للمعنى دون اللفظ، "من ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن: (فبأي آلاء ربكما تكذبان)، فهذا تكرير من جهة اللفظ والمعنى، ووجه ذلك أن الله – تعالى – إنما أوردها في خطاب الثقلين الجن والإنس، فكل نعمة يذكرها، أو ما يؤول إلى النعمة؛ فإنه يردفها بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) تقريرا للآلاء وإعظاما لحالها"(3)

ومثله تكرار العبارة: (إن في ذلك لآية)، فإنها وردت بإفراد، (آية) خمس مرات، وذلك في الآيات (11، 13، 65، 69،)، ووردت مرتين بجمع (آية)، وذلك في الآية (12، 79). وكان ورود هذا التركيب، في كل مرة، عقب ذكر مجموعة من الدلائل على ثبوت العقيدة، ويحتل لفظ (آية) مركز هذا التركيب، وهي"العلامة... كقولك علامة معلمة... قال:

1) الألوسي: روح المعاني. ج14، ص410

2) الرازي : التفسير الكبير. ج20، ص133

3) اليمني، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية- بيروت، بلا تاريخ، ج2، ص138.

ألا أبلغ لديك بني تميم بآية ما يحبون الطعاما"(1) (الوافر)

"والآية الدلالة الواضحة"(2)، ويكشف تكرار هذا التركيب، وهو المؤكد بـ(إن) واللام عن عناية الله – سبحانه – وحرص القرآن على موضوع الوصول إلى الإيمان وصول استدلال وتفكير، فضلا عن حرصه على حصول الهداية ابتداء، ويعزز ذلك المواضع التي استقرت تلك التراكيب فيها؛ إذ أنها جاءت في كل مرة بعد عرض مجموعة من الأدلة المحسوسة والعلامات البارزة.... يتلوها هذا التركيب مختزلا لها، ومؤكدا ضرورة الاسترشاد بها.

كما تكرر هذا المعنى بعبارات أخرى، حتى لم تخل منه فقرة من فقراتها من ذلك قوله: (لعلكم تهتدون)(15) وهي بعد، (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا)(15)، وكذلك: (أفلا تذكرون)(17) بعد(أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17)، وأيضا: (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(36) (ولعلهم يتفكرون)(44) (وإن لكم في الأنعام لعبرة)(66) و(كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)(81). وغيرها من المعاني المتآزرة على ترسيخ مسألة الإيمان العقلي.

ويشكل هذا التكرار، سواء منه ما كان باللفظ والمعنى، أو بالمعنى دون اللفظ، مثيرات متتالية للعقل والحس؛ فإن لم يؤثر في نفوس المتلقين الأول أثر الثاني، وإن أثر الأول زاد الثاني من الأثر وعزز الإيمان بتعزيز أسبابه.

ومع هذه الدلالات دلالة تتعلق بالكفار، وهي التعريض بهم وبمعتقداتهم التي خلت من أي سند عقلي، سوى التعلق بالآباء والتقليد المحض.

وهو معنى ركزته عبارات أخرى، نفت عنهم العلم، وعزلتهم ومعتقداتهم عن استحقاق الاتباع، وأدرجت حالتهم ضمن الجهالات والخرافات.... ومن ذلك قوله: (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم)(25) و"(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(38) أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله"(3) و(ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا)(56) ،"ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة

---

1) ابن فارس: معجم المقاييس في اللغة، كتاب الهمزة، باب الهمزة والياء وما يثلثهما في الثلاثي.

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص403.

3) نفسه: ج2، ص409.

ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع، وتشفع عند الله، وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذا جاهلون بها"(1)، و(بل أكثرهم لا يعلمون)(101) ، "أي لا يعلمون شيئا أصلا"(2).

وتكرر من صفات الله الغفران والرحمة، وقد اقترنتا أربع مرات، وهي (إن الله لغفور رحيم)(18)، وثلاث مرات، في الآية (110)و الآية(115)و(119) ولم ترد في مقام الحديث عن الكافرين، ولعل هذا التكرار يهدف إلى معالجة مشكلة عند الإنسان، وهي القنوط، فخشية عليه من الوقوع فيها، وهو كثير الأخطاء يذكره القرآن بأن أخطاءه الكثيرة يقابلها من الله غفران ورحمة.

---

1) نفسه: ج2، ص414.

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص231.

الاستفهام

الاستفهام في اللغة:

الاستفهام مأخوذ من الفهم، وهو"معرفتك الشيء بالقلب. فهمه فَهْما وفَهَما وفهامةً: علمه، الأخيرة عن سيبويه. وفهمت الشيء:عقلته وعرفته... واستفهمه: سأله أن يفهمه.."(1). وهي معان تدور حول الإدراك والعلم والمعرفة. ويضاف إليه الطلب بدخول الألف والسين والتاء.

الاستفهام في الاصطلاح البلاغي:

و"الاستفهام استخبار والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك"(2)، وله أدوات تؤديه. "والألفاظ الموضوعة له الهمزة و"هل" و "ما" و"من" و"أي" و"كم" و"كيف" و" أين" و"متى" و"أيان""(3) ولها في الجملة العربية الصدارة، وتتعلق أداة الاستفهام بمجموع الجملة. فإذا "قلت:هل خرج زيد؟ لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقا، ولكن عنه واقعا من زيد"(4) ، وكما كان لها الصدارة في الرتبة فلها الأثر الأكبر في توحيد معنى الجملة، "ويربط حرف الاستفهام بين عناصر الجملة التي دخل عليها حتى يصبح كل ما في حيزه مشمولا بالمعنى العام الذي عبر عنه الحرف، فهناك فرق بين "ما كان هذا؟" و" أين كان هذا؟" و"متى كان هذا؟". بحيث يكون الاستفهام الأول عن الماهية والثاني عن المكان والثالث عن الزمان. ويصبح هذا هو معنى الجملة"(5) ويكثر خروج الاستفهام إلى أغراض بلاغية تستفاد من السياق.

ورد الاستفهام في السورة ست عشرة مرة، بأدوات مختلفة، هي: الهمزة، وما، وأين، وهل، وكيف.

---

1) ابن منظور: لسان العرب، باب الميم فصل الفاء

2) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص108

3) القزويني: الإيضاح، ج1 ،ص131

4) الجرجاني: دلائل الإعجاز ،ص(ش)

5) حسان: البيان في روائع القران، ص 136

وفي السورة ثلاثة مواضع جاء الاستفهام فيها حقيقيا، وهي (ماذا أنزل ربكم)(24)، وتكررت في الآية الثلاثين، و(أيمسكه على هون أم يدسه في التراب)(51). أما الأولى والثانية فهي سؤال وفود الحج، الذين كانوا يسألون الكفار، أو يسألون المؤمنين عن القرآن، "وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم"(1)، ولكون السؤال حقيقيا كانت له إجابة، لكنها اختلفت، فكان جواب الكفار (أساطير الأولين)(24) وجواب المؤمنين (خيرا)(30). والموضع الثالث يكشف فيه القرآن عن الحالة النفسية القلقة المترددة للكفار المخبرين بولادة الأنثى، وتبرز الآية الأسئلة الحقيقية التي تدور في نفوسهم (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب..)(59)، "يقول: لا يدري أيهما يفعل: أيمسكه أم يدسه في التراب، يقول: يدفنها أم يصبر عليها وعلى مكروهها، وهي الموءودة"(2)، "وهذا الاستفهام من فرائد القرآن، وهو تصوير لحالة نفسية اعترتها الحيرة والتردد بين أمرين متقابلين، لا يدرى أيهما يكون"(3).

أما ما تبقى من الجمل الاستفهامية فأفادت أغراضا أخرى، وأكثرها بالهمزة، وليس هذا غريبا، فهي أصل أدوات الاستفهام؛ "لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره"(4)، وهي "ترد لطلب التصور نحو أزيد قائم أم عمرو، ولطلب التصديق نحو أزيد قائم"(5)،"وطلب التصور مرجعه إلى تفصيل المجمل أو تفصيل المنفصل بالنسبة، وإذا تأملت التصديق وجدته راجعا إلى تفصيل المجمل أيضا، وهو طلب تعيين الثوابت أو الانتفاء في مقام التردد"(6).

وأول الجمل الاستفهامية بالهمزة: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17) ويأتي بعد ذكر العديد من المظاهر التي تتجلى فيها قدرته عز وجل على الخلق والتسخير. والاستفهام يحمل معنى الإنكار الإبطالي لما عليه الكفار؛إذ "جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيها بها، فأنكر

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص407

2) الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: معاني القرآن. تحقيق : أحمد يوسف نجاتي . محمد على النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م، ج2،ص107

3) المطعني، عبد العظيم إبراهيم: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مكتبة وهبة- القاهرة، ط(1). 1999م، ج2،ص198

4) سيبويه: الكتاب،ج1،ص99

5) ابن هشام: المغني، ج1 ، ص 13

6) السكاكي، مفتاح العلوم، ص308 .

وتخافون غيره"(1)، وهو وإن أفاد التوبيخ إلا أنه قبل ذلك يفيد الطلب، وهو اتقاء الله وحده، والهمزة بذلك للتصديق.

ويندرج في هذا الإطار: (أفبنعمة الله يجحدون)(7)، غير أن الإنكار والتقريع آخذ في التصاعد؛ لأن الأدلة تزداد، والمواقف متحجرة على الضلال، و"لا شبهة في أن المراد من قوله: (أفبنعمة الله يجحدون) الإنكار على المشركين، الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم"(2). وتبلغ الجمل الاستفهامية الإنكارية بالهمزة أوجها عند قوله تعالى:(أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)(72) بهذا السؤال المركب؛ ليظهر الحالة العجيبة والبغيضة معا التي وصل إليها الكفار، وهي حالة قلب الحقيقة، وإحلال الباطل محلها.

ولا يظهر أن في قوله تعالى:(ألم يروا إلى الطير مسخرات)(79) توبيخا أو إنكارا بل الظاهر أنه للتقرير؛ إذ"أنه دليل آخر على كمال قدرة الله تعالى وحكمته"(3)، والغرض منه "التنبيه، وهو من أقسام الأمر، نحو(ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) أي انظر"(4)، والذي يبعده عن التوبيخ اختتام الآية بقوله:(إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)(79).

ومن ألوان الاستفهام الأخرى استخدام(هل)، وتأتي""هل" لطلب التصديق فحسب"(5)، وترد و"يراد بالاستفهام بها النفي؛ ولذلك دخلت على الخبر بعد إلا في نحو"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"(6).

ووردت في السورة ثلاث مرات، الأولى في قوله : (فهل على الرسل إلا البلاغ)(35) والثانية في (هل يستوون)(35) والثالثة في (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل)(76).

---

1) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5،ص486
2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص82
3) نفسه: ج20، ص93
4) السيوطي، الإتقان في علوم القران، ج3،ص238
5) القزويني: الإيضاح، ج1،ص132
6) ابن هشام: المغني،ج2،ص29

وظاهر في الأولى معنى النفي، وأن معناها "ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسول يأمرهم بالخير.."(1)، ويؤكد ذلك ورود إلا، لتجعل التركيب استثناء مفرغا، لكن احتفاظه بالاستفهام شكلا، يدفع السامع إلى التفكير ويلزمه الحجة. ويبدو أن الاستفهام في الثانية والثالثة؛ لتقرير النفي، وهو مستمر في المستقبل، أي لا يمكن أن يستووا، و"(الحمد لله) شكر على بيان الأمر بالمثل، وعلى إرغام الخصم له،... فلما قال هنا (هل يستوون) فكأن الخصم قال له: لا ، فقال: الحمد لله، ظهرت الحجة"(2)، "ولما انكشف ضلالهم في تسويتهم الأنداد الذين لا قدرة لهم على شيء ما بالله، الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلما، حسن كل الحسن توبيخهم والإنكار عليهم بقوله: (هل يستوي هو)"(3)، والتوبيخ مستفاد من كون المخاطبين كفارا غير معتبرين.

وفي السورة استفهام بـ(أين)، وآخر بـ(كيف)، أما الأول، ففي قوله: (ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول: أين شركائي)(27)،"وأما (أين) فإنه سؤال عن تصور حقيقة المكان"(4)، "كما جعلوا الآن كأين، وليس مثله في كل شيء، ولكنه يضارعه في أنه ظرف"(5)، والاستفهام في الآية يراد به التوبيخ والإخزاء، وأضافهم إلى نفسه "حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم"(6)، ويزيد من ظهور غرض الاستفهام ما عطف هو عليه (ثم يوم القيامة يخزيهم)(27)، "والاستفسار عن مكانتهم لا يوجب غيبتهم حقيقة، بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم يتصفون به، فليس هناك شركاء، ولا أماكنها"(7).
والثاني سؤال بكيف، "و(كيف) : على أي حال؟"(8)، وهي "سؤال عن حقيقة الحال وتصوره"(9)، "وأشار بالاستفهام إلى أن أحوالهم مما يجب أن يسأل عنه للاتعاظ به"(10)، وهو يحمل أيضا معنى التهديد.

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2،ص407
2)الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5،ص503
3) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص295
4) اليمني: الطراز، ج3،ص288
5) سيبويه، الكتاب،ج3، ص299
6) الزمخشري: الكشاف، ج2،ص407
7) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص172
8) سيبويه : الكتاب، ج4،ص233
9) اليمني: الطراز، ج3، ص288
10) البقاعي: نظم الدرر، ج4، ص286

مزايا الاستفهام :

حقق الاستفهام بعد تلك الأغراض الخاصة،مزايا عامة، وبعضها نابع من طبيعة هذا الأسلوب، والآخر ناتج عن التباين الذي يسببه الاستفهام بخروجه عن شكل الجمل قبله وعدوله عنها.

أما الأول فيظهر عند الحديث عن خروج الاستفهام عن أصل معناه، كالاستفهام التقريري أو التوبيخي أو النفي، "واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب"(1)، "والاستفهام هنا كذلك يثير في النفس التفكير، ويدفعها إلى تدبر العواقب، حتى تقتنع بتفكيرها الخاص، بأنه ما كان ينبغي أن يقع ما وقع، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع"(2). ولا يحدث هذه الإثارة أسلوب الإخبار، وإن حمل المعنى نفسه، وعليه فإن أسلوب الاستفهام يدمج المتلقي في النص، ولا يسمح له بالحياد، أو المراقبة فقط. بل إنه يشركه في تكوين المعنى. وظهر ذلك في السورة في المواضع التي خرج فيها الاستفهام عن أصله، ومنها: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17)، وفيه استدراج للمتلقي؛ ليصل إلى الحقيقة بنفسه. ويخضع النص المخاطب لسلطته، بتوجيه السؤال (أين شركائي)(23) إليه، فيضاعف من إخزائه ويزيد من حرجه، حين ينتظر السائل جوابا، ولا أمل لدى المخاطب في الجواب، والظرف الذي يتم فيه ذلك هو يوم القيامة. وعلى الصعيد نفسه قوله: (هل يستوون)(35)، ويأتي هذا الاستفهام بعد إحكام القضية قبله، وإبطال الشرك، وتطلب الآية الاستفهام ليختصر الفكرة كلها، ويكثفها ويبعثها مرة أخرى بأسلوبه النافذ، وهكذا في قوله: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)(72)، وكذلك (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون)(75).

والمزية الثانية من مزايا هذا الأسلوب هي نفي الرتابة عن النص، وهو بذلك يندرج ضمن الالتفات بمعناه العام، ومعناه في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص93-94

2) بدوي، أحمد: من بلاغة القران. ص164

أسلوب آخر مخالف للأول وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها"(1)

ويظهر هذا العدول بالنظر إلى الاستفهام في بيئته السياقية، ولنأخذ الاستفهام الأول في السورة. وهو : (أفن يخلق كمن لا يخلق)(17)، فقد سبق بآيات خبرية كثيرة ، أولها قوله: (هو الذي أنزل من السماء...(10) ينبت لكم به الزرع... (11) وسخر لكم الليل... (12) وما ذرأ لكم في الأرض...(13) وهو الذي سخر البحر...(14) وألقى في الأرض رواسي..(15) وعلامات ...(16))، ثم عدل الاستفهام بالأسلوب: (أفمن يخلق)(17) وهكذا الآيات الأخرى، ولا شك، كان لهذا العدول أثر في إحضار المتلقي وإشراكه؛ لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"(2).

---

1) اليمني: الطراز ، ج2، ص132

2) الزمخشري: الكشاف، ج1، ص63، 64

الفصل الثاني

دراسة فنية

- المستوى التصويري:
  - الاستعارة.
  - التشبيه.
  - المجاز.
- المستوى البديعي:
  - الالتفات.
  - الثنائيات الضدية.

المستوى التصويري

اشتملت السورة على آيات، تضمنت أنواعا من وسائل التصوير الفني، كالاستعارة والتشبيه والمجاز، وسأتناول هذه الصور محاولا إبراز دلالاتها الفنية وعلاقتها بالسياق.

الاستعارة

تبدأ السورة بصورة تتمثل في إظهار الأمر الآتي مستقبلا في صورة ما أتى (أتى أمر الله)(1)، والدلالة الحاضرة في النص هي دلالة الأمر المنجز، ولكن الألفاظ على المحور الأفقي تعدل منها: (فلا تستعجلوه)(1)، فكان من أثر الأولى وقوع النفس تحت سلطانها، فقد نزل "قوله (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم.."(1)، ولما عدلت الدلالة تشكلت الصورة على نحو فريد مازجة بين دلالة اللفظ المستعار والمستعار له، وهي على "طريق الاستعارة بتشبيه المستقبل المتحقق بالماضي في تحقق الوقوع"(2)، ونتج عن ذلك التفاعل بين تين الدلالتين قدر من التوتر في نفوس المهددين، فصار ذلك الآتي جزءا من الحتميات كالموت الذي لم يفلت من قبضته أحد من الماضين، فصار مترقبا ومؤرقا للحاضرين. فكانت فاعلية الصورة مناسبة لمضمونها، كما كانت متسقة والسياق الثقافي الذي كان عليه مشركو العرب.

وكان الوجود الإنساني يقترب من الموت، فأحيته الروح المنزلة من السماء، (ينزل الملائكة بالروح من أمره)(2)، واستأثرت كلمة الروح بتشكيل الصورة، وكأنها روح كل شيء، ولكن السياق يحاول تعديلها، إذ أن الحياة قائمة قبل نزولها (على من يشاء من عباده)(2)، فوجود العباد سابق لوجودها، ولكن تلك المحاولة لا تترك أثرا سوى الأثر الظاهري، أما على المستوى الأعمق فالنشاط فيه للروح، وهي تلغي أية روح سواها، ولا تعترف بحياة تجانبها، "فإطلاق (الروح) على ذلك بطريقة الاستعارة المصرحة المحققة، ووجه الشبه أن الوحي يحيي القلوب الميتة بداء الجهل والضلال، أو أنه يقوم به قوام الدين، كما أن الروح يكون قوام

1) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص223

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص90

البدن"(1)، ويجد هذا الموت الذي يهدد الأشياء ما يلاحقه وهي الروح، وهكذا تستمر الحركة إلى قيام الساعة: العالم باحث عن الروح، والروح تغذيه.

ويقترف الكفار جرما عظيما، حين ينسبون ما أنزل الله إلى الأساطير، فيجر ذلك عليهم حملا ثقيلا: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون)(25). والصورة المتشكلة هي صورة إنسان يرزء تحت أحمال ثقيلة ممتدة، أو صورة إنسان يكلف بهذا من جهة قادرة عليه، وحينها تبقى الخيارات مفتوحة، فإما النهوض بهذه الأثقال وأما الارتهان عند المحاولة، وما يبقى ذلك ممكنا، موقع اللام، فقد تكون لام العاقبة، "لأن الحمل مترتب على فعلهم... وعن ابن عطية أنها تحتمل أن تكون لام التعليل"(2)، ويحتمل أن تكون "لام الأمر"(3)، والتفاعل حاصل في الصورة بين الأوزار- "والوزر: الحمل الثقيل"(4)- والآثام، و"(أوزارهم) أي آثامهم"(5)، وتضفي الاستعارة على الآثام الصفة المادية الملموسة وتنقلها إلى طور التجسيم، لكن هذه المادية لا تبقى خالصة، بل تشوبها الناحية المعنوية المتمثلة بالإحساس بالخزي الناشئ عن اقتراف الإثم، فتمتزج الفاعليتان وتنشطان، ولا تعملان على نحو منفصل، فيهون الأمر، ولكنهما تعملان معا. وما يزيد من آثارهما تكرارهما متصاحبتين.

(ليحملوا أوزارهم كاملة ↔يوم القيامة)، (ومن أوزار ↔ الذين يضلونهم بغير علم) (ألا ساء ↔ ما يزرون)(25)، ونلحظ اقتران الوزر وهو المادي بالطرف المعنوي أو ما يشير إليه، فيوم القيامة يشير إلى المعنوي – كما يتضمن المادي – والإضلال يشير إلى إثمهم و(ساء) تذمهم.

وتصور الآية: (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)(26) معتقدات الكفار وأفكارهم المتفرعة عنها بصورة البنيان المادي ذي القواعد والأركان ... ويصعب على المتلقي إقامة حواجز بين الصورة وما تصوره، ويكاد لشدة اندماجه في الصورة أن يظل فيها... إذ أن اكتمال عناصرها [illegible] التصوير على ذكر البنيان، ثم أردفه بذكر القواعد فالسقف.

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص93
2) نفسه: ج14، ص124
3) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5: ص470
4) ابن منظور: لسان العرب، حرف الراء، فصل الواو
5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص123

وزادت كلمة (خرّ) من حضور الصورة، والبناء كان ماديا، والهدم كان ماديا كذلك، ولهذا أثـر في نفس المتلقي؛ إذ أنه تصوير بالحس، ومعلوم أن "العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام"(1) وتظهر الصورة البناء المادي ممتزجا بالكفر ومستندا إليه، إذ هو حصيلة المكر، وهو مكر الكفار، ثم نهايته العذاب: (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)(26) "فحالهم كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين، فاتي البنيان من الأساطين بأن ضعضعت، فسقط عليهم السقف وهلكوا..."(2)، ولا تخفى العلاقة بين حركة العمران وطراز العيش من جهة وطبيعة العقيدة وشكل الأفكار من جهة أخرى، بل إن البناء المادي والأشكال الفنية في كثير من الأحيان تتأسس على أفكار أصحابها عن الوجود، ثم تتشكل بحسبها، كما أن الحركة العمرانية تزدهر بازدهار الفكر وتتقهر بتقهقره.

وتقترب الصورة في قوله تعالى: (واجتنبوا الطاغوت)(36) و(ولا تنقضوا الأيمان)(91) و(ولا تشتروا بعهد الله)(95) و (أن اتبع ملة إبراهيم)(123) من "الاستعارة القريبة من الحقيقة"(3)، من حيث كان "معنى الكلمة المستعارة، موجودا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص والقوة والضعف... ومثله استعارة الطيران لغير ذي الجناح"(4). ندرك هذا في الآيات بالتعرض لدلالات الألفاظ الأصلية، ثم النظر إلى دلالاتها في سياقها...

والآية الأولى سلط الاجتناب فيها على الطاغوت، والاجتناب من جنب، وهو في الأمور المادية الملموسة، "والجانب: شق الإنسان... يريد جنب الشاة... وقيل الصاحب بالجنب... وجنبتا الوادي: ناحيتاه..."(5)، وحين سلطت (اجتنبوا) على الطاغوت أوحت بماديته، ولهذا دلالته، فالواجب أن يكون الطاغوت واضحا عند المخاطبين وضوح الأشياء المادية الملموسة، وأن تكون المفارقة له – في وضوحها – مفارقة الأشياء المادية، دون أدنى تعلق أو ترسب، والخطاب بالدرجة الأولى لقوم توطنت فيهم عقيدة الطاغوت، فأمروا بأن يخلصوا منها خلوصهم

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص102

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406،407

3) الجرجاني، عبد القاهر :أسرار البلاغة في علم البيان، صححه وعلق حواشيه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت، 1978م، ص44

4) نفسه: ص41

5) ابن منظور: لسان العرب،حرف الباء، فصل الجيم

من الماديات، وهذا يوحي بإمكان ذلك، بل بسهولة حدوثه،وهو بذلك يقلل من شأنها ويسقطها عن مرتبة الأفكار.

وفي الآية الثانية سلط النقض على الأيمان: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)(91)، وكثر استعمال النقض في هدم الماديات ، و"النقض: إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء... والنقض: اسم البناء المنقوض، إذا هدم..."(1)، وهذا يرشح دلالة الهدم ، وكأن اليمين بناء محكم، والنكث به هدم له، وللصورة أثرها النفسي؛ إذ تصور سلبية هذا العمل، وتتعزز الصورة بالآية التالية: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها...)(92)، وتطيل الصورة الحاصلة بـ(ولا تنقضوا الإيمان) أمد ذلك العمل، وتكشف عن مكنوناته، في حين يظهر لغير المدقق أو للمتهاون أنها مجرد كلمة يقولها فيتحلل بها عن يمينه... والحاصل هو عملية نقض بأحداث وأفعال...

وتصور الآية: (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا)(95) استبدال الدنيا بعهد الله بصورة الشراء، وتكشف الصورة عن الرغبة المالية المسيطرة، وتسبب للواقعين فيها حرجا؛ يتمثل في الكشف عن واقعهم الذي طغى فيه المال على كل أوجه حياتهم حتى ألبسوها – على تباينها – وجها واحدا رغم كونه لا يصلح إلا لواحدة منها، و"ليس هنا شراء ولا بيع، ولكن رغبتهم فيه بتمسكهم به كرغبة المشتري بما له ما يرغب فيه"(2)، وينساق التصوير إلى جزئيات هذه العملية، فيدخل في مقاييسها، فإذا بها خاسرة؛ إذ أن المشترى مهما كان في مقابل المبذول ثمن قليل، "وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم، إن رجعوا"(3)، ولكن كلمة الثمن توشك أن تقلب الصورة عن أولها، فتجعلهم بائعين من حيث أرادوا أن يكونوا مشترين، وهكذا يبدأ التصوير برغبة في الربح وتوجه لتحقيقه، وينتهي بخسارة، ثم ينكشف الموقف عن كونهم باعوا، بما تحمله هذه من دلالات أضعف من دلالات الشراء، لا سيما وهي خاسرة.

وسلط الاتباع في قوله تعالى: (وأن اتبع ملة إبراهيم)(123) على الملة، فأوحى تركيب الجملة بصورة فحواها: أن الملة تسير، والناس يسيرون خلفها، ولم يسند الاتباع إلى إبراهيم عليه السلام، "مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم ليس بتابع له، بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عليه السلام عنه"(4)، ليظهر أن الانقياد إنما هو للوحي بالأصالة.

---

1) نفسه: حرف الضاد المعجمة، فصل النون

2) نفسه: باب الواو والياء من المعتل، فصل الشين المعجمة

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص427

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص252

وأسند وصف الكذب إلى ألسنة الكفار في السورة مرتين، مـــرة علـــى ســـبيل الإخبـــار: (وتصف ألسنتهم الكذب)(62)، لتقرير هذه الحقيقة، ومرة على سبيل النــــهي: (ولا تقولـــوا لمـــا تصف ألسنتكم الكذب)(116)، وكأن ألسنتهم قد أصبحت آلة، وظيفتها وصف الكـــذب وإنتاجـــه، "وكأن ألسنتهم لكونها منشأ الكذب، ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه، ومحيط بحقيقتـــه، يصفـــه للناس، ويعرفه أوضح تعريف... وهذا من باب الاستعارة بالكناية"(1)، وإذا وضعنا الصورة فـــي سياقها نجدها جاءت – على مستوى النص – بعد تكـــرار تكذيبـــهم ، حيـــث وصفـــوا القـــرآن بالأساطير، وادعوا رضى الله عن شركهم، وأنكروا البعث وغير ذلك، وعلى مســـتوى الواقـــع كانوا يكذبون الرسول عليه السلام ويفترون عليه.

وينهى الله تعالى عن اتخاذ الأيمان دخلا في قوله: (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فـــتزل قدم بعد ثبوتها...)94، ويتصدر الصورة نهي، وتتفاعل دلالاتها لتفضـــي إلـــى حالـــة يشـــوبها التأرجح ويعوزها الثبات، وتبدو فاعليتها لصيغة لا أصلية، ورغم احتواء هذه الحالة على عوامـــل ثبات، غير أنها ليست فاعلة، فالأيمان وسيلة للغدر والخديعة، والثبوت حالة ماضية، وتنشط فـــي تشكيل الصورة الاستعارة، المتمثلة في استعارة القدم، وإسناد الزلل إليـــها، وتحيـــل القـــدم إلـــى الإنسان. على طريقة المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية، وتظهر فاعلية المجاز فـــي تســـليطها الضوء على القدم، أمارة الثبات أو الزلل، والصورة المتحصلة من الاستعارة والمجـــاز صـــورة إنسان يقف على أرض طينية رطبة... ويتقاطع هذا الجانب من الصورة وما كان بعض النـــاس عرضة له في أمر الإسلام والثبات عليه، إذ "المراد من هذه الآية نهي الذين بـــايعوا رســـول الله صلى الله عليه وسلم عن نقض عهده"(2)، وما كان يكنه بعضهم من دخل، "والدخل في الأصـــل: ما يدخل الشيء، وليس منه، ثم كني به عن الفساد والعداوة المستبطنة كـــالدغل وفســـر قتـــادة بالغدر والخيانة"(3)، ويكشف التركيب عن مسؤولية الواقعين في تلك الحالة القلقة عن ايجادهـــا، فاتخاذهم أيمانهم دخلا، جعل أقدامهم تزل، وعرضهم للسوء (وتذوقوا السوء بما صددتـــم عـــن سبيل الله)(94)، فهي إذن حالة خاصة، أوصلت إليها أفعال مذمومة.

وتصور الآية: (ولا تك في ضيق مما يمكرون)(127) حال الرسول صلى الله عليه وســـلم والمؤمنين في مكة، بعد أن اشتد مكر الكفاربهم، وتكشف عن الحال التي سيؤولون إليها. إن هـــم

---

1) نفسه: ج14، ص427

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص112

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص222

ظلوا منفعلين بمكر الكفار، وكأن الصورة، وهي تعترف بأذى المكر ترفض أن يحل في غير محله، أو أن يفعل غير فعله، وهي لا تسمح بأن يزاول نشاطه في الداخل كما يزاوله في الخارج، فإذا سمح له بذلك فسيركز له في الداخل قاعدة ينطلق منها إلى الخارج، ليضرب في النهاية حول المسلمين سورا، ليسجنهم في إطاره، وكأن "الضيق إذا عظم وقوي صار كالشيء المحيط بالإنسان من كل الجوانب"(1)، ولا ينسجم هذا الانغلاق مع الدين الذي أنزله الله، وهو منفي بمعية الله المؤيدة للرسول ودينه وأتباعه: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(128).

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص144

يكشف التشبيه في قوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17) عن أعلى درجات التبــاين بين طرفيه، من يخلق، ومن لا يخلق، وتنضوي فاعلية التشبيه تحت الاستفهام الإنكاري، وتقـرب الصورة بين طرفيها إلى درجة الالصاق، حتى لا يفصل بينهما سوى الكاف المهموسة، ثم يبــدأ الطرفان بالافتراق والتباعد، وعامل التباعد هي الصفة التي قامت الصورة عليها وهــي الخلــق، ولم يسند كفار مكة تلك الصفة إلى غير الله، ما يجعل الصورة تعمل في عقولـــهم ونفوســهم... ويشكل النص السابق لها واللاحق بها عمقا لها، فهي تشد إليها كل الدلائل التي تضمنتها الآيــات؛ لتنال بذلك درجة عالية من التكثيف والإيحاء، وعلى المستوى الفكري تثير هذه الصورة فاعليـــة التفكير، وقد تقاطعت مع الاستفهام، أو لنقل أحيطت بـــه، مــن قبلــها ومــن بعدهــا: (أفــلا تذكرون)(17)، وبعد أن تثمر على المستوى الفكري، تنشط على المســتوى النفســي، إذ يعنــي الإيمان بالخالق اللجوء إليه وطلب العون منه.

وتصور الآية: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكــون)(40) ســرعة امتثــال الأشياء إلى خالقها، وهو متزامن مع وجودها، بل سابق له، "وهذا مثـــل؛ لأن مــرادا لا يمتنــع عليه، وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند الآمر المطــاع، إذا ورد على المطيع الممتثل"(1) وتبدو عناصر الصورة متفاعلة متحركة في ذهاب وإيــاب، فهي تبــدأ بالقول (إنما قولنا لشيء إذا أردناه)، وللوهلة الأولى يبدو كأن التحقق لم يحدث في هذا الجـــزء، لكن الجملة تحوي تحقيقا لهذا الشيء – المراد إيجاده – (إنما قولنا لشيء) في كلمة شــيء، ثــم بالضمير الواقع تحت الإرادة (أردناه)، ويظل هذا الشيء حاضرا في النص بواسطة الضمـير (أن نقول له)، ثم بالضمير المستتر (كن)، ورغم أن الإرادة جاءت في النص بعد القول؛ إلا أنها فــي الوجود سابقة عليه، ذلك أن المعنى "يقتضي كون القول واقعــا بــالإرادة"(2)، وهكــذا تتشــكل صورة مغايرة للصورة المعتادة عند المتلقي في مثل هذا المقام، أعني مقام السعي لتحقيق الأمـور المادية، فهي لا تنجز إلا بشروط وأسباب...

وفي السورة ثلاثة أمثال، ضربها الله لعباده، منها مثلان متتاليان، وهما في الآية: (ضــرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجـــهرا

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص410

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص33

هل يستوون)(75)، وفي الآية: (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)(76). وكانت الآيتان سبقتا بقوله: (فلا تضربوا لله الأمثال)(74)، "ويجوز أن يراد بـ(لا تضربوا لله الأمثال) أن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون، ثم علمهم كيف تضرب، فقال: مثلكم في إشراككم بالله والأوثان مثل من سوى بين عبد... وبين حر"(1)، وبهذا يظهر أن الآيتين تمثلان تشبيها طرفه الأول في الحالتين المشركون، فحالهم كمن سوى بين العبد العاجز والحر المتصرف، ومثلهم كذلك في الثاني كمن سوى بين المتصف بأعلى درجات السلبية والمتمتع بأعلى الصفات الإيجابية.

وتتسم الصورتان بقدر عال من التفصيل والتشكيل، الأمر الذي أغنى الصورة وشكل ملامحها، ما سمح باستحضارها إلى الذهن بعد اكتمالها، ومكنها من أداء غايتها، و"(التفصيل) عبارة جامعة، ومحصولها على الجملة أن معك وصفين أو أوصافا، فأنت تنظر فيها واحدا واحدا، وتفصل بالتأمل بعضها من بعض"(2)، ورغم أن المتلقي ينظر في أجزاء الصورة، إلا أنها لا تعمل في نفسه مجزأة، وإنما تتفاعل أجزاؤها وتعمل معا... ويقترب المثلان أو الصورتان في مكوناتهما من بيئة العرب... فالعبد المملوك معروف لديهم، والحر الكريم معروف كذلك وصفة البكم تقابلها – عندهم – الإبانة، وصفة العجز تقابلها القدرة، وهذه المكونات في الحقيقة معلومة للعرب ولغير العرب، ولكنها تستدعي للعرب أصنامها، المتصفة بالبكم والعجز... وتزخر الصورتان بالحياة والحركة، فالعبد المملوك، هو رمز لجانب كبير من الحياة الاقتصادية، ولكنه جانب سلبي، ويقابله مظهر آخر من مظاهر الحياة الاقتصادية، وهو تصريف المال وإنفاقه، وما يحققه ذلك من دورة في المال، وحركة في مناشط الحياة، وتعكس الجملة: (فهو ينفق منه سرا وجهرا) حركة المال، ووجوه إنفاقه وتعدد غاياته، وهذه التفاصيل تطيل نظر المتلقي، وتدمجه في الصورة.

والصورة الثانية كالأولى في حركتها وغايتها، لكنها تتميز عنها في حضور العجز الفكري، سبب في صفات البكم وعدم القدرة على شيء "من الاشياء المتعلقة بنفسه أو غيره، بحدس أو فراسة، لسوء فهمه وإدراكه..."(3)، وحضوره إيجابا في: (يأمر بالعدل وهو على

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص420
2) الجرجاني: أسرار البلاغة، ص144
3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص196

صراط مستقيم)(36)، وتنجح الصورتان في إظهار المفارقة بين أطرافها ما يجعل المتلقي يخرج منها، وقد أحس بظلم الشرك، ووقوع المشركين في مناطق الضلال...

ويتناول التشبيه في قوله تعالى: (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب)(77)، أمر الساعة، وما تعنيه من تغيرات شاملة، وما تفضي إليه من انقلاب الحياة بأسرها إلى وجهها الآخر، وأبرز ما في دلالات هذا التشبيه السرعة، "أي هو عند الله وإن تراخى كما تقولون أنتم في الشيء الذي تستقربونه، هو كلمح البصر، أو هو أقرب"(1)، غير أن دلالات أخرى تنبثق من الصورة، تكشف عنها حركة العين المخصوصة وهي اللمح، و"لمح البصر هو عبارة عن انتقال الجسم المسمى بالطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها"(2)، وكأن تلك الحركة تحكي أمر الساعة؛ إذ هي إغلاق سريع، ثم انفتاح جديد، ويفضي ذلك إلى طي زمان الدنيا بيسر وسهولة.

وتتفاعل في تشكيل الصورة الألفاظ الواردة في سياقها، ومنها (الساعة)، التي توحي بالحضور، ومعناها في الأصل: "الوقت الحاضر، وقوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يعني بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة، فلذلك ترك أن يعرف أي ساعة هي؛ فإن سميت القيامة ساعة فعلى هذا..."(3)، فغاية الصورة -كما يبدو من سياقها- إحضار الساعة بزمانها الغائب إلى الزمن الحاضر، ووضعها في مركز تنبه المتلقي، بحيث تصبح لمحات العين أمارات عليها أو مؤشرات إليها، وهي الدلائل على انقضاء الزمن ودنو الساعة، فاقتبست الصورة من حياة الإنسان مؤشرات ملازمة له؛ لتدمجها في فاعليتها، فتكتسب الصورة بها حياة دائمة وحضورا قريبا.

وفي الآية: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها أنكاثا...)(92) تعميق لفاعلية الصورة الواردة في الآية السابقة لها: (ولا تنقضوا الأيمان)(91)، إذ تتوسع دائرة الصورة؛ وتمتلئ فراغاتها، فيبدو نقض اليمين عملية هدم في أعقاب عملية البناء، والبناء حصيلة جهود متواصلة وإجراءات دقيقة، أفضت إلى ذاك البناء المحكم، ويترك إنجازه في النفس أثارا ايجابية، تحيل إلى معاني المتانة في تدفقها ورخائها واستقرارها، ثم لا تلبث هذه المعاني أن تتلاشى، بل لا تلبث أن تندثر على يد الباني لها، وليس يخفى أن الغاية من الصورة تتجاوز التوضيح والإبانة إلى تنمية روح البناء، ولفت الأنظار إلى عوامل استقراره، وهنا تتقاطع الأبنية الفكرية والسياسية والاجتماعية

---

1) الزمخشري: الكشف، ج2،ص421

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص90

3) ابن منظور: لسان العرب، كتاب العين، فصل السين.

والمادية في اعتمادها جميعا على عوامل تضمن لها قوة نسجها وإحكامها... مع الانتباه إلى ضرورة الحفاظ عليها من أي خطر يهددها...

وتتوسع الصورة ويبقى البناء عنصرا فعالا في تكوينها، ذلك في قوله تعالى: (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)(112). وتصبح (القرية) مجال هذه الصورة، وفيها تجري أحداثها، و "القَرْية والقِرْية لغتان المصر الجامع... وفي الحديث أن نبيا من الأنبياء أمر بقرية النمل فأحرقت؛ هي مسكنها وبيتها..."(1)، والقرية هنا تشمل الأبنية المادية بالأبنية الاجتماعية، وهي تشير إلى الحياة المستقرة، والألفاظ في مجال الصورة صريحة بذلك (آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان)، وهي ألفاظ تستقصي الحياة الطيبة من أطرافها، وفي الحديث عن القرية، وهي في أصل دلالتها تدل على الأبنية المادية ما يزيد من نشاط الصورة؛ إذ أسندت صفات الأمن والاطمئنان والرزق الواسع إليها، وهي ترتد في الحقيقة إلى أهلها ما يشعر بدرجة الهدوء وبالحياة الطبيعية المستقرة استقرار الأبنية المادية، مبعدة بذلك صخب الناس ومنازعاتهم مبقية على دلائل الحركة، ولكنها الحركة المنتظمة الوادعة.

وتبدو في الصورة فاعلية الجوع والخوف متحدتين في لباس واحد، وهما متزامنتان في الأداء لا متعاقبتان، وتتخذ فاعلية اللباس شكل الإذاقة والذوق حاسة عضوية يؤديها اللسان، ما يكشف عن تفاعل مباشر يفوق تفاعل السمع والبصر... "وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما، ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف"(2)، وقد يكشف الترتيب المتداخل المعاني(فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) عن تداخل حياتهم واختلاط أمورهم على نحو غريب.

وهذه صورة من ينعم الله عليه، فيتنكر للنعم، إذ "جعل القرية التي هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا"(3).

---

1) نفسه: حرف الواو الياء من المعتل، فصل القاف

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص431

2) نفسه: ج2 ، ص431

تتضمن الآية: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)(98) صورة قائمة على المجاز، "والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ... فإن قلت: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ قلت: لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة، بغير فاصل وعلى حسبه، فكان منه بسبب قوي وملابسة ظاهرة"(1)، ويرى بعض العلماء أن الاستعاذة بعد القراءة، "أما الأكثرون من علماء الصحابة والتابعين فقد اتفقوا على أن الاستعاذة مقدمة على القراءة"(2)، ورغم أن هذا هو المطلوب أداء، إلا أن الآية أوحت بغيره ظاهرا، ما يدل على أن ثمة معاني ثانية، وهي معان يتفاعل فيها المعنى الحقيقي والمجازي، يتقدم هذا مرة ويتقدم ذاك الأخرى، وتسفر عن دمج مريد القراءة بالقرآن عند التهيؤ لها، وكأنه في تلك الحالة دخل إلى مجال القرآن فأفاض عليه من نوره وأمده بما يحفظه من الشيطان، وهو مازال على وشك الدخول في القراءة.

والآية: (وإن عاقبتم فعاقبوا...)(126) تقوم الصورة فيها على المجاز أيضا، "أي إن أردتم المعاقبة ... وقد عبر عنه بالعقاب على طريق إطلاق اسم المسبب على السبب"(3)، والاتجاه العام الذي تسير إليه الآية هو تفضيل العفو، بأمارة: "(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)، وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقاد؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة..."(4) وما دام هذا متّجه الآية، فلا بد أن تتضافر الوسائل للوصول إليه، ومنها أسلوب المجاز بعلاقته القائمة على إحضار العقاب إلى النص، فإحضاره إلى النفس ما يوحي بأنه ممكن وفي حكم القائم، وهذا يسهم في إطفاء جذوة الغضب، ويعزز عوامل العفو عند الاقتدار على العقوبة.

وفي الآية: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)(103) مجاز علاقته الآلية، إذ اللسان آلة الكلام، و"اللسان مجاز مشهور عن التكلم"(5)، غير أن إسناد العجمة والفصاحة إليه، وهو العضو المعروف، يوحي بأن العجمة في الأول مستوطنة، شأن العيوب الخلقية العصية على العلاج، وكذا الشأن في الفصاحة، فهي متأصلة في القرآن تأصل الصفة الخلقية في موصوفه. والمجاز المرسل يعتمد على عملية ذهنية، ينتقل العقل فيها وحدة معينة

1) نفسه: ج2، ص428

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص116

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص257

4) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص143

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص233.

من الوحدات التي يتضمنها مفهوم الكلمة، وهذه العملية بمثابة تركيزأو تبئير يسلط العقل فيها أضواءه على عنصر معين من الحقيقة دون العناصر الأخرى"(1)، وهذا الاختيار القرآني للفظة لسان، وتسليط العجمة والفصاحة عليها يتفق والغاية التي تريدها الآية، وهي الكشف عن بطلان افترائهم، بخصوص تعليم ذاك الأعجمي القرآن للرسول عليه السلام، وهي إذ تلجأ إلى هذا الاختيار المجازي تكشف جهل المفترين وتبكتهم.

1) أبو العدوس، يوسف: المجاز المرسل والكناية، الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان. ط(1)، 1998، ص108

المستوى البديعي

الالتفات

معنى الالتفات في الاصطلاح:

"ومعناه في مصطلح علم البلاغة هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول...."(1) وهذا من أعم التعريفات وأخصرها، وحده قدامة، فقال: "هو أن يكون المتكلم آخذا في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن رادا يرد عليه قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا على ما قدمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه"(2) وجعل أبو هلال العسكري الالتفات على ضربين: "فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى؛ فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه، يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به..... والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادا يرد قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدمه؛ فإما أن يؤكده أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه"(3)

ويتفق مفهوم قدامة وأبي هلال العسكري مع المفهوم العام للالتفات، ويختلف معه، ووجه الاتفاق هو الإقرار بأن الالتفات انحراف، ووجه الخلاف في كيفية هذا الانحراف، وبواعثه.

وذهب البغدادي في الالتفات مذهبا قريبا من مذهب العسكري،فقال:"وأما الالتفات فهو أن يكون الشاعر في كلام، فيعدل عنه إلى غيره،قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة في الأول وزيادة في حسنه"(4)

وأما الزمخشري، فكان له في الالتفات رأي، حمله من بعده كثير من المفسرين والبلاغيين ورددوه، نورد هنا جزءا منه، يتناسب وما نحن فيه،"فإن قلت لم عدل عن لفظ الخطاب، قلت

1) اليمني: الطراز، ج2، ص132.

2)ابن جعفر، أبو الفرج قدامة: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط3، ص146-147

3) العسكري: كتاب الصناعتين، ص392.

4) البغدادي، أبو طاهر بن حيدر: قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تحقيق محمد غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، ط(1)، 1981م، ص62

هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم"(1).

ومن العلماء الذين تصدوا لبيان إعجاز القرآن الباقلاني، الذي أدلى برأيه في الالتفات، ونقل لنا قول جرير نقلا عن الأصمعي، وعلق عليه"ومثل ذلك لجرير:

متى كان الخيام بذي طلوح   سقيت الغيث–أيتها الخيام

ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام قوله:"سقيت الغيث" ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتا، وكان الكلام منتظما وكان يقول:"متى كان الخيام بذي طلوح أيتها الخيام"؟ فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف، كان ذلك التفاتا"(2)

وأرى من مجموع هذه التعريفات وغيرها أن الصفة العامة التي تشترك فيها هي العدول عن كلام إلى غيره، أو هو الخروج عن كلام منتظم إلى غيره، وهذا ما مثله الالتفات في السورة، فهو قد نفى الرتابة عن النص وخرج به من نسق إلى نسق.

وهذا ما دعته الدراسات الأسلوبية الحديثة انحرافا"والنتيجة الطبيعية التي ترتبت على ذلك هي النظر إلى الأسلوب الأدبي باعتباره انحرافا عن الأسلوب المعياري،من حيث أنه منبه متميز يحدث استجابة متميزة"(3)، و"ولقد شاعت عبارة "فاليري" التي قال فيها إن الأسلوب هو في جوهره انحراف عن قاعدة ما، وشاركه في ذلك الرأي كثير من النقاد ودعوا إلى ضرورة أن يتعود الباحث تماما على القاعدة أولا، حتى يتمكن من اكتشاف الانحرافات المتفرعة عنها"(4)

ولم يكتف أصحاب هذا المنهج بعد الانزياحات وبيانها ولكنهم، كشفوا عن القصد من ورائها، وهذا ما سنراه حين التعرض لموضوع الالتفات، وأغراضه التفصيلية في السورة.

---

1) الزمخشري: الكشاف ،ج1 ص62.

2) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف1963، ص99.

3) عياد، محمود: الأسلوبية الحديثة، محاولة تعريف. فصول، ص125

4) فضل،صلاح: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، مؤسسة مختار- القاهرة، 1992م،ص179.

الالتفات في السورة:

لم يقطع هذا الأسلوب،الذي ظهر في السورة، صلته بالالتفات بوصفه أسلوبا من أساليب العرب والعربية،ولما كان الأمر كذلك، فلا مندوحة لنا من التعرض لخصائص الالتفات، بوصفه أسلوبا يرمي إلى لفت انتباه السامع،وجذبه إلى النص، حتى يغدو مكونا من مكوناته، بما يلتحم معه ويندغم فيه، وقد تنبه إلى ذلك البلاغيون والمفسرون وهم يتذوقون آيات القرآن الكريم.

وقد نص ابن الأثير على"أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود"(1)

كما ذكر في موضع آخر كلاما مقاربا للسابق"....وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على عظم ما قالوه"(2)،وسنجد أمثال هذا في هذا النص المدروس.

وقد تعرض حازم القرطاجنى لأثر الالتفات العام فقال: "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير المتكلم أو ضمير مخاطب، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره، فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه، وتارة يجعله كافا، فيجعل نفسه مخاطبا، وتارة يجعله هاء، فيقيم نفسه مقام الغائب. فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب، وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض، وهو معنوي لا لفظي،وشرطه أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى الملتفت عنه"(3)

ولم يبتعد النابلسي كثيرا عن ذلك حين قال: "الالتفات هو انتقال الكلام من أسلوب من التكلم والخطاب والغيبة إلى أسلوب أخر غير ما يترقبه المخاطب ليفيد تطرية في نشاطه وإيقاظا في إصغائه"(4) وهذا رأي كان الزمخشري قد سبق إليه

---

1) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي: المثل السائر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية – بيروت، 1995م، ج2، ص4.

2) نفسه: ج2، ص5.

3) القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء، عن الزركشي: البرهان، ج3، ص314

4) النابلسي، عبد الغني: نفحات الأزهار على نسمات الأسحار، عالم الكتب – بيروت، مكتبة المتنبي–القاهرة، بلا تاريخ، ص54

أما المفسرون، فلعل الزمخشري أبرزهم في الكشف عن أثـــر الالتفـــات، إذ قـــال:" ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للإصغاء إليـه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد"(1). وقد أثر رأيه في المفســرين مــن بعده، ومنهم البيضاوي الذي قال:"ومن عادات العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلـــى آخر تطرية له وتنشيطا للسامع فيعدل من الخطـــاب إلـــى الغيبـــة ومـــن الغيبـــة إلـــى التكلـــم وبالعكس"(2)

ولم يبتعد المحدثون كثيرا عن أراء البلاغيين العرب، فقد نقل لنا الدكتور صـــلاح فضـل رأيا ل"شلوفسكي"يقول فيه: "عندما نختبر القوانين العامة للتلقي نجد أنه في الوقت الذي تصل فيـه الأفعال إلى أن تصير عادة تتحول إلى الآلية. هذه الآلية المتولدة عن التعود هـــي التـــي تحكـم قوانين خطابنا النثري"(3).

وقد أدلى الدكتور محمد مفتاح برأي مماثل فقال: "واللغة الأدبية: تحرير من الآلية؛ لأنـــها ترتكز على مجموعة من الاحتمالات السياقية المنتظرة، ومدى وقوع ما يتوقعه المتلقي"(4).

ومن الناحية الشكلية، أضفى الالتفات على النص دينامية وهو بذلك يعزز النمط الدينـاميكي في لغة النص، "وطبيعة العمل الأدبي التي تمثل محك الاختيار اللغوي، يتوزعـــها، فيمـــا يـــرى الكاتب، نمطان محوريان، النمط الاستاتيكي، والنمط الثاني ديناميكي.....ومثل هذا النمط يفـرض بدوره على معمارية البناء الروائي مداميك صياغة مختلفة.... وهو من ثم لا يتكئ على وضـوح العرض قدر ما يتكئ على خلط الزمن ومزج مجالات الشعور، في وعاء رمزي واحـد، وعـاء رمزي تجاوبه وتتساوق معه وثبات مباغتة من الحاضر إلـــى المـــاضي ومـــن الحـــاضر إلـــى

وانظر: الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة- بيروت ، ط(2)، ج3،ص314

1) الزمخشري، الكشاف،ج1، ص63،64.

2) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مؤسسة شعبان - بيروت، بلا تاريخ، ج1، ص31-32.

3) فضل، صلاح: بنية الشكل البلاغي، فصول، ربيع 1992،ج1، ص269.

4) مفتاح، محمد :بعض خصائص الخطاب: علامات في النقد، الفلاح للنشر والتوزيع،ذو القعدة1420،ص32

المستقبل... ومن صيغة ضميرية إلى أختها دون إخلال بوحدة البناء وانسجامه"(1) ولا يختص هذا بلغة الرواية، بل هو عام في اللغة الأدبية.

ولعل هذه السمة البارزة في الالتفات، هي التي دعت القدامى إلى إطلاق هذا الاصطلاح عليه، "وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأن ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة"(2)

وقد عبروا عن إعجابهم بهذا الأسلوب، ولمسوا فيه الحركة،والقدرة على كسر القواعد النمطية، وتجاوز الحدود، فوسموه بالشجاعة، وعدوه مظهرا من مظاهر شجاعة العربية، "وإنما سمي بذلك؛لأن الشجاعة، هي الإقدام وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات"(3)

كما وافق ابنَ الأثير صاحبُ الطراز فقال:"اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة، وهو أمير جنودها، والواسطة في قلائدها،وسمي بذلك أخذا له من التفات الإنسان يمينا وشمالا"(4)

وقد ألمح إلى الصفة المتحصلة .ن التلاعب بالضمائر، عبد الملك مرتاض فقال:" فكأن ضمير الغائب مدبر متجه نحو الماضي البعيد، فهو طولي، بسيط الاتجاه، مفتوح إلى الوراء، وكأن ضمير المتكلم مقبل متجه نحو الحاضر أو الماضي القريب، فهو دائري حلزوني مغلق"(5)

ونظل في جماليات الالتفات الشكلية، وهي التي ظهرت في السورة وقد لحظت فيه وسيلة من وسائل التدرج في الخطاب....

1) أحمد. فتوح: لغة الحوار الروائي، فصول، العدد الثاني، كانون- اذار-1982،ص86

2) ابن الأثير: المثل السائر،ج2، ص3

3) نفسه: ج2، ص3.

4) اليمني: الطراز. ج2، ص132.

5) مرتاض.عبد الملك: في نظرية الرواية. بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة-الكويت، 1998م، ص188.

وقد نص علماؤنا على هذه المزية له في مواضع، منها سورة الفاتحة، ومنهم ابن الأثير، إذ قال:"وبما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)بعد قوله: (الحمد لله رب العالمين)، فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأن الحمد، دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك، استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر"(1)

وقارب البيضاوي ابن الأثير عند تعرضه، لالتفاتات الفاتحة، فقال:"....ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عيانا، والمعقول مشاهدا والغيبة حضورا"(2) ونبه إلى ذلك النورسي فقال:"تضمن الخطاب بسر الالتفات للأوصاف الكمالية المذكورة، إذ ذكرها شيئا فشيئا يحرك الذهن، ويعده ويملأه شوقا ويهزه للتوجه إلى الموصوف"(3)، ثم أكد ذلك وفصله: "ثم إن هذا الالتفات – أعني ذكرهم أولا بالغيبة ثم الخطاب معهم هنا – نكتة عمومية في أسلوب البيان، وهي: إنه إذا ذكر محاسن الشخص أو مساويه شيئا فشيئا يتزايد بحكم الإيقاظ والتهيج ميلان استحسان أو ميلان نفرة"(4)

وقد جاء الالتفات في السورة، في كل مرة، بعد حدوث النسق وانتظامه، فحدثت حينها المغايرة، وقد التفت البلاغيون القدامى إلى موضوع النسق، وكيف أنه يوفر للالتفات وجوده، واعتبر النابلسي أن الالتفات هو أول خروج على النسق، وليس ما يليه فقال:"... ومنها تكرير الطريق الملتفت إليه، نحو: (وإياك نستعين واهدنا وأنعمت)، فإن الالتفات، إنما هو في إياك نعبد، والباقي جار على أسلوبه، وان كان يصدق على كل منها أنه تعبير عن معنى بطريق بعد التعبير عنه بطريق أخر"(5)

---

1) ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص5.

2) البيضاوي:أنوار التنزيل وأسرار التأويل،ج1، ص31-32.

3) النورسي، بديع الزمان سعيد:إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار الأنبار، ط(1)، 1989م ،ص38.

4) نفسه: ص195

5) النابلسي: نفحات الأزهار،ص54.

وما انطبق على تلك الآيات التي تناولوها ينطبق على التفاتات هذه السورة؛ ذلك أن تلك الفوائد والمزايا، هي فوائد أسلوب الالتفات وخواصه، وقد وجد الالتفات في السورة، فوجدت خواصه وظهرت فيها فوائده.

أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

لا يعزب عن الذهن أن أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، يوفر جو المواجهة والصراحة، ويجلي مادة الخطاب ويعلي من شأنها، ويبث فيها الحياة، كما يضفي عليها الراهنية.

وهو أسلوب يقصر المسافة بين المرسل والمستقبل ويحصرها...

جاء ذلك في قوله تعالى (فاتقون)(2)، بعد أن كان الخطاب جاريا على طريق الغياب: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده)(2)

وهنا سؤال، وهو، لماذا تم الالتفات في هذا الموقع؟ ولماذا حصلت المغايرة بين قوله: (ينزل الملائكة) وقوله: (فاتقون)؟ وتكمن الإجابة في خصوصية أسلوب الالتفات، وفي التباين القائم بين الموضوعين، فالأول أمر عقدي، وإنزال الملائكة وما تبعه فعل لله، يتبعه ايمان، والإيمان شأنه الرسوخ والاستقرار في القلب...

وأما مادة (فاتقون) فهي الأحكام التكليفية العملية، ومحلها الجوارح، وشأنها الظهور والانكشاف والحضور، وثمة تباين واختلاف بين شكل الخطاب في: (لا إله إلا الله)(2)، التي جاءت على طريقة الخبر، وشكل الخطاب في (فاتقون) التي جاءت على طريقة الطلب، وقد فرق الرازي بين الأمرين قائلا:"فاعلم أن النفس لها قوتان، إحداهما: استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب، وهذه القوة المسماة بالقوة النظرية وسعادة هذه القوة في حصول المعارف، وأشرف المعارف وأجليا معرفة أنه لا إله إلا هو، وإليه الإشارة بقوله: (أن أنذروا أنه لا إله إلا انا). والقوة الثانية للنفس: استعدادها للتصرف في اجسام هذا العالم، وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة العملية، وسعادة هذه القوة بالإتيان بالأعمال الصالحة، وأشرف الأعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (فاتقون) "(1) لكنه كما نرى لم يفسر سبب

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج19،ص226

تقمص كل موضوع شكلا لغويا ونمطا أسلوبيا مغايرا للآخر. وقد أثبت حصول الالتفات في هذه الآية أبو السعود، فبين أنه "خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات"(1)

واستخدم أسلوب الغيبة في معرض الذم في قوله: (أو يأخذهم على تخوف)(47) فأدى إلى عزل مستحقي العذاب، وتغييبهم، بإنزالهم عن رتبة الخطاب، "فكأن ضمير الغائب مدبر، متجه نحو الماضي البعيد، فهو طولي بسيط الاتجاه، مفتوح إلى الوراء"(2)، وتساوقت هذه المعاني التي وفرها الالتفات والمعاني الناشئة عن الخسف والأخذ وغيرها، وهي الواردة في النص السابق.

أما أسلوب الخطاب فقد استمال المتلقين، ورغبهم في تلقي الخطاب والتفاعل معه (فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47) "والتعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير الخطاب من آثار رحمته جل شأنه"(3) وجاء هذا الترغيب متزامنا والتنفير من أولئك المبعدين.

وحين يريد القرآن لأمر أن يتم، أو يمتثل، فإنه يوجه الخطاب إلى المكلف صريحا وواضحا، مراعيا بذلك الفروق في مستويات المتلقين، جاء ذلك في قوله (فلا تضربوا لله الأمثال ..)(74)، وذلك بعد نص جرى على طريقة الغياب. "وهذا الالتفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي"(4).

وهذا يذكر بطبيعة النص القرآني وغايته، وهو جعل آيات الأحكام صريحة واضحة، مع غنى دلالاتها وكثافة عباراتها، وقد أفاد الالتفات المعنى في تتمة الآية (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(74) وعززه، لأن طرح هذه الفكرة إلى الناس يستأهل المواجهة، لما لطبيعة الإنسان من اعتداد بعلمه وصعوبة اعتراف المرء بجهله، وإن كان.

---

1) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5،ص97.
- وانظر :الألوسي، ج14، ص95. وانظر الشوكاني: فتح القدير ، ج3،ص182.
- وأنظر : البيضاوي: أنوار التنزيل، ص175

2) مرتاض: في نظرية الرواية، ص188.

3) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص153

4) نفسه: ج14، ص193

ويوصل الالتفات إلى الخطاب النص: (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا...)(55) إلى الذروة، وذلك بما يوفره هذا الأسلوب من مواجهة ومباشرة، وقد تحدث المفسرون عن هذا الأسلوب، عند تعرضهم لتحول النص إلى الخطاب في سورة الفاتحة، فقال البيضاوي: "ثم إنه ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام، تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين، خوطب بذلك، أي يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عيانا، والمعقول شاهدا والغيبة حضورا ..."(1).

وكذلك نبه ابن الأثير إلى هذا الأسلوب، وضرب على ذلك مثلا: "(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا)، وإنما قيل لقد جئتم، وهو خطاب للحاضر بعد قوله (وقالوا) وهو خطاب للغائب، لفائدة حسنة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبيه لهم على عظم ما قالوا، وكأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرا وموبخا لهم"(2)

وصرح أبو السعود بهذه المرتبة التي وصل إليها النص بالالتفات، فقال:" (فتمتعوا) أمر تهديد والالتفات إلى الخطاب للإيذان بتناهي السخط"(3)

ولا يخفى أن توجيه الإهانة والتقريع للإنسان في وجه أشد إيلاما عليه، وأكثر استصغارا لشأنه من رميه بها غائبا، وعلى هذا جاء قوله تعالى: (تالله لتسألن عما كنتم تفترون)(56) بعد قوله تعالى: (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم)(56) ذا أثر نفسي بالغ.وقد تناول ابن الأثير هذا الضرب من الالتفات في قوله الذي أوردته أنفا(4)، "وفي تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب، المنبئ عن كمال الغضب، من شدة الوعيد ما لا يخفى"(5)

1) البيضاوي: أنوار التنزيل،ج1، ص31،32

2) ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص5

3) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص120

وانظر: الألوسي: روح المعاني،ج14، ص 167

4) ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص5.

5) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص167

أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

يقصي الالتفات في قوله:(فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عمـــا يشـــركون)(1) المشـــركين وشركهم عن المشهد، ويغيبهم عن الذهن، ويجنبهم الفاعلية والمشاركة، "والالتفات إلـــى الغيبـــة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطـــاب وحكايـــة شـــنائعهم لغيرهم"(1)

وتلك الدلالات آتية من طبيعة ضمير الغياب، ومن السياق الذي توافق معـــها، بـــل، إنـــه عززها"....ولقد شهد بسداد الاستعمال النحوي العربي ودقته بعض اللسانياتيين الغربيين، فذهـــب إلى أن هذا الضمير (الغائب) يحيل على شيء خارج الجملة، وأنه لا يعتزي إلى شـــخص بذاتـــه وإنما يعين الشخص الغائب"(2)

ويتغير نسق النص في قوله(.... وعلامات وبالنجم وهم يهتدون)(16) فيستتبع ذلك شـــعور باشتراك الناس جميعا في النعم التي ذكرتها الآيات قبل هذه، وباختصاص قريش وامتيازها بـــهذه النعمة.

ولعل في ذلك تلميحا لقريش أو تعريضا لها بمعان ينبغي لها الوصول إليها..... "وبـــالنجم هم يهتدون" مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل، وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون،... كأنه أراد قريشا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لـــهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا"(3).

---

1) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص95.

وانظر: الألوسي: روح المعاني، ج14، ص92.

2) مرتاض: في نظرية الرواية، ص183، أورد الكاتب تفسيرا ل(اللسانياتيين) فقال: "نسبة الى "اللسانيات"، حتى لا يختلط الأمر مع النسبة إلى اللسان،ص316.

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص405.

وانظر: إرشاد العقل السليم، ج5، ص104.-و الألوسي،ج14، ص117، و الرازي، ج20،ص10

أما لماذا توجهت العناية إلى قريش؟ ولم تغيرت سنن الخطاب؟ فذاك أمر متعلق بقوله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته)(1)، حيث جعلت قريش المتلقي الأول والأبرز.

وربما أشار الالتفات في قوله تعالى: (... فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه)(69) إلى تباين جهتي الإحداث في كل من اتخاذ البيوت وأكل الثمرات وسلوك السبل من جهة، وخروج العسل من بطونها من جهة أخرى، فالنص سمح بإسناد تلك الأول إلى النحل، ولكنه لم يسمح بإسناد إخراج العسل إليه، وهذا يكشف عن أن أعمال النحل بمعزل عن إخراج العسل بذاتها.

وثمة نصوص قرآنية جاءت على غرار هذا، ولكنها أصرح في الدلالة عليه وأوضح، مثل قوله تعالى: (أفرأيتم ما تمنون(2) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون(3)) ثم (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)(4)

وقد التفت المفسرون إلى هذا الالتفات، وأبدوا فيه آراءهم، ونص الرازي على "أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة، والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره، خاطب الإنسان وقال: إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه"(5). كما التفت العمادي إلى أثر ذلك على المتلقي فقال: "استئناف عدل به عن خطاب النحل، لبيان ما ظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى، والتي هي موضوع العبرة، بعدما أمرت بما أمرت"(6) .

---

1) سورة الأنعام: 124

2) سورة الواقعة: 58

3) سورة الواقعة: 59

4) سورة الواقعة: 62

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص74.

6) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص126.

وانظر الألوسي، ج14، ص184، والشوكاني، ج3، ص281.

وقد شكل الالتفات مفصلا مهما، وتحولا واضحا بين منحيين مختلفين وحقلين متغايرين، يلتقيان عند هذا الالتفات وينفصلان، ذانك هما حقل النحل وعالمه وأسراره، وحقل الإنسان وإفادته من ذاك النشاط، إفادات مادية وأخرى معنوية.

تساوق الضمير الدال على الحضور مع النعم الحاضرة المشاهدة، وانسجم ضمير الغياب مع الباطل في قوله: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة أفبالباطل يؤمنون.....)(72)، وقد سبق وعرض لمعنى ضمير الغياب، كما وصفه مرتاض، مدبرا متجها نحو الماضي البعيد. وهكذا شأن الباطل.

وقابل الزمخشري بين هاتين الصورتين اللتين وقع الكفار فيهما "(أفبالباطل يؤمنون)، وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل، لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم إيمان إلا به، كأنه شيء معلوم مستيقن،ونعمة الله المشاهدة المعاينة، التي لا شبهة فيها لذي عقل وتمييز هم كافرون بها منكرون لها"(1)

وقد عرض النص قبل الآية النعم عليهم على طريقة الخطاب، فلم يصادف من أكثرهم شكرا، فأصبح القرب منهم لا يحتمل، فأبعدوا، وطرحوا عن مرتبة الخطاب إلى الغياب. "والالتفات إلى الغيبة للإيذان باستيجاب حالهم للإعراض عنهم وصرف الخطاب إلى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه"(2)

وبعد ذلك الأسلوب والنسق، نجد آيتين تاليتين للسابقة(72)، والأسلوب فيهما قريب من أسلوبها،ونسقهما قريب من نسقها،وهو بالشكل والدلالة ولا انفصال بينهما.

ذلك في: (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (81) فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين(82)).

فقد عدت عددا كبيرا من النعم، وبدأت بأسلوب الخطاب من الآية الثمانين واستمرت عليه في الواحدة والثمانين، وعند بداية الثانية والثمانين انحرف الأسلوب إلى الغياب. والتحول إلى

1) الزمخشري: الكشاف،ج2، ص419.

2) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5. ص128.

وانظر الألوسي، ج14، ص192.

الغياب أشعر المخاطبين بأنهم بمعزل عن مظنة التولي، وإنما المتولون المحتملون أناس غيرهم. وهذا ثبت دلالة النص الأول، وشكك بالدلالة الثانية، وجعلها مغايرة،فهي مظنونة وليست ناجزه.

وأفادت(تولوا) الجارية على طريقة الغياب مواساة للرسول صلى الله عليه وسلم المعروف بحرصه الشديد على هداية الناس،وألمه وحسرته لضلالهم، لكن تلك الصيغة أقصتهم عن ذهنه وقلبه. و(تولوا) في "فإن تولوا فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له"(1)

في الآية: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)(96) التفات بالتحول إلى (الذين صبروا)، والظاهر يقتضي ولنجزينكم، ولا سيما أن الخطاب للمؤمنين "والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل إلى التعرض لأعمالهم، والإشعار بعليتها للجزاء"(2)

وألحظ توافقا بين: (ما عند الله) المغيب والممتنع عن الحد والحصر و(الذين صبروا)، فثمة توافق فوق التوافقات الأخرى الواضحة، وهو توافق في أسلوب إيراد كل منهما، على طريقة الغياب،التي أوحت بالاتساع والامتداد والاستمرار، وهو معنى إيجابي وفره الالتفات إلى الغياب، وليست السلبية ملازمة له، كما قد يظن، نص على ذلك ابن الأثير من قبل، وألمح إلى دور السياق والمقام في ذلك فقال: "... وهذه السورة (الفاتحة) قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب؛ لتعظيم شأن المخاطب ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا"(3).

أحدث الالتفات في: (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون)(58) اختلافا في الدلالة، تبعا لاختلاف الموضوعين في كل حالة، ففي حالة الغياب، كان موضوع الإيمان والاعتقاد، وهو أمر مستكن في القلوب، ذاهب في النفوس ، وفي حالة العمل، الذي شانه الدوام والاستمرار والتجدد كان اسلوب التكلم، وتبدو العلاقة بين الحالتين وثيقة، والصلة بينهما هي صلة الفرع بالأصل.

---

1) العمادي: إرشاد العقل السليم،ج5، ص133.

2) نفسه:ج5، ص138

وانظر : الألوسي، ج14، ص225

3) ابن الأثير : المثل السائر ، ج2، ص5

ولأن الأفعال مظنة التراجع ومحتملة للتقطع أو التقصير والتهاون جيء لها بضمير المتكلم الذي يشعر بالسطوة والحضور: "(فإياي فارهبون)(51) نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله وإياه فارهبوه"(1)، وهو "الالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب"(2)

و" لما ثبت أن الإله واحد، وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور ويقول:(فإياي فارهبون)"(3)

وهذا شبيه بالسابق، من حيث، أنه تقعيد للقاعدة، ثم انطلاق منها، فقد أثبت الإيمان ثم انتقل بالخطاب إلى العمل.

أفاد الالتفات إلى التكلم في: (ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا..)(96) أعلى درجات التوكيد والتوثيق، وأضفى على قلوب المخاطبين طمأنينة ورضى: ذلك لما في أسلوب التكلم من الله من الخصائص، و"فائدة الالتفات إلى التكلم في هذه المواضع التنبيه على التخصيص بالقدرة "(4)، فهم من مجموع ذلك أن الله لا يكون متكلما، إلا في موضوع عالي القدر، سني الدرجة، فيوليه عنايته، ويطلق ذلك للناس.

لا شك أن الالتفات إلى التكلم في قوله تعالى:(آتيناه في الدنيا حسنة) (122) قد دل على إظهار الاهتمام والتكريم لإبراهيم، عليه السلام، "والالتفات إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه، عليه الصلاة السلام"(5)غير أنا قد نلتمس سببا آخر لهذا الالتفات، وهو مستند إلى تفسير (حسنة) و"هي تنويه الله بذكره حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه"(6)

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص413

2) العمادي: إرشاد العقل السليم، ج5، ص119

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص50

4) الزمخشري: الكشاف، ج3، ص 53، عن الزركشي: البرهان، ج3، ص320

5) العمادي: إرشاد العقل السليم، ص149

6) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص434 .

وبذا تظهر المغايرة بين أسلوب الغيبة الذي اقترن بأمور أنجزت وأسـلوب التكلـم الـذي ارتبط بأمر مازال مستمرا وقائما، فما زال ذكر إبراهيم عليه السلام شائعا ومتميزا على ألسـنة أهل هذا العصر.

الثنائيات الضدية

يقوم معنى الضد في اللغة على نفي كل طرف للطرف الآخر، و"كل شيء ضاد شيئا ليغلبه، والسواد ضد البياض، والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار، إذا جاء هذا ذهب ذلك"(1)، وهي علاقة في صميم الحياة، فالأشياء متغايرة، ويصل التغاير إلى حد التصادم، فلا يجتمع نقيضان في مكان واحد وزمان واحد...و""التضاد" ترفض فيه العناصر بعضها بعضا، كما يرفض الجسد الأعضاء الغريبة عنه"(2).

وعلى هذه العلاقة قامت"المطابقة"،و"قد أجمع الناس على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو بيت من بيوت القصيدة؛ مثل الجمع بين السواد والبياض والليل والنهار والحر والبرد"(3)، وهذه الصفة من اجتماع الأضداد ممكنة الوقوع، أما أن يحل الضدان في محل واحد لا يتسع إلا لأحدهما فمستحيل، حتى الأضداد من المفردات، فهي في النص لا تعني الشيء وضده، بل يختار لها الكاتب معنى منهما، ترشد إليه القرائن فكلمة الجون مثلا، وهي من الأضداد لا تعني الأسود والأبيض في وقت معا، بل هي تستعمل للبياض أحيانا و تستعمل للسواد أحيانا، والعلاقة الضدية قد ترد بين أجزاء النص، وقد يطول هذا الجزء أو يقصر، فيمكن أن يكون على مستوى المفردة، كما وردت في السورة: (فهو ينفق منه سرا وجهرا)(75)، وقد يطول حتى يكون على مستوى الجملة الطويلة كما ورد فيها أيضا: (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين)(24)، وهي عن الكفار، وجاءت آية تقابلها، وهي: (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا...)(30)، وليس هذا الامتداد بمغير من طبيعة فاعلية التضاد، وإن كان له أثر في بيان المدى الذي استغرقه، وكذلك تقبل هذه العلاقة في بعض حالاتها التفاوت، فقد تكون حادة، وقد تكون أكثر حدة ...

ولدى النظر في السورة تبين أن حركة ضدية أساسية تقوم فيها، تتمثل في العلاقة بين الإسلام والكفر، وهي النواة الصلبة التي تتمحور حولها الثنائيات الأخرى؛ ذلك أنها تمثل صراعا جذريا، وهي فاعلية ممتدة في النص،كما أنها ممتدة في الزمان، حاضرا وماضيا ومستقبلا، وحتى تداعياتها، ومترتباتها تستمر إلى ما بعد الزمان الدنيوي؛ لتصل إلى زمن الآخرة.

---

1) ابن منظور: لسان العرب، حرف الدال المهملة، فصل الضاد المعجمة.

2) الربيعي ،محمود : لغة الشعر المعاصر ،مجلة فصول ،العدد الرابع،ص:71.

3) العسكري: الصناعتين، ص316. وخالفهم قدامة بن جعفر، فقال: المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى ، نفسه: ص 316

وقد كان الواجب على الكفر أن يتلاشى، وقد أنزل الله الرسالات: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)(2)، وكان لا ينبغي لأحد أن يختار الباطل، والله (خلق السموات والأرض بالحق)(3)، وكان الأولى بالإنسان – على وجه الخصوص – أن يختار الطاعة ... والله (خلق الإنسان من نطفة)(4)، ولم يكن إيجاد الهداية مع بقاء الضلالة ملزماً للناس سلوكها، (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر)(9)، ورغم ذلك فقد استحكم الكفر في جماعات من الناس –وليسوا قلة – وكان منهم من نزلت رسالة الإسلام فيهم، إذ أن عقيدة الشرك كانت إرثهم الفكري الذي ألفوه فعز عليهم فراقه، ولم تكن تلك الحالة حالة وعي، وصلوا إليها بالتفكير والبحث، وهم على ذلك رفضوا أن يخرجوها إلى المحاكمة الفكرية فجاءت نصوص السورة تَعْرضها للمتلقي مقرونة بما يقابلها، علّ ذلك أن يكشف لهم عنها... وقد تكرر ذلك، وأخذ مظاهر متعددة...

ومع الفائدة الفكرية التي حققتها العلاقة الضدية، حققت دينامية في بنية النص، "ولعل البنية الأولية للدلالة... هي أبسط من غيرها، وأكثر فعالية لإبراز آليات الصراع... ومكونات البنية هي التناقض والتضاد والتضمن وشبه التضاد..."(1).وكان التضاد عاملاً من عوامل الحيوية بما تضفيه حالات الصراع، ولا سيما حين تتغلب فاعلية على أخرى، من رضىً لدى المتلقي الواعي، وقد ظهر ذلك في السورة، حين ضرب الله مثلاً للمشركين ومعبوداتهم بالعبد المملوك، وعقّب بعد الفراغ من ضرب المثل بالقول: (الحمد لله) إشعاراً بظهور الحجة واضمحلال الخصم.

تبدأ السورة بقوله تعالى: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون)(1)، ونلحظ فيها شيئاً من الملاحقة، وتشعر بالتحدي الذي كان يبديه مشركو العرب، وقد "كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاءً وتكذيباً، فقيل لهم: (أتى أمر الله)..."(2)، وترهص هذه البداية بما سيتوالى بعدها من ثنائيات ضدية متعددة المظاهر، ومنها المظهر الفكري وكلها تحوي هذا الأمر، إلا أن منها ما مازجه أمر آخر، ومنها ما جاء فكراً محضاً، ومن ذلك أساس العقيدة القائم على نفي الشرك ثم إثبات التوحيد: (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا)(2)،وهو تخلية قبل التحلية، وهدم قبل البناء،هدم قاعدة فكرية خاطئة

---

1) مفتاح، محمد: التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية. المركز الثقافي العربي، ط(1). 1996م. ص51

2) الزمخشري: الكشاف. ج2. ص400 .

وإنشاء أخرى سليمة، ولنا أن نلاحظ موقعية هذه الآية، حيث جاءت في بداية السورة، وجاءت تنبئ عن مضمون رسالات الرسل.

وظهر التضاد في قوله: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17) بأسلوب الاستفهام، وبوضع هاتين الحالتين في وضع تقابل مباشر، وبالاقتراب يزداد التباين ظهورا، ونحن نقر بالتباين الذي لا نستطيع تقدير مداه بين القادر على الخلق والعاجز عنه، وهو أمر نابع من طبيعة هذه الصفة التي كانت أساسا لهذه العلاقة.

وتتوازى عبادة الله سبحانه واجتناب الطاغوت في (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(36) مع الحركة الأولى: (لا اله إلا أنا)(2)، وهي بمثابة الصوت الذي يتردد ويتسع مداه، بعد أن تتوارد جملة من الآيات، وهي كما ترددت في السورة، كانت تتردد في أحقاب زمنية متعاقبة، وهذه الثنائية التي تقوم إحداها على الأمر، والأخرى على النهي لا تقبل حلا وسطا، فالمسافة بين ذينك الضدين مغلقة ومحرمة، فلا مجال لعبادة الله وعبادة الطاغوت، في وقت معا، أو عبادة الله فترة وعبادة الطاغوت أخرى، وهذه الثنائية من أكثر الثنائيات حدة إذ أنها مشدودة إلى :(أفمن يخلق كمن لا يخلق).

وعلى التوازي نفسه تستقيم الدعوة إلى توحيد الله في قوله:(وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو اله واحد)(51)، بهذا الأسلوب المباشر:(وقال الله)، وكانت العرب تؤمن بالله، غير أنها كانت تشرك معه آلهة أخرى، وهو الأمر الذي جاءت الآية له، والثنائية قائمة على التوحيد، ويقابلها التعدد، وليس النهي مقتصرا على اتخاذ الهين،"ودل النهي عن اتخاذ الهين على النهي عن اتخاذ آلهة"(1)، والطرف السلبي في هذه الثنائية هو طرف يحمل في طياته عوامل اضمحلاله بجمعه بين ضدين، إذ لا يستقيم في نظر العقل وجود الهين أو اكثر،"ولهذا فإن أحدا من العقلاء لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال "(2).

ويمكن أن ندرج مع هذا النوع ما ضربه الله أمثلة للناس، والهدف إيصال المتلقين، ومنهم مشركو العرب، إلى التوحيد، وهي قوله تعالى:(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا

---

1) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط. ج5، ص 485

2) الرازي: التفسير الكبير. ج20 ، ص49

يعلمون)(75)، وكأنه يخاطبهم قائلا:"مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك، قد رزقه الله مالا فهو ينفق منه كيف شاء"(1)، وواضح أنه ذو فاعلية إقناعية، يمازجها التعجيب من أمرهم، والذي يؤكد ذلك هو التفصيل والاستقصاء لحالة كل طرف من أطرافها، ثم السؤال التقريري: (هل يستوون)(75)، فبعد هذا العرض، وفي ذروة التأثر جاء هذا السؤال ليجني ثمرة هذه الفاعلية، وبعد حصول الجواب بالنفي يأتي التعقيب: (الحمد لله)(75)، "فلما قال هنا: (هل يستوون)فكأن الخصم قال له: لا، فقال: الحمد لله ظهرت الحجة"(2).

ويتلوه متوازيا معه: (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)(76)، وكأن المتلقي ينساق وهذا المثل منجذبا إلى أحداثه، ومتأملا لها حتى إذا وصل الى النهاية وجد المقابلة مع الطرف الآخر، وقد تشكلت في ذهنه تلك الصورة بكل دقائقها، ولعل هذا ما تفيده الإطالة، ولا سيما والأمر يتعلق باستئصال عقيدة، وزرع أخرى في أناس عرفوا بالأنفة وتقليد الآباء، فاقتضى ذلك هذا الاسترسال والهدوء.... لكن -وكما المثال السابق- عند الوصول الى الغاية يأتي السؤال: (هل يستوي هو ومن يأمر...)(76)، ليحدث اهتزازا في هذه الحركة، وليكون آلية وزن بين تين الكفتين.

ويأتي مضمون الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي....)(90)استمرارا للثنائيات الفكرية، ولكن السابقات موضوعها العقيدة، وهذه موضوعها الأحكام، والثنائية فيها قائمة على المعنى الإجمالي للمأمورات والمعنى الإجمالي للمنهيات، فالأولى تجمع كل أصناف الخير والثانية تجمع كل أصناف الشر، وتتوازى والسابقة بأسلوب المباشرة: (إن الله يأمر)(90) حرصا على إنجاح غايتها؛ إذ أن المطلوب فسيم العامة والخاصة، ولا شك أن وضع هاتين الثنائيتين في هذه الفاعلية قد زاد مفردات الأولى جمالا، وزاد مكونات الثانية تنفيرا.

ولما اتصفت السابقة بهذه السعة في مجالها،انضوت تحتها الفاعليات التي تحمل موضوعها، فجاءت الآية: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)(91)،

---

1) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص420

2) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص503

تالية لها وموازية، وهي تسمي الوفاء بناء وتسمي عدم الوفاء هدما، وهي بذلك تنفر الحس من هذا التدمير السلبي، وتزداد سلبيته ظهورا بالآية التالية والمتوازية معها: (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا)(92)، لتظهر غاية الحمق والعبثية. وهي قائمة على تدمير بناء محكم مسبوق بجهد ومستغرق لوقت، وذلك "كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته (أنكاثا)...وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع... فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن"(1). واللافت في هذه الثنائية أن عملية الهدم لا تقل صعوبة عن عملية البناء، لأنها نقض لغزل محكم النسج، ويرافقه شعور نفسي سيئ.....

وتتمظهر الثنائيات بمظاهر أخرى، هي في الحقيقة مبنية على الأولى، بل إن الأولى مكونها الأساسي، فنجد في السورة نموذجا للإسلام ممثلا في المؤمنين ونموذجا للكفر ممثلا في الكافرين. وتبدأ السورة بمواجهة هذا النموذج، وتحشد لذلك مخلوقات الكون العظيمة، وهي السموات والأرض والجبال والأنهار والسبل والليل والنهار والشمس والقمر والبحر وحتى الأنعام والخيل.... وكذلك النبات، كل أولئك وغيرها تنتظم وفق نظام الكون، وتخضع لأمر خالقه، مؤدية وظيفتها ومتفاعلة، ومن أبرز المنتفعين بها الإنسان: (وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)(14)، إلا أن كثيرا من الناس أبوا إلا مناقضة هذا الانتظام...

وتعرض لنا السورة نموذج المؤمنين ونموذج الكافرين، وإن كانا غير متكافئين في توزعهما على مساحة النص، فالكفار شغلوا القسم الأكبر، وليس يخفى أن الإكثار من عرض النماذج البشرية، مقابل قلة عرض الثنائيات الفكرية يعود إلى غرض تجلية المضامين للمتلقين؛ لأن الناس مأخوذون بالماديات المحسوسة أكثر من الفكريات المحضة التي لا يعقلها إلا العالمون...

وأبرزت السورة صفات السلب في الكفار، بذكر صفات الله العالية؛ تدعيما لشرعية الإسلام الموحى به من الله، وإبطالا لعقيدة الكفار التي استمدوها من أبائهم وأجدادهم، وليس لهم على شرعيتها عند الله دليل.

---

1) الزمخشري: الكشاف. ج2. ص426 .

ويمكن لنا أن نعقد مقابلة بين تلك الثنائيات، كما وردت في السورة، وبعض الثنائيات اجتمعت في موضع واحد. وبعضها تفرقت أطرافها، ويمكن إدراجها ضمن موضوعات فرعية على النحو التالي:

1. **الاستناد إلى العقل:**

الآيات تحث عليه فوق استناد أصلها إليه: (لقوم يتفكرون)(11)، (لقوم يعقلون)(12)، (لقوم يذكرون)(13) وغيرها الكثير من الآيات.

والكفار يفتقرون إليه، ويتناقضون معه، وقد وصفوا بالغفلة وعدم الشعور (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون)(45)، (وأولئك هم الغافلون)(108)، وعدم العلم: (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا)(56)، وبسوء أحكامهم: (ألا ساء ما يحكمون)(56).

2. **الهداية والضلال:**

الإسلام فيه الهداية: (وعلى الله قصد السبيل)(9)، (وألقى في الأرض رواسي... لعلكم تهتدون)(15)، (فمنهم من هدى الله)(36) وغيرها من الآيات.

أما الكفار فالضلال طريقهم، وإليه يدعون: (ومنها جائر)(9)؛ لأن من لم يسلك الأولى ضل، (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم)(25)، (ومنهم من حقت عليه الضلالة)(36).

3. **القدرة والعجز:**

الله الخالق: كل آيات الخلق، ومنها: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)(17)

الله المسخر: (وهو الذي سخر البحر)(14)

الله المنعم: (وما بكم من نعمة فمن الله)(53)

الله القادر: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(40)

-الكفار/معبوداتهم: (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون)(20)

وهي فاقدة للحياة: (أموات غير أحياء)(21).

ونجد في السورة ثنائيات أخرى كالغنى والفقر، والفاعلية والمفعولية.

وثمة ثنائيات تقوم المقابلة فيها بين المؤمنين والكافرين، وننظر إليها وفق التصديق والتكذيب:

المؤمنون: (للذين آمنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين)(30).

الكافرون: (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم...)(20)

ولهذه الحالة تفصيلاتها المختلفة، فعلى المستوى النفسي:

المؤمنون: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)(32)

الكافرون: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم)(28)

وغير ذلك من التفصيلات....

ولهذه الثنائيات أثرها على المتلقي؛ إذ يدرك سلبية الحالة التي عليها الكفار بأسسها وفروعها، وتزيد هذه المقابلات من تعريض مواقف الكفار للنقد والاحتكاك مع مواقف الحق.

وكان لبعض الثنائيات دلالات خاصة تمثلت في استغراق حالات المذكور، ومنها قوله تعالى: (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر)(9)، التي تفيد الثنائية فيها انحصار الناس بين طرفيها، فليس منهم و هو في أحد هذين السبيلين، وليس من أحد إلا وهو معني بهذا الأمر. ومثلها قوله: (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)(36) التي استغرقت كل الناس، وصنفتهم ضمن هذين الخيارين...، ومنها قوله: (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون)(19)، وأفادت استغراق علم الله كل شؤون الناس. السر منها والعلن، ولهذا أثران، أثر يعود إلى الله سبحانه فيدل على كمال علمه، وأثر يعود إلى الإنسان فيدل على انكشاف أمره كله، وكان لذكر السر والعلن دلالة؛ إذ أنهما قصدان متضادان للإنسان، أحدهما يحرص فيه الإنسان على التكتم، والثاني يحرص فيه على الإعلان، وهما طرفا هذا الأمر. ومنها أيضا قوله: (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم...)(80)، وهي في معرض إظهار المنة من الله سبحانه على الناس؛ إذ هيأ لهم جلود الأنعام، يجعلون منها بيوتهم،والانتفاع بها حاصل في السفر والإقامة وهما الحالتان اللتان لا يخرج الإنسان عنهما... وتدل الاية: (...ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا)(75) على "عموم إنفاقه للأوقات وشمول إنعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا... وهو يدل على انحاء التصرف وسعة المتصرف منه"(1)، وهي واردة في معرض بيان حالة الحر الكريم الغني الذي يتقابل مع العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء... فهي ثنائية مركبة.

---

1) الآلوسي: روح المعاني. ج14. ص195

وثمة ثنائيات تفاوتت درجات التضاد فيها، ومنها ما تضمنه قولــه: (والله أخرجكم مــن بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـــدة)(78) وطرفاهــا الجــهل والعلم، وتتفاوت المسافة بين الجهل الذي كان عليه الإنسان وقت الولادة، والعلم الذي يترقى فيــه بعد ذلك، من إنسان إلى آخر، بل إنها تتفاوت في الإنسان الواحد من مرحلة إلى أخــرى، وهــي قصيرة عند البعض حتى المجاورة، وطويلة عند آخرين، ثم أن الطرف الثاني وهو العلــم ليــس طرفا سكونيا وهو قابل للتنامي، فتبتعد المسافة وقابل للتراجع فتقصر... وقد يتراجع عند البعــض حتى يكاد يقتصر على ما تحصله الحواس مباشرة، وربما كان لعدم التصريح بالعلم فـــي الآيــة علاقة بذلك، إذ اكتفى بذكر أسباب العلم وأدواته وهي الحواس...

وتظهر الثنائية في أمور يستبعد المتلقي ظهورها فيها، كذات الإنسان، كما في قوله: (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم...)(28)، وقوله: (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها)(111).

والمتوقع أن يقع ظلم الإنسان على غيره، وليس جميع الناس يوقعون الظلم على غـــيرهم، أما أن يقع الظلم من الإنسان لنفسه. فيدل على عدائه الشديد لها، وهو يصل بنفسه إلى أن تصــير نفسين؛ نفس ظالمة ونفس مظلومة، وهذا يعكس الصراع الذي تمثل فيهم. والآية الثانية تتعــرض ليوم القيامة، وتظهر حال النفس فيها إذ تنشطر شطرين، تجادل فيه الواحدة الأخــرى، وتصــور كلمة تجادل المستمدة من شدة الفتل، والدالة على الخصومة والمغالبة شيئا من ذلك الموقـــف...، ويعكس هذا احتدام الصراع الداخلي، و"عن ابن عباس: أن الجدال هنا هو جدال الجسد للـــروح وجدال الروح للجسد... قال: يقول الجسد: رب جاء الروح بأمرك به نطــق لســاني وأبصــرت عيني ومشت رجلي، فتقول الروح: أنت كسبت وعصيت، لا أنــا وأنــت كنــت الحــامل وأنــا المحمول..."(1).

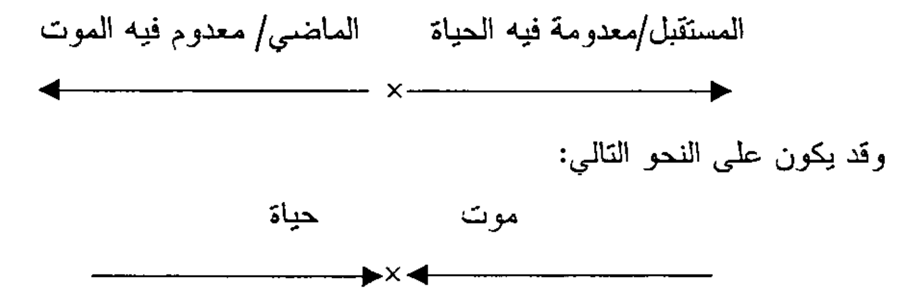
وتؤدي فاعلية التضاد في قوله: (لسان الذي يلحدون إليـــه اعجمـــي وهـــذا لســـان عربـــي مبين)(103) وظيفة إقناعية، تتجلى بوضع هذين الضدين إزاء بعضهما، وأظهر الاقتران بطــلان ما ادعوه من تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن من رجل أعجمي، وعزز الفاعلية وقـــوع طرفيها الأول في حيز الصلة ما يشعر بمعرفتهم له؛ ذلك "أنك لا تصل (الذي) إلا بجملـــة مـــن

---

1) الأندلسي: البحر المحيط، ج5، ص523-524.

الكلام قد سبق من السامع علم بها"(1)، وعززها كذلك الإشارة إلى الثاني باسم الإشارة (هذا) الدال على قربه وحضور فصاحته.

وتقوم الضدية في قوله: (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(61) بدور التثبيت التام للمنتهي أجله، إذ تمنعه الثنائيتان السلبيتان من التأخر أو التقدم، وكأن هذه الفاعلية تعمل وفق الشكل التالي:



وقد يكون على النحو التالي:

مع ضرورة الانتباه إلى أن الفاعلية تعمل في الدنيا، وتظهر أجل الفرد فيها، ولا تتعرض لما بعد موت الإنسان من بعث، كما لا تتعرض لما قبل حياة الإنسان، فتلك تناولتها آيات أخرى.

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص155.

الفصل الثالث

- الأنساق.
- أنساق السورة.
- النسق المتصاعد.
- المتعاطفات.

الأنساق

النسق لغة: "النسق من كل شيء: ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء... والنحويون يسمون حروف العطف حروف النسق؛ لأن الشيء إذا عطفت عليه شيئا بعده، جرى مجرى واحدا. وروي عن عمر رضي الله عنه، أنه قال: ناسقوا بين الحج والعمرة، قال شمر: معنى ناسقوا: تابعوا وواتروا. والنسق: ما جاء من الكلام على نظام واحد"(1). والانتظام هو المعنى المشترك لهذه الكلمة، ودلالة (النسق) عامة، ولكل جنس من الأجناس أسباب تنسقه، والنسق اللغوي في النص الأدبي له مقوماته الخاصة.

النسق اصطلاحا: وقد "حدد النسق – ضمنيا – بأنه ظاهرة تركيبية تنبع من التكرار، وتؤدي إلى تميز بارز بين اللغة المتسقة واللغة الحرة"(2). أما الأسباب التي يتوقف وجود النسق عليها فمتعددة، ترجع إلى الوسائل اللغوية التي تكون النسق، ويمكن ردها – على تنوع أشكالها – إلى المعنى، فقد يوجد النسق بتكرر المعنى بتمامه حين يتكرر التركيب ذاته، وقد يتكرر التركيب بألفاظ أخرى، فيحدث ذلك نسقا؛ ذلك أن "تكرار مجموعة من الأنماط النحوية – لا بكلماتها ذاتها – وإنما بتراكيبها المميزة... يجعلنا نستشعر شيئا من الألفة الناجمة عن تكرار النموذج النحوي وإشباع ما نتوقع من إيقاعات..."(3). ويمكن أن يتوالى النسق باستمرار بعض المعنى الأول، ويوجد النسق حتى بانعكاس المعنى، وذلك بالطباق، إذ أن الأشياء تستلزم أضدادها، والمعنى يحضر إلى الذهن نقيضه.

وقد نص علماء البلاغة على وسائل متعددة، وهي في حقيقتها من عوامل النسق... ومن تلك العوامل "مراعاة النظير، وتسمى التناسب والائتلاف والتوفيق أيضا، وهي أن يجمع بين أمر وما يناسبه، لا بالتضاد، كقوله تعالى: (الشمس والقمر بحسبان)"(4)، وليس إخراج التضاد من هذا القسم بناف عنه علاقته بتكوين النسق، بل العكس هو الصحيح، وليس مراعاة النظير منطبقا على المفرد دون التركيب؛ لأن التناظر يشملها، "ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، كقوله تعالى: (لا تدركه الأبصار

---

1) ابن منظور: لسان العرب، باب القاف، فصل النون

2) أبو ديب، كمال: الأنساق والبنية، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول، العدد الرابع، يوليو 1981، ص80

3) فضل، صلاح: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، مجلة فصول، العدد الرابع، ص217

4) القزويني: الإيضاح، ج2، ص343

وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فإن اللطف يناسب ما لا يدركـــه البصـــر، والخبرة تناسب من يدرك شيئا، فإن من يدرك شيئا يكون خبيرا به"(1)، ولا يخرج هذا كما يظـــهر عـــن الاشتراك في المعنى والاتصال بسببه. "ومنه المشاكلة، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فـــي صحبته تحقيقا أو تقديرا... وعليه قوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)، وقولـــه: (وجزاء سيئة سيئة مثلها...)"(2)، والعبارة: (لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا) تشـــعر بمـــا يسمى بالسياق المقالي، وقد قالوا: (لكل كلمة مع صاحبتها مقام)، والسياق اللغوي محكوم بالسياق الذهني، فتلك المفردات أو التراكيب جامعها الخضوع إلى سياق ذهني واحد. "ومنه المزاوجـــة، وهي أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء"(3)، وهو مزاوجة بين معنيين، إلا أن حصـــره في الشرط والجزاء ليس دقيقا، وقد قرنه أبو هلال العسكري بالسجع، ومثّل عليه بأمثلة تخـــرج عن أسلوب الشرط، "كقول الله تعالى: (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمـــات والنور)"(4)، إلا أن الأهم من تبين حدود المصطلح الالتفات إلى العلاقة المعنوية بيـــن قسـمي المزاوجة، "ومنه الرجوع، وهو العود على الكلام السابق بالنقض، لنكته كقول زهير:

قف بالديار التي لم يعفها القدم ... بلى وغيرها الأرواح والديم "(5)

وهو قريب من الطباق في نوع العلاقة؛ إذ المعنى الثاني يضاد الأول أو يبطله، ويتقـــاطع (الرجوع) مع ما ذكره أحد المحدثين حين قال: "أما الفني فيبنى بحيث يكون امتدادا في الفـــراغ؛ إذ يقتضي معاودة دائمة للنص الذي أنتج بالفعل دوره البلاغي..."(6)، وقريب منه، ولكن علـــى نحو أوسع "التقسيم، وهو ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه، على التعيين، كقول أبي تمام:

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف ... تميل ظباه أخدعي كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم ... وهذا دواء الداء من كل جاهل"(7)

---

1) نفسه: ج2 ص344، 345

2) القزويني: الإيضاح، ج2، ص348

3) نفسه: ج2، ص350

4) العسكري، أبو هلال: الصناعتين، ص266

5) القزويني: الإيضاح، ج2، ص352

6) لوتمان، يوري: تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، ترجمة وتقديم وتعليق: د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف-القاهرة، 1955م، ص60

7) القزويني: الإيضاح، ج2، ص358

إلا أن هذا التقسيم ينبغي أن يكون على أسس تجعل ما بني بنية جزئية ضمن البنية الكلية للنص، فهذا التعدد الذي ذكر في حد التقسيم، وهو في المثال: الوحي وشفرة السيف هما صورتان للمشبه، وفي إضافة كل صفة إلى موصوفها ما يبقي الاتصال المعنوي قائما، وقد يطلق التقسيم على "استيفاء أقسام الشيء"(1). ويذكر هذا بأسلوب نحوي له دور واضح في إيجاد النسق وهو العطف، أو الوصل ويقابله الفصل، "ولا يخلو النحو التقليدي من ضوابط يمكنها أن توضح لنا ترابط الجمل بعضها ببعض، ومن ذلك العطف الذي يجمع عددا من الجمل في نسق متزامن، وكذلك الفصل"(2)، والفصل يشعر بانتهاء النسق السابق له وابتداء نسق جديد، وتقوم حروف المعاني بدور مهم في ربط أجزاء النص وتضيدها و"تعني بالتنضيد ربط كلمة إلى كلمة وجملة إلى جملة وكلمة إلى جملة وجملة إلى كلمة، وما يقوم بالربط هو حروف المعاني وبعض الأدوات"(3)، ومن حسن النسق "أن يأتي المتكلم بكلمات متتالية معطوفات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا، بحيث إذا أفردت جملة منه قامت بنفسها، واستقل معناها بلفظها..."(4).

وفي كتب البلاغة تقسيمات أخرى، تحت مصطلحات كثيرة، ومهما تعددت الاصطلاحات والتقسيمات، فإنها تظل بمثابة نماذج تحقق فيها ما يشترط لوجود النسق، التي منها :"1- أن تكون له بنية داخلية. 2 – أن يحدد بمعالم قارة نسبيا بحيث يمكن التعرف عليه وتحديده من قبل العاملين. 3- أن يقبله المجتمع وينجز وظيفة للمجتمع لم تنجزها الأنساق الأخرى"(5). وهذه شروط تستوفيها تلك النماذج المعدودة في تقسيمات البلاغة فهي ذات بنية محددة، ولها معاييرها وهي بتميزها تؤدي أهدافا تضمن لها وجودها، وهي تشترك مع غيرها في تكوين بنية النص الذي يوصل إلى المتلقين رسالة ما... و"تهدف هذه النماذج جميعا إلى وصف ترابط الخطاب مهما كان جنسه واسترساله وعلائقه الدلالية ونمو موضوعاته وخصائصه"(6)، إلا أن تحقق صفة النسق في تلك النماذج لا يغلق الباب أمام نماذج أخرى يمكن أن تظهر في أي نص، ولا

---

1) السيوطي، الإتقان، ج3، ص207

2) خليل، إبراهيم: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ، ط(1)، 1997م، ص140، 141

3) مفتاح، محمد: التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، ص125

4) السيوطي: الإتقان، ج3، ص276

5) مفتاح، محمد: التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، ص39

6) نفسه: ص37، 38

يجوز حصر النصوص ضمن هذه النماذج، ويصبح الأمر أكثر خطورة، حين يكون الحديث عن القرآن الكريم، الذي بهر بأسلوبه العرب، ما يعني أنه تفوق على أنساقهم المعهودة، بل إنه أعجزهم، وليس التقيد بهذه المصطلحات أمرا لازما في الدراسة، وإنما اللازم هو الإفادة من مضمونها والوصول إلى القوانين والخصائص التي قامت عليها...

أنساق السورة

يمكن أن تشكل الآية الأولى والثانية نسقا متميزا، ذلك أن الجو السائد هو جو المعاني العقدية والتشريعية... وهو يمثل الطبقة العليا والشريحة الأولى من شرائح السورة. وأول فاعلياته هي (أمر الله)-(أتى أمر الله)(1)، يوازيها ويصاحبها: (فلا تستعجلوه) و(سبحانه وتعالى عما يشركون)(1). وتبدأ الآية الثانية: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)(2) بمثل ما بدأت به الأولى -جملة فعلية: دلالتها إنزال، وصاحب الفاعلية فيها هو الله جل جلاله: (ينزل الملائكة...). ويتسلسل النسق في هذه الآية من الذات العليا إلى الملائكة الحاملة للرسالة / الروح، إلى: (من يشاء من عباده)، وهم الرسل، إلى الناس كافة: (فاتقون). ويأتي تركيب تفسيري منضو ضمن نسق أكبر: (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا). وكما كان اتجاه الأولى من الأعلى إلى الأدنى كان اتجاه الثانية. وتشيع في هذا النسق إشارات التنزيه: (سبحانه وتعالى عما يشركون). وتمثل مسألة التوحيد ونفي الشرك بنيته الجوهرية. وهو بهذه البنية يمثل في السورة بؤرتها التي تتمحور حولها الأنساق وتتولد منها. وتتناظر آيتا النسق على مستوى التركيب، حيث الأولى مسندها فعل وصاحب الفاعلية فيها هو الله جل ثناؤه، والثانية كذلك. وتتناظران في الغاية وهي نفي الشرك: (عما يشركون)(1)، (لا إله إلا أنا)(2)، لكن الثانية تتنامى فيها هذه الفكرة، فيردف الأمر بالتوحيد، الذي محله القلب بأمر محله الجوارح: (فاتقون)(2)، ونلحظ في هذا النسق تسلسلا زمنيا من القديم إلى الحديث فأوله وفاعليته هي الذات العليا الأزلية (الله)، ثم الرسالة / الروح، فالملائكة و"هم الملأ الأعلى"(1)، وهم أسبق في الوجود من البشر و"السبق وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد بتقديم الليل على النهار... والملائكة على البشر...أو باعتبار الإنزال، كقوله: (صحف إبراهيم وموسى)"(2)، ثم الرسل والناس.

ويبدأ النسق التالي من الآية الثالثة ويستمر حتى نهاية التاسعة، ويبدأ بالفعل (خلق) مسندا إلى الضمير العائد إلى لفظ الجلالة، فالفاعلية له سبحانه، وهي الخلق التي تستمر - بتعدد المخلوقات- واضحة إلى نهاية الآية الثامنة، وتأتي التاسعة تتويجا لهذا النسق، ويمكن أن نراه على النحو التالي:

-خلق السموات والأرض (3) ←—— (3)

---

1) البقاعي: نظم الدرر. ج4، ص244

2) السيوطي: الإتقان، ج3.ص38

- خلق الإنسان (4) ⟵ (4)
- والأنعام خلقها (5) ⟵ (5)
- لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (5)
- ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (6)
- وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه (7)

وهذه الثلاثة هي خطوات متوازية ومتتالية، و "التوازي أنواع: يكون أحيانا مترادفا بحيث يعيد الجزء الثاني الجزء الأول في تعابير أخرى، ويكون أحيانا متضادا، بحيث يضاد الجزء الثاني الجزء الأول، ويكون أحيانا توليفيا؛ بحيث يحدد الجزء الثاني الجزء الأول"(1)، وأقرب ما يكون ما في الآية توليفيا إذ أن تلك المعاني توضح الغاية من خلق الأنعام، وتحدد مجالات استخدامها.

- (والخيل والبغال والحمير)(8) ⟵ (لتركبوها-وزينة)(8)، وهذا تواز آخر يشبه سابقه. ويتوقف هذا الجزء من النسق في هذه المرحلة، ويتصل به: (وعلى الله قصد السبيل....)(9)، عبر ما يسمى بـ "توازي المواصلة: وهما ما احتوى على حالة واحدة تضمن اتصال النص وتماسكه وتسلسله"(2)، ويظهر التواصل بالمعنى المباشر والصريح، وبالمعاني المستدعاة، أما المباشر فهو قطع السبل وبلوغ الغاية، وهذا المعنى يتقاطع عنده طرف من الجزء الأول مع الجزء الثاني وهو خاتمة النسق، والمعاني التي استدعاها هذا الأخير هو الانتقال إلى حالة أخرى عبر سبيل آخر، وهو انتقال من المادي إلى المعنوي وكأنه يبغي تحويل مناهج التفكير من الإغراق في الماديات والوقوف عندها إلى ربطها بما حوله للوصول بها إلى ما وراءها من حقائق. ونلحظ اقتران الخلق صريحا بالسموات والأرض واقعا عليها مباشرة، ولكنها مع الأنعام تقع على ضميرها، ومع الخيل والبغال والحمير يكتفي بالعطف الذي يشركها مع الأنعام دون اقتران الفعل الصريح بها.... ولعل ذلك عائد إلى غرض بلاغي أدبي، إذ لا يليق اقتران لفظ الجلالة، ولو بالضمير العائد إليه بما لا يليق به... وظل النسق الثاني موصولا بالنسق الأول ومرتبطا به بوسائل متعددة منها المماثلة في التركيب، حيث بدأ بجملة فعلية مسند فعلها إلى لفظ الجلالة وختمت الآية الثالثة، وهي من النسق الثاني بعبارة: (تعالى عما يشركون)(2) تكرارا لعبارة: (وتعالى عما يشركون)(1).

1) مفتاح: التشابه والاختلاف، ص97

2) نفسه: ص117

ويبدأ النسق الثالث ببنية كلية، تتولد منها بنى جزئية، علي النحو التالي: (هو الذي أنـــزل من السماء ماء)(10) – لكم منه شراب

– ومنه شجر فيه تسيمون (10)

– ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات

ويختم بـــ: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)(11)

وسنرى لهذا النسق أمثالا في السورة، من حيث توفرها على قاعدة أولـــى؛ تتفـــرع منـــها خطوط متوازية، وتختم بخاتمة، ولهذا التكوين أثره في بناء النسق وأدائه لفاعليته، ولا يقوم هـــذا الدور بمعزل عن بقية الأنساق التي تشكل البنية الكلية، بل يؤدي ذلك متفاعلا معها... فأنت تجـــد قاعدة هذا النسق متوازية والنسق الأساسي الذي يسند فيه الخلق إلى الله تعالى، لغاية تتمثل فـــي رد الناس إلى توحيده وعبادته سبحانه.

وهكذا يتكون هذا النسق بمكوناته الداخلية، ثم يتفاعل مع الأنساق المجاورة ويرتـــد إلـــى النسق الأساسي و "التوازي الأصلي يتولد عنه تواز فرعي ثم يعود التـــوازي الأصلـــي الـــذي يتناسل منه تواز آخر، وبناء عليه فإن التوازي بأنواعه يصير آلية مـــن آليـــات انتظـــام عـــالم النص"(1). أما بالنسبة لبقية مكونات النسق فهي خطوات متولدة، كما رأينـــا فـــي هـــذا النســـق ومتجانسة تتلوها خاتمة تحكم النسق، وتوفر له وحدته وكينونته. "فالختام عندمـــا يوقـــف تدفـــق المعلومات أو الأخبار يعطي دلالة جديدة للحشد الذي بدلا من أن يشكل فقدانا للأخبـــار يســـتخدم على العكس لكي يقوم....المضامين المختارة التي يتم اختتامها، فالختام إذن يحول الخطاب إلـــى مادة أو موضوع بنائي"(2)، والخاتمة هنا ذات ارتباط وثيق بما سبقها؛ إذ أنها ترد المتلقي بعـــد أن أوشك على الخروج من هذا النسق إليه مرة أخرى عبر تحفيزه وتشويقه بواسطة هذا التعبير: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)(11)، وقد استخدم من المحيلات اسم الإشارة: (ذلك) ليشمل كـــل ما سبق ذكره في النسق، وكي يحضره إلى الذهن، وعبر لفظة (آية) بالتنكير لتظل دلالتها غـــير متعينة، مما يبعث على معرفتها، وبوصف المستجيبين بالتفكير ثم بتأكيد كل ذلك بـــ (إن).

---

1) مفتاح: التشابه والاختلاف، ص121

2) إيفانكوس، خوسيه ماريا بوثويلو: نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: د. حامد أبو حامد، مكتبة غريب – بالفجالة، ط(1)، 1988، ص224

ويتوازى هذا النسق في تراكيبه وفاعليته واتجاه الحركة مع الأنساق السابقة، فعلى مستوى التركيب تطغى الجملة الفعلية، وإن كان أوله جملة اسمية (هو الـذي)، إلا أن الجملـة الفعليـة المنضوية فيها هي محل الفاعلية، وصاحب الفاعلية هو الله جل جلاله، واتجاه العطاء من السماء إلى الأرض.

وفي النسق الرابع يتفرع نسق التسخير عن نسق الخلق السابق، متوازيـا معـه ومحققـا غايته، إذ يتميز باستخدام لفظة (سخّر) بدلا من (خلق) لخصوصيتها الدلاليـة، وليسـت الفجـوة الدلالية بين اللفظتين واسعة، وتظل السمات التركيبية مشتركة: (فعل+ مسند إليه (لفظ الجلالـة) بواسطة الضمير المستتر+ الأشياء المخلوقة أو الأشياء المسخرة). وتشعر (واو) العطـف فـي بداية هذا النسق بالاقتران بينه وبين سابقه؛ لأن ذلك هو شأن الواو في إلحاقها جملـة بـأخرى، "وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقًا لمعنى في الأخرى، ومضامـا له مثل أن زيدا وعمرا إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال على الجملة، كانت الحـال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التـي عليها الآخر من غير شك، وكذا السبيل أبدا ، والمعاني في ذلك كالأشـخاص... "(1). والخلـق والتسخير مسندين إلى الله ومتوجهين إلى الإنسان يقعان في الوجود وفي النفوس موقعا متقاربـا وأحيانا متداخلا؛ إلا أن اقتران التسخير بالليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر له دلالتـه، وهي المخلوقات العظيمة، التي توجه العرب إلى بعضها بالعبادة، وما يؤكد القصد إلـى إبـراز تسخيرها إعادة ذكر التسخير مرة أخرى، بإسناده إلى النجـوم: (والنجـوم مسـخرات بـأمره)، ويقترب هذا الأسلوب مما تعارفوا عليه بالعكس، وهو "أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول...."(2)، والتسخير في أمر الحيوانات ظاهر؛ فلذلك لـم تتقصـد الآيات إبرازه...، ويمكن أن نرى النسق مقسما وفق الشكل التالي: (وسخر لكم الليـل والنـهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)(12) ويختم هذا الجزء بـ: (إن في ذلك لآيات لقـوم يعقلون)(12)، وهذا الختام يشغل موقعا من هذا النسق، ويؤدي بذلك غايته؛ إذ أنه لما "تـم هـذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله : (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)، يعني أن كل من كان عاقلا علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في اخـر الامـر إلـى الفـاعل المختار القدير"(3)، ويستمر النسق بالعطف:

---

1) الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص173

2) العسكري: الصناعتين، ص: 385

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص3.

(وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه...)، ويختـــم بـــ: (إن فــي ذلــك لآيــة لقــوم يذكرون)(13)، وربما كان ما تضمنه هذا الجزء من النسق مما ذرأ الله مــن مخلوقــات كثــيرة ومتنوعة متطلبا هذه الخاتمة المتضمنة صفة التذكر. وتتوازى هذه الخاتمة مع سابقاتها وتتنــاظر، إذ أنهما من أعمال العقل. ويستمر النسق، ولكن يطرأ عليه بعض الاختلاف فــي الــتركيب؛ إذ تصبح الجملة الفعلية منضوية في الجملة الاسمية وربما كان لذلك علاقة بطبيعة هذا الجزء مــن النسق الذي ستتفرع منه فروع فبنيت له قاعدة ، وهو يتشكل على النحو الآتي:

(وهو الذي سخر البحر)(14) يتوازى معها متولدا منها:

- لتأكلوا منه لحما طريا
- وتستخرجوا منه حلية تلبسونها
- وترى الفلك مواخر فيه
- ولتبتغوا من فضله
- ولعلكم تشكرون (14)

وتصلح هذه الأخيرة أن تكون خاتمة للنسق، رغم توازيها مع سابقاتها؛ إلا أنها حصيلة كـل تلك الوظائف. وتتوازى هذه الخاتمة، وهي خاتمة النسق كله، مع الخاتمتين السابقتين فيه: (لقــوم يعقلون)(12)، و: (لقوم يذكرون)(13)، لكنها تختلف عنهما في التركيب والوظيفة، فهي الثمــرة المرجوة لتلك النشاطات التفكيرية، وهذه المغايرة ضرورية لبنية هذا النص، و "النسق ينشأ مــن خلال المغايرة والانتظام"(1)،لكن هذه المغايرة لم تصل إلى حد المفارقة، وهي بتميزهــا تــبرِّز وجودها وتؤدي غايتها.

ويبدأ نسق آخر متناولا موضوع الأرض، بوصفها مكانا مهيأ لعيش الإنســان، ويتواصــل مع الانساق السابقة بالتفافه حول النواة الصلبة في السورة والبنية الجوهرية فيها، وهــي إثبــات الوحدانية لله والتوجه إليه بالعبادة، ويتواصل معها بالتركيب المناظر لتركيبها، حيث الفعل:(ألقــى) مسندا إلى (الله) سبحانه، بواسطة الضمير المستتر... ثم مفعول به، وهــي الرواســي والانــهار والسبل... (وألقى في الأرض رواسي...)(15)، ويرتبط أيضا بســابقه بــالقرب الدلالــي بيــن (ألقى)هنا و(سخر)و(خلق)هناك؛ "لأن ألقى فيه معنى جعل"(2)، وهي في هــذا الــتركيب تفيـد

1) أبو ديب: كمال. الأنساق والبنية، فصول، العدد الرابع، ص73

2) الزمخشري: الكشاف. ج2، ص404 .

معنى التسخير؛ إلا أن هذا التباين له فائدته من حيث مناسبة ألقى للرواسي، وهي في الوقت نفسه تكسر التكرار وتقصي الرتابة، "ويؤدي التكرار وظيفة مناقضة في معناها للوظيفة السابقة تماما، خصوصا حين يقترن بالرتابة التي تخلق حالة من السأم، وتفرض شعورا بالملل من تعاقب وحدات الموضوع المدرك وتتابع عناصره إلى ما نهاية، وتلك حالة مناقضة لأي شعور جمالي، الأمر الذي دفع فلاسفة الفن إلى تأكيد جماليات الإيقاع بوصفها مراوحة مستمرة بين إشباع التوقع وإحباطه"(1)، ويختم هذا الجزء من النسق ب(لعلكم تهتدون)(15)، التي تتوازى وما سبقها (لعلكم تشكرون)(14)، ويظل أمر الهداية رابطا بين جزئي النسق،(علامات وبالنجم هم يهتدون)(16)، وتتصل علامات الهداية اتصالا متساويا مع نظيراتها، وهي الرواسي والأنهار والسبل، غير أن (لعلكم تهتدون) تعترض بينهما، فكأن التركيب: وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا وعلامات، لكن النظم الكريم آثر أن يجعل الغاية وهي الاهتداء حاضرة في الأولى وفي الثانية، وإن كانت الهداية الأولى غير الثانية، لكن المقام مقام اهتداء، والمراد منه الانتقال من الاهتداء المادي بعلاماته إلى الاهتداء العقدي بأدلته، ويتوج ذلك بـ الآية: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)(17)، وهي تمثل عدولا في الأسلوب، من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي الاستفهامي، لتمثل تفعيلا وإثارة لكل ما سبق من أنساق؛ ذلك أن السؤال هو عن أمر كلي، وهو الخلق فصلحت أن تثير كل الأنساق السابقة التي تصب في الغاية نفسها.

وعلى مدار الأنساق السابقة ظلت البنية الأساسية حاضرة، وهي كذلك حتى نهاية السورة، وأخذ حضورها أشكالا مختلفة، منها البناء الفكري المحض، ومنها النموذج البشري سواء الإيجابي أو السلبي، وواقعه في الدنيا وجزاؤه في الآخرة.

ولا يتسع المقام للإتيان على تلك الأنساق جميعها وتناولها تناولا تفصيليا؛ لذا سأكتفي ببيان أشكال هذه الأنساق وطبيعة تكوينها....

وتتخذ الأنساق في السورة أشكالا عدة مع محافظتها على التوازي والارتباط.... فمنها ما جاء ذا قاعدة تركيبية ودلالية تولدت منها، وانضوت تحتها فروع متوازية ومتماثلة ثم ختمت بخاتمة حفظت للنسق وجوده، ومكنته من تحقيق وظيفته، وقد ظهر ذلك فيما سبق من أنساق السورة، ويظهر في أنساق غيرها... ومنها:-

---

1) عصفور، جابر: تكرار التشبيه، مجلة العربي، وزارة الإعلام-الكويت، العدد 507، فبراير 2001، ص88

(أفأمن الذين مكروا السيئات...)(45)، حيث تمثل هذه البنية الأولى قـــاعدة هــذا النســق وبوابته، وهي تشكل المعنى وتحتويه، وتبث في الذين مكروا السيئات إحساسا بـــترقب الســوء، ويتوازى معها متولدا منها، ومفصلا لها:-

-أن يخسف الله بهم الأرض.

-أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (45)

-أو يأخذهم في تقلبهم -فما هم بمعجزين (46)

-أو يأخذهم على تخوف -فإن ربكم لرؤوف رحيم (47)

وكأن هذه الجمل طيات أو شرائح تتحد لتصنع إحساسا متجانسا من الخوف.

وتختم بـــ: (فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47)؛ كي تشعر بأن هذا التخويف ليـــس مقصــودا لذاته وأن تلك الآثام ممكن أن تعفى، إن هم فارقوها، وهو يعطيهم فرصة لذلك،"والمعنـــى أنـــه يمهل في أكثر الأمور؛ لأنه رؤوف رحيم، فلا يعاجل بالعذاب"(1)، ومثلها:-

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم)(58)، يتوازى معها متفرعا عنها:-

- يتوارى من القوم من سوء ما بشر به
- أيمسكه على هون
- أم يدسه في التراب.

وتختم بـــ: (ألا ساء ما يحكمون)(58). وهذه البنية تجسد الحالة النفسية التي كـــان عليـــها ذلك الكافر المبشر بالأنثى، وتبدأ بالحالة العامة والملامح الخارجية... ثم تتوغل إلـــى نفســيته؛ فتكشف عما يدور فيها من اضطراب وتردد.

وتختم بتعقيب يؤكد ما سيصل إليه من اطلع على هذه الحالة؛ لتصبح هذه العبارة الأخـــيرة مقولة سائرة ونمطا مرددا.

ونسق آخر، وهو متعلق بعالم النحل:-

(وأوحى ربك إلى النحل...)(68)، وهذا أمر عام، ومدخل إلى التفاصيل الآتية:-

- أن اتخذي من الجبال بيوتا من الشجر ومما يعرشون (68)
- ثم كلي من كل الثمرات.... (69)
- فاسلكي سبل ربك ذللا...

وينتج عن استجابة النحل إلى هذه الإيحاءات:-

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص40.

- (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) ،يتفرع منها:

- (فيه شفاء للناس)

وتختم اللتان تشكلان معا نسقا واحدا بـ:-

-(إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)(69)، واللافت أن الآية الأولى من هذا النسق ظلت مفتوحة دون خاتمة، فلم تتقطع من قسيمتها. أما الخاتمة فقد أدت وظيفتها في هذا النسق بخصائصها التركيبية وبموقعها. وتكرر وقوع مثل هذا التركيب خاتما للأنساق؛ لما له من ميزات.

ومن النسق التوليدي: -والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا... (72)

-وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة

-ورزقكم من الطيبات

ثم يعدل بالأسلوب من الخبري إلى الاستفهام: (أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون)(72).

وينشأ هذا النسق عبر الانتظام والمغايرة، فتكون المغايرة، أو دذا العدول منبئا عن تنام في حركة المعنى واستثمارا لتلك الجمل الخبرية، وكأن التقدير: أبعد كل هذا تظلون على كفركم وجحودكم؟! وتميزت بداية هذا النسق، وتميزت نهايته، أما البداية فكانت جملة اسمية: (والله جعل لكم) انضوى تحتها جملة فعلية، كانت أولاها أقربها إلى البداية، فبدأت بالفعل الذي انضوى تحت الأولى وهو (جعل)، وتميزت نهايته بأسلوبها المختلف.

ويبدأ نسق آخر بقوله تعالى: (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(74)، حيث يصدر بنهي يتبعه تعليل: (إن الله يعلم...)(74)، ثم تتوالى مجموعة من الأنساق المنبنية على هذه القاعدة: -(ضرب الله مثلا عبدا ...)(75)

-(وضرب الله مثلا رجلين...)(76)

ويتفرع من كل واحد منها أنساق متوازية، فالأول يبدأ بـ:

-(ضرب الله مثلا):-وتتفرع منه مفسرة له:

-(عبدا مملوكا): ويتردد المعنى

-(لا يقدر على شيء)

-(ومن رزقناه منا رزقا حسنا)، ويتفرع منه- (فهو ينفق منه سرا وجهرا)، ويختم بـ☹هل يستوون)، وهذا أيضا عدول بالأسلوب، من الخبر إلى الإنشاء الاستفهامي، في هذا

الموقع ليجني به غاية النسق،ثم يتلوه الجواب، وكأنه مسافة تقوم بين الاستفهام وهذه العبارة هي منطقة فراغ يملؤها المخاطب،"فلما قال هنا: (هل يستوون) فكأن الخصم قال له: لا، فقال: الحمد لله ظهرت الحجة"(1). أما الثاني: (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)(76).

فيتشكل على النحو التالي:-

-(ضرب الله مثلا...) ويتفرع منها مفسرا لها، ومصورا ماهية المثل:

-(رجلين) يتشعب منها شعبتان؛ الأولى:

-(أحدهما: (أبكم)-(لا يقدر على شيء))

-(وهو كلٌّ على مولاه) وتفسرها:

-(أينما يوجهه لا يأت بخير).

والشعبة الثانية -(من يأمر بالعدل (وهو على صراط مستقيم). ويتوسط الأولى والثانية: (هل يستوي هو و)، لتقوم بوظيفة الموازنة بين الكفتين(الأولى والثانية). وكما جاء في الآية (75)(هل يستوون)، جاءت في هذه الآية: (هل يستوي)،ليحدث ذلك تناظرا وترابطا فوق الروابط العديدة. ومن الآيات التي جمعت بين التفريع والتوازي الآيتان: (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا...)(80) و (والله جعل لكم مما خلق ظلالا)(81)، وبينهما تواز، وكل واحدة منهما انضوت في ثناياها أنساق متوازية، فالأولى تتمثل هكذا:

- (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا)(80)، وتتميز هذه الجملة ببدئها بلفظ الجلالة صريحا، وبكونها جملة اسمية تحوي جملا فعلية .... ثم تتناظر وهذه الجملة الفعلية (جعل لكم...) جملة أخرى على شاكلتها:
- (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ...)، يتفرع منها : - (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم...)(80)، وتتوازى والجملتين السابقتين:
- (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)(80)، وهي لا تختتم بخاتمة تعترض بينها وبين تاليتها، أما الثانية فيتجدد فيها ما بدأت به الأولى:
- (والله جعل لكم مما خلق ظلالا....)(81)، وتتفرع منها، بطريقة سابقتها:
- (وجعل لكم من الجبال أكنانا)
- (وجعل لكم سرابيل ← تقيكم الحر)

---

1) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5، ص503

- (وسرابيل تقيكم بأسكم)

وتختم بـ – (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون)(81)

ويبدو هذا النسق متطورا ومتناميا، ويلحظ ذلك بتتبع النسق من الآية الأولى إلى الثانية إذ تضمنت الآية الأولى بنيتين فرعيتين وتضمنت الثانية ثلاثة، واكتمل النسق الفرعي بعناصره في الأولى مرة، وذلك بذكر الفعل في أوله،وألحقت الجملة الثانية به في العطف دون التصريح بالفعل، واكتمل النسق الفرعي بعناصره في الثانية مرتين، وعطف الثالث عطفا. وخلت الآية الأولى من هذا النسق من خاتمة، وجاءت الثانية مختومة بخاتمة متدرجة؛ إذ أن (كذلك يتم نعمته عليكم) مهدت لـ (لعلكم تسلمون)(81)وهو قريب مما يسمونه الإرصاد، "وهو: أن يجعل قبل العجز من الفقرة، أو البيت ما يدل على العجز، إذا عرف الروي، كقوله تعالى: (وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)"(1).

ويبدأ نسق يتناول مشهدا من مشاهد يوم القيامة، مفتتحا بعبارة: (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا...)(84). وتتوارد فيها التفاصيل عن الكفار ومصيرهم والمشركين وخصوماتهم، وتنتهي ب(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)(88). وينتهي هذا الموقف ليظل في الذاكرة، وليشكل مرتكزا لتابعه، الذي يبدأ بمثل ما بدأ: (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم)، ويبدأ التمايز بين النسقين بذكر محمد عليه الصلاة والسلام. (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء)، ويتلوه: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(89)، واللافت في أمر هذين النسقين التباين في فحوى كل منهما؛ إذ الأول زاخر بمواقف العذاب والخسران والذم اللاحق بالكفار، وهو مختوم بـ (زدناهم عذابا....)، والثاني ليس فيه شيء من ذلك، وفحواه ذكر الكتاب وأحكامه وهداه ورحمته....، أما خاتمة هذا فعلى النقيض من خاتمة ذاك (.. وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(89)، والمهم هنا أن ذلك أمره انقضى والعذاب على من استحقه قد وجب، أما هذا فالأمل فيه قائم والاستبشار فيه ظاهر، ولعل ذكر النبى عليه السلام بواسطة الضمير العائد إليه بوصفه صاحب الرسالة الحاضرة والخالدة تناسب مع هذا المضمون، واكتفى بالنسق السابق منذرا بالعذاب الذي سيلحق كل من نَهَجَ نَهْجَ أولئك الموصوفين فيه... ويحدث هذا الربط اشتراك النسقين ببداية واحدة... وبعد هذا يشرع بذكر ذلك البيان الذي حواه الكتاب، وكان بيانا لكل شيء، وهذا البيان الشامل بنية كلية، تتفرع منها بنية أخرى، وهي:

---

1) القزويني: الإيضاح، ج2، ص347

-(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى

-وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي

وختم بـ (يعظكم لعلكم تذكرون)(90). وتنضوي في هذه البنية بنى جزئية، هي بالنسبة لما يليها خطوط عريضة، وهي إيجابية: (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)، وسلبية: (الفحشاء والمنكر والبغي)، "وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية"(1)، ومتفرعاتها هي:

- (وأوفوا بعهد الله)/ إيجابي
- (ولا تنقضوا الأيمان)/ سلبي

ويختم بـ (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)(91).

ويأتي مجاوبا له وموازيا:

- (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها ...)
- (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم..)

ويختم بـ (إنما يبلوكم الله به)(92)، ويتصل بسابقه بالضمير، ويعطف عليه (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون)(92)، وهي تربط الزمنين الدنيوي والأخروي، وتتوازى هذه وسابقتها باتحاد صاحب الفاعلية فيها، وهو الله سبحانه، وينتقل من الاختلاف إلى التوحيد: (تختلفون)(92) إلى (ولو شاء لجعلكم أمة واحدة)(93)، ويتكرر فيها كثير من معنى السابقة في، (ولتسألن عما كنتم تعملون)(93)، وهو الحساب أو يوم القيامة وكلاهما يقع في نهاية الآية. ثم يعود الحديث عن الوفاء بالأيمان والعهود.

- (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم)(94)، وينتهي بمثل ما انتهى به السابق:
- (ولكم عذاب عظيم)(94)، ويستمر هذا التوازي:
- (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا)(95)، ويظل التوازي والتناظر في النهايات
- (إنما عند الله هو خير لكم...)(95).

وهكذا يظل هذا الترابط قائما في بنى السورة، ويتخذ أشكالا متعددة... ويحضر في النص ذكر إبراهيم عليه السلام، الذي يمثل امتدادا في الزمن الماضي، ونموذجا بشريا، تجسدت فيه تلك العقيدة التي ظهرت في أنساق السورة والأحكام التي توالت في آياتها، ويبدأ ذلك بهذه البنية الكلية أو المجملة ؛

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص103

- (إن إبراهيم كان أمة ...)(120)، وفيها "وجهان: (أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير..والثاني أن يكون أمة بمعنى مأموم: أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير"(1)، ويتوازى معها مفصلا لها:

- (قانتا لله حنيفا)، ويردفه بـ

- (ولم يك من المشركين)(120)، بالسلب بعد الإثبات، والأولى موجهة للكل والثانية يلحظ فيها مشركو العرب، "ونفى عنه الشرك، تكذيبا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم"(2)، ويتوازى النسق بالآيات اللاحقة:

- (شاكرا لأنعمه)

- (اجتباه)

- (وهداه إلى صراط مستقيم)(121)، وتجمل الآية اللاحقة شخصية إبراهيم التي فصلتها الآيتان قبلها، وتأتي بها من أطرافها في زمني الدنيا والآخرة:

- (وآتيناه في الدنيا حسنة)

- (وإنه في الآخرة لمن الصالحين)(122)

وتظهران خطين إيجابيين متوازيين ومتناظرين.

وتتصل بها الآية التالية؛ لتظهر تاليه في الزمن ونظيره: (محمد عليه الصلاة والسلام) ودعوته الممتدة إلى الزمن المستقبل، بعد أن استمدت امتدادا من الزمن الماضي باتصالها بملة إبراهيم.

– (ثم أوحينا إليك إن اتبع ملة إبراهيم حنيفا)(123)، ولعل من المفيد هنا الالتفات إلى موقع (حنيفا)من الإعراب التي تتراوح بين أن تكون حالا لإبراهيم عليه السلام، أو حالا لمحمد عليه السلام، "قال مكي ولا يكون يعني (حنيفا) حالا من إبراهيم؛ لأنه مضاف إليه"(3) و "(حنيفا) حال من إبراهيم المضاف إليه لما أن المضاف لشدة اتصاله جرى منه مجرى البعض"(4). وقد يشير هذا إلى شدة التشابك بين رسالة إبراهيم عليه السلام ورسالة الإسلام، وتدخل في البنية المتعلقة بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم عبارة من البنية السابقة مع تغيير في شكل الفعل، فهي في الأولى: (لم يك)، وفي هذه☹ وما كان من المشركين)(123)، لتدل على أن المنطلق الزمني صار زمن رسالة الإسلام، وهي الحاضرة... فهي الحاكمة على

1) الزمخشري: الكشاف،ج2، ص433

2) نفسه: ج2، ص343

3) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط، ج5،، ص529

4) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص252

السابقة، وكما كان موضوع إبراهيم عيه السلام في الآيات السابقة منطلقا لتعزيز دعوة الإسلام ولتكذيب ادعاء مشركي العرب، ظل الموضوع ذاته كذلك في الآية التالية، ولكنه الآن رد على اليهود وإبطال دعواهم: (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه...)(114) "فإن اليهود كانوا يزعمون أن السبت من شعائر الإسلام، وأن إبراهيم عليه السلام كان محافظا عليه"(1)، وهم بذلك يريدون إثبات اتصالهم بشريعته عليه السلام، فنفت الآية عنهم ذلك، وبهذا أصبحت ملة إبراهيم بنية فكرية تلتف حولها الدعوات المتباينة، ثم تنفض عنها إلا واحدة، فإنها تلتحم بها وتتواصل معها. وبعد أن اتضح سبيل الحق من بين تلك السبل المعوجة جاءت الدعوة إليه صريحة:

- (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ...)(125)، ويبقى من لم يسلك هذه السبيل حاضرا في النص ومنهم مشركو قريش واليهود – عبر:
- (وجادلهم بالتي هي أحسن ...)، وتتوازى هذه الطريقة مع الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ويتصل آخر الآية بأولها بالحديث عن السبل.
- (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله..)(125)، وتتولد منها نظيرتها:
- (وهو أعلم بالمهتدين)(125).

ويتوازى الصراع الفكري والصراع العسكري، والأول تجسده الآية السابقة: بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال، و "الجدل: شدة الفتل، ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلا أي غلبته"(2)، وليس المقصود بالصراع أنه شخصي، ولكن المقصود صراع الأفكار وإبطالها والثاني قائم على القتال المادي؛ بوسائله المحققة لغايته، ويظهر ذلك بما تشير إليه الآية التالية:

- (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به..)(126)، ونزلت تعالج شأنا من شؤون الجهاد، و "الذي عليه العامة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى حمزة، وقد مثلوا به، قال: والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل بخواتيم سورة النحل، فكف رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأمسك عما أراد"(3). ويبقى الرفق والشدة متوازيين في الآيتين هذه والتي قبلها مع تفاوت في الحضور.

---

1) نفسه : ج14، ص252

2) ابن منظور: لسان العرب، باب اللام، فصل الجيم

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص142

والحالة الأولى هي الدعوة ويرافقها الرفق:(بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن)والحالة الثانية هي القتال، ومفرداتها، معاقبة المعتدي بمثل إعتدائه، ويقدم عليها الصبر عن ذلك: (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)(126)، ثم تصبح هذه الخاتمة قاعدة يستمر تدفقها في الآية التالية:

- (واصبر وما صبرك إلا بالله)(127). ويتلو الصبر في الوجود عدم الحزن بمعنى عدم الأسى، (ولا تحزن عليهم)، "أي على الكافرين وكفرهم وعدم متابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين"(1)، ويردف الأمر بالصبر بما يضمن له التحقق:(وما صبرك إلا بالله)؛ "ولما كان الصبر في هذا المقام شاقا شديدا ذكر بعده ما يفيد سهولته، فقال: (وما صبرك إلا بالله)، أي بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السبب الكلي والأصلي المفيد في حصول الصبر وفي حصول أنواع الطاعات. ولما ذكر هذا السبب الكلي الأصلي ذكر بعده ما هو السبب الجزئي القريب فقال: ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون"(2).

وتجلو الآية: (125) الحالة الفكرية، وتميل تاليتها إلى الحالة العسكرية، وتعالج الآية (127) والأخيرة الحالة النفسية.

وبعد فقد كانت هذه الأنساق بتفرعها والتئامها مظهرا من مظاهر الحركة في السورة، ولكنها حركة الانتظام، وكان التوازي صفة غالبة على أنساق السورة، وتشكل النص من بنى جزئية التحمت فشكلت البنية الكلية، وظلت نواة تلك البنية هي الدعوة إلى التوحيد ومقتضياته، ونفي أضدادهما.

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص258

2) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص143، 144

النسق المتصاعد

للنصوص وسائل عدة تسهم في حبكها ورفع مستوى النصية فيها، ومنها ما يعرف بالاستمرارية الدلالية، "...والمعيار الثاني من معايير النصية هو الحبك... وهو معيار يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص.. ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم... والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم"(1)، وما يميز هذه الوسيلة أنها تتسع لتشمل النص كله، وليست محصورة في نطاق الجملة. والنص القرآني المعجز هو في تماسكه كالجملة الواحدة، والجملة فيه كالكلمة الواحدة.

وسأتناول في هذا الإطار شكلا من أشكال الاستمرار الدلالي، وهو الشكل المتصاعد في وتيرته والمتنامي في دلالته،ويتقاطع هذا الشكل وما يعرف بالترقي، ومنه ترق من الأدنى إلى الأعلى، وترق من الأعلى إلى الأدنى(2)، وليس يهمنا اتجاه الترقي بقدر ما تهمنا ظاهرة التنامي في الخطاب، وهو في بعض أحواله، استدراج(3) للمتلقي من مرحلة إلى أخرى، وبين المرحلتين تجانس دلالي ونفسي، غير أن تفاوت الشحنة الدلالية والنفسية جعل إحداهما تعلو على الأخرى. وقد ظهر هذا الشكل في مواضع عدة من السورة ولنبدأ بالآية الرابعة عشرة.

تتدرج معاني الآية: (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه)(14)من الأعلى إلى الأدنى، وهذا التدرج هو بالنسبة للتسخير الذي أرسته الجملة الأولى، الواقع بدوره في معرض المن من الله سبحانه على عباده، وأقوى المظاهر لذلك هو الأكل فجاء أولا، ثم المظهر الجمالي، وتدرج من المظهر الجمالي المتصل بالمخاطب والمضاف إليه: (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)، إلى المظهر الذي يستمتع المخاطب برؤيته: (وترى الفلك مواخر فيه)، ولا يظهر في هذه الأخيرة أن المخاطب منتفع نفعا ماديا، وإن كان المنظر يترك فيه أثرا نفسيا طيبا. ويتوقف هذا التسلسل في المعاني عند قوله تعالى: (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)(14)، التي تجمل وجوه الانتفاع وتستغرق أحواله: وقد مهدت لتاليتها، ومكنتها من تحقيق غايتها.

---

1) مصلوح، سعد: نحو أجرومية للنص الشعري،: ص155، عن: جميل عبد الحميد: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م ، ص 141

2) انظر: السيوطي: الإتقان ، ج3، ص40

3) انظر : اليمني: الطراز، ج2ص281، 282

ويتصاعد ذم الكفار من خلال ذم معبوداتهم، وذلك بالهبوط بها من منزلـــة إلـــى منزلـــة، وليس يخفى أن هذا أوقع في النفس من إلقاء الذم الأخير مرة واحدة، ذلك واضح في قوله تعـالى: (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون(20)أموات غير أحياء ومـــا يشـــعرون أيان يبعثون(21)). والمعيار الأول الذي محصوا به هـــو القـــدرة علـــى الخلـــق، وقـــد كـــان استحضارهم إلى هذه الساحة توطئة لتحقيرهم، ذلك أن الخلق أمر عظيم، لا قبل لهم به، وحالـــهم فيه كحال من سلط عليه ضوء فخطف بصره، فهم "(لا يخلقون شيئا) من الأشياء أصلا، أي ليس من شأنهم ذلك"(1)، ثم بعد هذه المواجهة الصعبة ارتطموا فوصلوا إلى مستوى الصفـــر، ومـــا لبثوا أن وصلوا إليه حتى اتصلت بهم صفتهم اللصيقة: (وهم يخلقون)، وهي في هذا الموقـــع ذات أثر خاص، فهي من آثار المحاكمة الآنفة، فهم ليسوا عاجزين عن خلق غيرهم وحسب، ولكنـــهم مخلوقون لغيرهم. ولا يتوقف أمرهم عند هذا الحد، بل تستمر عملية الكشف عن حقيقتهم، فـــإذا بهم دون مرتبة كثير من المخلوقات في افتقارهم إلى صفة الحياة: (أموات)، أي أنهم "جمـــادات لا حياة فيها"(2)، وهذه الصفة على ضآلتها، يتخذون منها الموقع الأدنى، وتلتصـــق بـــهم التصاقـــا أبديا، فهم: (أموات غير أحياء)، ما "يعني أن من الأموات ما يعقب موتها حياة، كـــالنطف التـــي ينشئها الله حيوانا، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأما الحجارة، فأموات لا يعقب موتـــها حياة، وذلك أعرق في موتها"(3). أما قوله تعالى: (وما يشعرون أيان يبعثون)(21) فتـــأتي بعـــد الوصول بهم إلى أدنى المراتب التي لا مزيد عليها، وهي تتوازى والدلالات السابقة.

ويتنامى التهديد للكفار في قوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يـــأتي أمـــر ربك..)(33) من التهديد بـــإنزال الملائكـــة بـــالعذاب أو المـــوت، "يعنـــي أن تأتيـــهم لقبـــض الأرواح"(4)، إلى التهديد بالعذاب الشامل، فقد "كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد أو أتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال"(5)، أو القيامة، وهذا التنـــامي الدلالي ذو بعد نفسي يعمـــق به الشعور بالخوف بايصالهم إلى مرحلتـــه الأولـــى ولـــم يكونـــوا يستطيعون دفعها، ثم الانطلاق بهم إلى ما يليها.

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص119

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص406

3) نفسه: ج2، ص406

4) نفسه:ج2، ص408

5) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص26

ويبرز في الآية: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شـــيء نحـن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء...)(35)صوت الكفار متفردا، محاولا إثبات دعـوى الكفـر في أمر العقيدة، متخذا في الإنكار نسقا متصاعدا، من إنكار كون شركهم مغضبا لله عز وجــل، إلى إنكار كون عبادتهم لغيره، مغضبة له، ثم إلى إنكار كون تشريعاتهم مخالفة لإرادته سـبحانه وفي أثناء ذلك درجات عالية من التوكيد، فقد بينوا موقفهم في مسألة العبادة: (ولو شـاء الله مـا عبدنا من دونه من شيء)؛ مؤكدين ذلك بالضمير المنفصل: (نحن)، ثم انطلقوا من الحديث عـن أنفسهم إلى إلحاق آبائهم بهم. وفي أمر التشريع تناهوا في الإتيان على الأشياء التـي حرموهـا، وذلك بقولهم: (ولا حرمنا من دونه من شيء)، "فمن الأولى: بيانيـة، والثانيـة: زائـدة لتـأكيد الاستغراق"(1). وكذا فعلوا في الأولى: (ما عبدنا من دونه من شيء)... ويكشف هذا عن مـدى الاعتداد الذي كانت تكنه نفوسهم.

وينطلق الخطاب في قوله تعالى: (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنـهم فـي الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)(41) من الأجر الدنيوي إلى الأجر الأخـروي، ومن الحاضر المحدود إلى المغيب المستمر، وكأن هذا الأجر مقدمة لذاك، أو وصلة إليه، "وعـن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء، قال: خذ بارك الله لك فيـه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر"(2). وربما أشعرت عبارة: (لو كـانوا يعلمون) بعدم القدرة على تصور مدى ذاك الجزاء لسعته واختلاف نوعه.

وتتدرج الآيات الخامسة والأربعون والسادسة والأربعون والسابعة والأربعون في تـهديدها للكفار من الأعلى إلى الأدنى، لتنتهي بهم إلى استقراب الرأفة والرحمة. فقد بدأت الأولى بـأعلى ما تكون عليه الشدة: (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض...)(45) خسـفا، أي سؤوخا للأرض بما عليها، "وخسف الله به الأرض أي غاب به فيها"(3)، ما يعني أنه سـيكون فناء تاما، دالا على مقدار الغضب وموجباته، وتهبط درجة التهديد قليلا عند قولـه: (أو يأتيـهم العذاب من حيث لا يشعرون)(45)، لكنه يظل شاملا، وتبقى فاعليته سريعة وغير متقطعة، وفـي الآية التالية يختلف شكل الأخذ: (أو يأخذهم في تقلبهم)، أي "في مسايرهم ومتـاجرهم وأسـباب دنياهم"(4)، وفي هذه الطبقة تلميح بالحياة الآمنة، التي يمكن أن يضمنوا استقرارها، وفي الآيـة

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص135
2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص410
3) ابن منظور: لسان العرب، حرف الفاء، فصل الخاء المعجمة
4) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص411

الأخيرة يدلف النسق إلى درجة دنيا من درجات التهديد تسمح لهم باستبقاء شيء من الأمل بعدم الوقوع في مسبباتها: (أو يأخذهم على تخوف)(47)، وفي تفسير التخوف وجهان، (الأول): أن يكون "التخوف تفعل من الخوف... والمعنى أنه تعالى لا يأخذهم بالعذاب، أولا بل يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعده، وتلك الإخافة، هو أنه تعالى يهلك فرقة فتخاف التي تليها... (و القول الثاني) أن التخوف هو التنقص... والمعنى أنه تعالى لا يعاجلهم بالعذاب، ولكن ينقص من أطراف بلادهم التي تجاورهم"(1)، وينتهي النسق بقوله تعالى: (فإن ربكم لرؤوف رحيم)(47)، وتتجلى في هذا التعبير غاية النسق، وهي استنقاذ الناس من العذاب، وردهم إلى ربهم الغفور الرحيم، ولا يخفى ما أضافته الإضافة في (ربهم) وما أفادته كلمة (رب)، حيث التعبير "بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير الخطاب من آثار رحمته جل شأنه"(2)

وثمة تطور دلالي نلحظه في الأمر بإفراد الله بالتقوى، وذلك بالانتقال به من الأسلوب الطلبي في قوله: (فإيى فارهبون)(51) إلى أسلوب الاستفهام الإنكاري في قوله: (أفغير الله تتقون)(52)، ويتخللهما تذكير بأدلة على ذلك: (وله ما في السموات والأرض وله الدين واصبا) وهي تجمل الأدلة التي توزعت في الآيات السابقة على اختلافها ما أوصل الخطاب إلى هذه الحالة من التنامي، بعد أن ارتفعت هذه الفكرة عالية بالأدلة التي احتشدت عليها وتراكمت.

وتجلو الآيتان الثامنة والخمسون والتاسعة والخمسون الحالة النفسية للكفار المبشرين بولادة الأنثى، وتكشف عن تنامي الغضب في نفوسهم متصاعدا من القلب المملوء حنقا إلى الوجه المسود، ثم إلى محاولة إخفاء النفس فمحاولة إخفاء المولودة، بحبسها في البيت، لكنه ينتهي إلى إخفائها إخفاء تاما إلى الأبد بدسها في التراب.

فهو حين بشر بالأنثى (ظل وجهه مسودا وهو كظيم)(58)، فقد نشط الخبر أولا في قلبه فامتلأ حنقا، فلم يستطع قلبه الاتساع له، فصعد إلى وجهه، فاسود واغتم، وظهرت حالته مزرية ومزعجة فحاول التخفي بنفسه، فأخذ (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به)(59)، وهنا فكر في إخفاء سبب ذلك الإحساس مبتدئا بالاحتمال الضعيف: (أيمسكه على هون) أي"على هوان وذل"(3)، وهذا ما لا تطيقه نفسه، ولا ينهي المشكلة. (أم يدسه في التراب)(59) وهذا ما يطفئ الغضب فيختاره، ولم يختر قتلها فحسب، ولكنه اختار تغييبها بكليتها.

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص39،40

2) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص153

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص414

وتتعرض الآية: (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون)(73) لآلهة الكفار المزعومة، فيتصاعد الخطاب في بيان عجزها عن توفير الرزق بالسقوط من مرتبة إلى مرتبة، فإذا سقطوا من الأولى أسقطتهم عنها الثانية، فلا ينفكون كذلك حتى يصلوا إلى قرارة العجز،وأول عجزهم عن الرزق عجز عن الإتيان به من السماء، وهو "الغيث الذي يأتي من جهة السماء"(1)، وإنهم وقد انقطعت أسبابهم من السماء يسقطون إلى الأرض فلا يستطيعون من الأرض نباتا أو غيره، فتوصد بذلك دونهم أبواب الرزق من السماء ومن الأرض. ويتأكد عجزهم بكلمة (شيئا) التي تعني أنهم "لا يملكون رزقا لا قليلا ولا كثيرا"(2)،وحتى لا يتوهم متوهم أنه يمكنهم الإتيان بالرزق، وإن لم يملكوا ذلك في وقت من الأوقات، هبطت بهم الآية إلى أسفل الدركات: (ولا يستطيعون) فهم "لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتي ذلك منهم ولا يستقيم"(3)

ويمكن لنا أن نتتبع صفة من صفات الكفار، وهي التكذيب، ونرى كيف تطورت عبر السورة.

ونلمح أول إرهاصاتها في قوله تعالى: (فإذا هو خصيم مبين)(4)، ولا سيما أن أحد معانيها الإنكار، فهو "خصيم لربه: منكر على خالقه، قائل: من يحيي العظام وهي رميم، وصفا للإنسان بالإفراط بالوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة"(4)، ولكن هذا المعنى ليس صريحا في الآية، وليست دلالتها عليه قطعية. فهي تحتمل وجها آخر، وهو "فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم"(5).

وفي طور آخر يظهر الإنكار صريحا، في قوله: (إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون)(23)، ولكنه – كما يبدو – ليس إنكار العارف الذي أشارت إليه آية لاحقة وهي: (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون)(83)، إنما هو إنكار الجاهل، فـ"قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها"(6)، ولم

---

1) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص84

2) نفسه: ج20، ص 84

3) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص420

4) نفسه: ج2، ص401

5) نفسه: ج2، ص401

6) نفسه: ج2، ص406

يظهر من موقفهم هذا هجوم منهم على الإسلام، أو تنفير للناس عنه وبعده مباشرة وجه للكفار سؤال عن ماهية ما أنزل الله فكان الجواب أساطير الأولين.(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين)(24)، وبه انتقلوا نقلة بعيدة في التكذيب، بل الافتراء، وتأتي أول إشارة صريحة في وصفهم بالكذب في الآية: (ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين وميزة هذه الآية أنها تحمل وصفا من الله للكفار بالكذب، وسبقت بقوله: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون)(38).

وقد يقال إن السورة بدأت بالحديث عن المشركين وشركهم، وتخللها بعد ذلك حديث عن كفرهم، فالتكذيب حاصل من أولها! والصحيح أن التكذيب المبحوث عنه هنا يختلف عن الشرك أو يتميز عنه، مع اتفاقهما بالكفر، بمعنى أن المقصود بالتكذيب هو تكذيب الأخبار الملقاة إليهم، أو الأفكار التي يدعون إليها، وليس مطلق الشرك أو الضلال، وإلا فقد كانوا مشركين وضالين قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، لكننا لا نستطيع وصفهم آنذاك بالتكذيب .

وفي الآية السادسة الخمسين يتنامى وصف القرآن لهم بالتكذيب، لتصبح صفتهم الافتراء: (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون)(56)، ونحن هنا نفرق بين ما يصدر عنهم من تكذيب وافتراء، وما يصفهم الله به، فثمة خطان متوازيان. والافتراء الاختلاق، وهو أشد الكذب "وافتراه:اختلقه"(1)، ثم يتطور هذا الوصف لتصبح ألسنتهم تصف الكذب، وتجلو حقيقته:(وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى)(62). ويتكرر وصفهم بالافتراء في قوله تعالى: (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وألئك هم الكاذبون)(105) بأسلوب الحصر، وكأن الافتراء مقصور عليهم، وكأنهم الكاذبون وحدهم، وإذا كان ذلك الافتراء والتكذيب فيما يتعلق بالعقيدة، وهذا الأرجح فهم كذلك على الحقيقة، وتعود السورة على جعل ألسنتهم آلة الكذب في قوله تعالى: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون)(116)، بتوجيه الخطاب إليهم مباشرة، وبأسلوب النهي، ما يدل على أن وجود الصفة فيهم أمر مفروغ منه، ولكنهم منهيون عن مزاولتها، وهذا أوج هذه الحركة المتنامية، وقد احتشدت الآية بصفات الافتراء المنسوبة إلى الكفار.

---

1) ابن منظور: لسان العرب، باب الراء والياء من المعتل،فصل الفاء.

والجدير بالذكر أن هذا النسق كان يتصاعد كلما عرض على الكفار أمر من أمور الإســلام فرفضوه، وكان النص بعد كل رفض يثير أدلة جديدة، فلا تجدي معهم.

المتعاطفات

وتستوقف الدارس ظاهرة في السورة تتعلق في المتعاطفات، ولا سيما المفـــردات داخـل الأنساق، حيث تعددت تلك المتعاطفات وتلاحمت، ورغم أن العطف كان بالواو، وهـــي لا تفيـد ترتيبا، إذ هي لمطلق الجمع، إلا إن تلك المتعاطفات خضعـــت فـــي ترتيبـها واقترانـــها إلـــى نظام...والمتعاطفات في آيات السورة مقترنة في الوجود ومتناظرة، ولكن اقترانها فـــي النـص أكسبها أبعادا جديدة.

وكانت تلك المتعاطفات من النوع المألوف، ومن أشياء تؤدي دورا حيويا، ليكون القـــرآن بقرب مفرداته من الواقع محيلا عليه بسهولة، ثم يصبح الواقع محيلا على القرآن، وهكذا.. ونجد ذلك في قوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون)(8)، وهـــذه حيوانات متجانسة تعيش في بيئة واحدة، ويعرفها العرب ويستخدمونها، فكان اختيارها لاتصالـــها بحياة المخاطبين، وهي متقاربة في طبيعتها ومهامها، والدليل على تقصد هذه المخلوقات، قولـــه: (ويخلق ما لا تعلمون)، وهي كثيرة، ومنها ما كان موجودا أيام نزول القرآن، لكـــن المخـــاطبين يجهلونها وما دامت تلك المخلوقات على تلك الحالة من التجانس فهي بالضرورة مضمومة فـــي النفوس، وأحدها يستدعي الآخر، فلذلك ضمت في النص.

وربما يلحظ المتلقي أن ثمة ترتيبا في تلك المتعاطفات، وتفاوتا في تمثل ما وصفت بـــه، وهو الركوب والزينة، فالخيل أولها ثم البغال ثم الحمير... ومن أغراض الـــترتيب "التشـــريف، كتقديم الذكر على الأنثى... والخيل في قوله: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها)"(1).

وننتقل إلى متعاطفات أخرى في قوله تعالى: (ينبت لكم به الـــزرع والزيتـون والنخيـل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)(11)، وهي كذلك متجانسة، فهي مـن طعام الإنسان، وهي مألوفة ومجتمعة في بيئة واحدة، وهي في النص لغاية واحدة، تؤديها علـــى وجه التحقيق، هي التدليل على وحدانية الخالق، و"النبات الذي ينبته الله من ماء السماء قسـمان: أحدهما معد لرعي الأنعام، والثاني: ما كان مخلوقا لأكل الإنسان، وهو المراد من قوله (ينبـــت لكم به الزرع والزيتون)"(2)، ويتسم هذا العطف بالاستقصاء، إذ ذكر أبرز ما يؤكل من النبـــات

---

1) السيوطي: الإتقان، ج3، ص35

2) الرازي: التفسير الكبير، ج19، ص239

ثم أحاط به بقوله: (ومن كل الثمرات)، والزرع إشارة إلى الحبوب، والبقية ذات خصائص متفاوتة... وهذه المتعاطفات بهذه التشكيلة تضفي حسا بالجمال وتترك في النفس أثرا طيبا.

ويتلو هذه الآية مباشرة قولة: (وسخر لكم اليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)(62). وتحمل هذه المتعاطفات صفات طبيعية متقاربة، يجمعها العلو والتأثير البالغ في حياة أهل الأرض؛ إذ أن انتظامها يجعل الحياة على ظهر الأرض ممكنة، وهي مقترنة في الوجود من خلال أدائها وظائف متكاملة، إلا أن الذي حققه النص هو إحضارها إلى أذهان المتلقين مجتمعة لتتكثف دلالتها؛ إذ أن المتلقين ربما ألفوها، فأدت ألفتها إلى عدم الالتفات إلى عظيم أثرها، أو أنهم إن تصوروها تصوروها متفرقة، أو أنهم إن تصوروها لم يستدلوا بها على حقيقة الوجود وعقيدة التوحيد.

ويتناظر فيها (اليل والنهار)و(الشمس والقمر)، وتفرد النجوم، والعلاقة بين المتناظر منها واضحة، إذ يتعاقب الليل والنهار وكذا الشمس والقمر، (وهو الذي جعل اليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا)(1). وقد نلتمس أسبابا لتقديم الليل على النهار، وتقدم الشمس على القمر، تتمثل في قوة (الليل) الإيحائية، وظهور أثره، إذ أن غياب الشمس وحلول الظلام ربما كان أوقع في نفس الإنسان وأقرب إلى تذكيره بعظمة الخالق وضآلته هو، ثم يأتي النهار الذي ينسخ الليل ويضيء الأرض، فيتبين للناس أثر الخالق وقدرته على تسخيره. أما الشمس فهي أظهر في الدلالة من القمر؛ لعظمتها وأثرها...

وتقترن الجبال والأنهار والسبل في قوله تعالى: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهار وسبلا لعلكم تهتدون)(15)، وتفاعل هذه المتعاطفات مع بعضها يترك للمتلقي فكرة عامة، هي الاهتداء، وأول أسباب الاهتداء استقرار الأرض المشار إليه بقوله (أن تميد بكم)، أي "كراهة أن تميد بكم وتضطرب"(2) والأنهار والسبل معالم للاهتداء، وسبل إليها. وترتبط الجبال والأنهار علاقة، إذ "ثبت في العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبال ذكرها..."(3).

1) سورة الفرقان:62

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص404

3) الرازي: التفسير الكبير، ج20، ص10

وتتعاطف حاستا السمع والبصر، وتصلان إلى الفؤاد: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)(78). وهذه الآلات أدنى إلى حدوثِ الشكر الناتج عن الوعي، والسمع والبصر حواس، والثالث العقل، والإحساس شرط في التفكير، وهو أول خطواته، وربما قدم السمع لسعة فاعليته بالقياس إلى البصر، فقيود حدوثه أقل من قيود البصر.

ويلحظ في قوله تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون...)(68) تدرج في بيوت النحل، من البعيد والطبيعي إلى الأقرب، فهي تبدأ بالجبال البعيدة ثم بالشجر التي قد يكون للإنسان فيها يد، ثم إلى ما "يعرشه الناس أي يرفعه من الكروم"(1).

وتدور حول الأنعام متعاطفات من نتاجها، وفيها النفع للإنسان: (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين)(8)، ويزيد هذا التعدد من ظهور تفضل الله سبحانه على عباده، ويدل على انتفاعهم بالأنعام انتفاعات كثيرة، وتشترك تلك المتعاطفات في تكوين الحس بالسكينة والاستراحة؛ لأن الأثاث والمتاع من لزوميات السكن، "وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف"(2)، ولعله أردفه بقوله: (إلى حين) خشية الركون إليها، وفي ذلك ركون إلى الدنيا.

وتشيع متعاطفات الآية: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(89) إحساسا بعناية الله سبحانه بالمسلمين، وتتدرج تلك المتعاطفات من المهم فالأهم، حيث الهدى أعلاهن مرتبة، والحاجة إليه أمس، وتتلوه الرحمة، لأن من توافرت له سبل الهداية يخطئ فيحتاج إلى الرحمة، وقد يستبعد بعض الناس استحقاقه الرحمة، فيحتاج إلى التبشير.

وتستقصي الآية: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)(90) كل أصناف الخير، فتأمر بها، وكل أصناف الشر فتنهى عنها، والدلالة العامة من تلك المتعاطفات. هي دلالة الحث على مكارم الأخلاق في هذا الجو اللطيف، الذي يترك القلوب وقد أسلست له واندمجت فيه، لذلك كثرت الروايات التي تثبت تأثر العرب بالآية، حتى من لم يؤمنوا منهم (3) وتجد في متعاطفات الآية: (فأذاقها الله لباس

---

1) الألوسي: روح المعاني، ج14، ص182

2) الزمخشري: الكشاف، ج2، ص422

3) انظر: الرازي: التفسير الكبير، ، ج20، ص102، 103

الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)(112) اقترانا بين الجوع الخوف، وهما ما همـــا للإنســـان، وقدم الجوع على الخوف، لأنه إن استمر هلك الإنسان، وليس كذلك الخوف.

وتشترك المتعاطفات في قوله: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلـــهم بالتي هي أحسن....)(125) في استنادها إلى الحجة، على تفاوت فيما بينـــها، وأولـــها الحكمـــة، وهي "الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشـــرف الدرجـــات ... وثانيها الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة، وثالثها: الدلائل التي يكـون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم ... وذلك هو الجدل"(1)، وتتفاوت الثلاثة باتصافها بـــالقطع، فالأولى قطعية لأنها من الإحكام، والثانية تمازجها المشاعر، لأن الوعظ هو"النصـــح والتذكـــير بالعواقب"(2)، والثالث يلحظ منه مشاركة من الطرف الآخر بمحاولة دحض الحجج.

---

1) نفسه: ج20، ص140

2) ابن منظور: لسان العرب، حرف الظاء المعجمة، فصل الواو

الخاتمة

هذه أبرز النتائج التي توصلت اليها في هذه الدراسة التي تحمل.. عنـوان :" ظواهـر أسـلوبية وفنية في سورة النحل "، وفقا للمنهج ،الذي بينته في المقدمة .ويمكن اجمالها على النحو الآتـي -:

1 – كشفت الدراسة الصوتية للسورة وجود توازن في ايقاعها، تجلـى فـي تـوزع مقاطعـها وتتاليها. وظهر في آياتها انسجام موسيقي قائم على المواءمة بين الأصوات المرققة والمفخمـة، والموازنة بين الأصوات الطويلة في مدتها والقصيرة، وانسجمت الصوامت مع الحركات فـأحدث ذلك جرسا خاصا . . . وارتفعت الصورة بايقاعها وانسجام أصواتها عن النثر وتمـيزت بـهما عن الشعر.

2 – تشكلت الفاصلة من أصوات النون والميم والراء –على الترتيب– وسـبقت أصـوات مـد متنوعة، وشكلت من الآيات نهاياتها، فحققت بفضل تلك الخصائص انسجاما موسيقيا.

3 – ظهرت علاقة طبيعية بين أصوات بعض الكلمات ودلالاتها، الامر الـذي عـزز الدلالـة العرفية، ولونها, وأغناها.

4 – أبرزت الدراسة ألفاظا وتعبيرات اتسمت بغنى دلالاتها، وكثافة إيحاءاتها، ما ترك للمتلقـي مساحة واسعة للتفاعل والنص ومحاولة الوصول الي غاياته.

5 – تضافر أسلوب الشرط مع غيره في إحكام الروابط داخل النص وتنظيـم علاقاتـه، وكـان لاختلاف الأداة أثر في توجيه الدلالة.

6 – أدى أسلوب الحال دورا تصويريا، بتسليطه الأنظار على أحوال مقصودة ومختارة، مـبرزا اياها راهنة حية، وقد كان منها الماضي المنقطع والمستقبل الغائب والحاضر الراهن.

7 – كان للتقديم دوره في إظهار العناية بالمقدم، ولفت انتباه المتلقى إليه، وذلك بإحضـاره إلـى الذهن أولا ليكون أصلا، وما يتلوه ملحقا.

8 – أشاعت الجمل الفعلية بأفعالها المضارعة في السورة جو الحركة، وأسهمت في تصوير المواقف المختلفة، وتجلت المعاني العقدية اليقينية في الأفعال الماضية والجمل الاسمية. وقلت نسبة أفعال الأمر في السورة، وقد يكون لطبيعتها المكية علاقة بذلك.

9 – ازدحمت السورة بالمؤكدات، وحظيت معاني العقيدة منها بالنصيب الأوفر، شأنها في ذلك شأن السورة المكية، وكان لكل شكل من أشكال التوكيد خصوصية دلالية.

10 – كثر في السورة خروج الاستفهام عن أصله، فأفاد أغراضا دلالية أخرى، برز منها التقرير والإنكار والتوبيخ والتهديد. ولاءم ذلك جو الدعوة المكية، وعلى صعيد البنية كان الاستفهام سببا من أسباب الحركة، ومظهرا من مظاهر التحول والعدول.

11 – شكلت الصورة الفنية في السورة الاستعارة والتشبيه والمجاز، وقد تفاعلت مع السياق، فتعزز بذلك نشاطها، وتضاعف به أثرها.

12 – أكسب الالتفات النص تحركا وتلونا، واستمدت منه المعاني فاعلية خاصة، حين كان يعدل بالنص من الخطاب إلى الغيبة، أومن الغيبة إلى الخطاب.

13 – تمحورت الحركة الضدية حول حركة أساسية تمثلت في العلاقة بين الإسلام والكفر، فكانت تلك العلاقة النواة الصلبة للثنائيات الفرعية.

14 – اتخذت الأنساق من العقيدة الإسلامية وفكرة التوحيد بؤرتها ونواتها، فتمحورت الأنساق الفرعية حولها، وتولدت منها، على نحو منتظم، وتجلى ذلك الانتظام بالأنساق المتفرعة المتوازية، وقد ختمت بخواتم أحكمتها، وحفظت لها وجودها، ومكنتها من أداء غايتها.

15 – ظهر في الأنساق نسق متصاعد في وتيرته، متنام في دلالته، كان له أثر في الارتقاء بالمتلقي فكريا ونفسيا، وحقق ذلك للنص حيوية عالية.

16 – وبعد، فقد اتسمت هذه السورة المكية بقوة في التعبيرات وحرارة فيها، وتجلت في لغتها الحركة الدائبة المنتظمة، في إطار نسج لغوي محكم، الأمر الذي يستدعي إلى الأذهان خلية النحل بنشاطها وانتظامها، في بنيتها وأدائها.

ملخص

ظواهر أسلوبية وفنية في سورة النحل

تتناول هذه الدراسة سورة النحل، وفق المنهج الأسلوبي؛ وهو منـــهج يتمحــور حــول معطيات علم اللغة العام، ويستثمر فروع اللغة المختلفة استثمارا نقديا وجماليا،كما تتناول الدراسة الجوانب الفنية في السورة. وفيها مساحة للأنساق التي شكلت نسيج السورة، وألفت بنيتها الكلية.

وهي بهذا تجمع بين الدراسة الأسلوبية والفنية مظللة إياها بدراســة الأنســاق المتمــيزة بسعة نطاقها، الشامل للنص كله بعلاقاته وتشكيلاته.

أما الدراسة الأسلوبية فقد تجلت فيها المستويات الصوتية واللفظية والتركيبة، وبدت فيــها خصائص أسلوبية أخرى. وكانت حصيلتها غايات دلالية، وسمات جمالية.

وشكلت الصورة الفنية الاستعارة والتشــبيه والمجــاز. واســهمت الثنائيــات الضديــة والالتفاتات في منح النص حركة وحيوية.

أما الأنساق فقد شكلت نسيج السورة، وهي أنساق كلية، تمحورت حول نــواة مركزيــة. وتولدت منها أنساق فرعية متوازية، وكان لتلك الأنساق دور واضح في اتساق النص وانتظامــه وإحكام نسجه.

وقد استقام البحث في ثلاثة فصول؛ جعلت الأول منها دراسة أسلوبية والثــاني دراســة فنية، أما الثالث فقد تناولت فيه أنساق السورة.

ABSTRACT

Stylistic and Artistic Features in An-Nahl Sura

This study fell into three chapters: stylistics, artistry and text consistency of the sura. The study employd the stylistic revealing the stylistic features in An-Nahl sura (chapter). This approach revolved around general linguistics data. It also invested other branches of language critically and aesthetically. Furthermore, the study dwelt on the artistic features in the sura. The sura's room for consistency has formed its fabric and harmonized its total structure. In so doing, the study synthesized between the stylistic and artistic investigation, coupled with large-scale distinctive consistency, covering all the text interrelationships and variations.

The stylistic study was crystal clear phonetic, sound and structure levels. There were also other stylistic features, the results of which were semiotic and aesthetic characteristics. The artistic imagery comprised of metaphors, similes and other figures of speech. These images contributed to dualism thus giving vividness and excitement to the text. Consistency gave shape to fabric of the sura. This consistency was comprehensive and centered around one central point and from which parallel secondary consistencies emerged. This consistency itself had an obvious role in the text consistency, regularity and fabric rules.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلي: المثل السائر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية – بيروت 1995م.
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان:
   - الخصائص، حققه: محمد علي النجار، ط(2)، بلا تاريخ.
   - سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم–دمشق، ط(2) 1993م.
4. ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان: أمالي ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، دار عمار– عمان، دار الجيل– بيروت، 1989م.
5. ابن خلدون، عبد الرحمن:مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار ابن خلدون – الإسكندرية، بلا تاريخ.
6. ابن عقيل العقيلي الهمداني المصري، بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بلا تاريخ.
7. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم المقاييس في اللغة، حققه: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر– بيروت، ط(1) 1994م.
8. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ط(1) 1327هـ.
9. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر– بيروت، ط(3)،1994م.
10. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث –القاهرة، بلا تاريخ.
11. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ.
12. ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي: شرح المفصل، عالم الكتب – بيروت، مكتبة المتنبي– القاهرة، بلا تاريخ.
13. أبو العدوس، يوسف: المجاز المرسل والكناية، الأبعاد المعرفية والجمالية، الأهلية للنشر والتوزيع – عمان، ط(1) 1998م.

14. أبو موسى، محمد حسنين: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، بلا تاريخ.
15. الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن: شرح كافية ابن الحاجب، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت، ط(1)، 1998م.
16. الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بلا تاريخ.
17. أمين، أحمد : فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية –بالقاهرة– ط(9) 1964م.
18. الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد: الإنصاف في مسائل الخلاف، ومعه الانتصاف من الإنصاف؛ تأليف محمد محيي الدين، ط(4)، 1961م.
19. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف: البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض ، وشارك في تحقيقه: د. زكريا عبد المجيد النوتي و د. أحمد النجولي معوض، دار الكتب العلمية –بيروت ، ط1، 1993م.
20. أنيس، إبراهيم:
- الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط(5) ،1975م.
- دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط(3)، 1976م.
- موسيقى الشعر، دار القلم –بيروت، ط(4)، 1972م.
21. إيفانكوس، خوسيه ماريا بوثويلو: نظرية اللغة الأدبية، ترجمة: د. حامد أبو حامد– مكتبة غريب بالفجالة، ط(1) ، 1988م.
22. باختين، ميخائيل: الكلمة في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق،ط(1)، 1988م.
23. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد احمد صقر ، دار المعارف، بمصر، ط(3)، بلا تاريخ.
24. بدوي، أحمد: من بلاغة القرآن، مكتبة النهضة، القاهرة، ط(3) 1950م.
25. براون، (ج، ب) و يول، (ج): تحليل الخطاب ، ترجمة وتعليق: د. محمد لطفي الزليطي و د. منير التركي، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، 1997م.
26. البغدادي، أبو طاهر بن حيدر: قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تحقيق: محمد عياض عجيل، مؤسسة الرسالة، ط(1)، 1981م.
27. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرج آياته وأحاديثه ووضح حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية–بيروت، ط(1) 1995م.

28. البوطي، محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن ، مكتبة الفارابي ، دمشق ، ط(2)، 1970م.
29. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مؤسسة شعبان - بيروت، بلا تاريخ.
30. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: الإعجاز والإيجاز، تعليق اسكندر آصاف،المكتبة العمومية - بمصر ط(1) 1897م.
31. الجاحظ، عمرو بن بحر : الحيوان، تحقيق :عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط(1)1956م.
32. الجرجاني، عبد القاهر:
- أسرار البلاغة في علم البيان، صححه علق حواشيه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة- بيروت، 1978م
- دلائل الإعجاز، دار المعرفة - بيروت، صحح أصله: علامتا المعقول والمنقول: الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والأستاذ اللغوي المحدث الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، 1978م.
33. الجويني، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف: البرهان في أصول الفقه، علق عليه وخرج أحاديثه: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط(1)، بلا تاريخ.
34. جويو، جان ماري: مسائل فلسفة الفن المعاصر، ترجمة: سامي الدروبي، دار الفكر العربي - القاهرة، ط(1)، 1948م.
35. حسان، تمام:
- البيان في روائع القرآن، عالم الكتب- القاهرة، ط(1)،1993م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م.
36. حسين، عبد القادر: البلاغة القيمة لبلاغة القرآن، دار غريب - القاهرة، 1998م.
37. الحملاوي، أحمد: شذا العرف في فن الصرف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت،1991م.
38. الحموي، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله: خزانة الأدب، تحقيق : عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط(1)،1987م.
39. حميدة ، مصطفى : نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجان، ط(1) 1997م.
40. خليل، إبراهيم: الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ط(1)، 1997م.

41. الرازي، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين: تفسير الفخر الرازي: المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ط(1)، 1981م.

42. الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي- بيروت، بلا تاريخ.

43. الرماني، علي بن عيسى:النكت في إعجاز القران، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق: محمد زغلول سلام ومحمد خلف الله، دار المعارف - القاهرة، بلا تاريخ.

44. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة- بيروت، ط(2)، بلا تاريخ.

45. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر:

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بلا تاريخ.
- المفصل في علم العربية، وبذيله كتاب المفضل في شرح أبيات المفصل للسيد محمد بدر الدين أبي فراس النعساني الحلبي، دار الجيل - بيروت، ط(2)، بلا تاريخ.

46. السامرائي، فاضل: معاني الأبنية في العربية، ساعدت جامعة بغداد على نشره، ط(1)، 1981م.

47. السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط(1)، 1983م.

48. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - بالقاهرة، دار الرفاعي - بالرياض، ط(2)،1988م.

49. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن:

- الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث- القاهرة، ط(3)،1985م.
- الإتقان في علوم القرآن، الملاح، دمشق، ط(1)، 1987م
- المزهر في علوم اللغة وانو أعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوي، دار التراث - القاهرة، ط(3)، بلا تاريخ.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بلا تاريخ.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، عني بتصحيحه: السيد محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة - بيروت، بلا تاريخ.

50. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 1983م.
51. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية- بيروت، بلا تاريخ.
52. الصابوني، محمد علي : صفوة التفاسير، دار الصابوني، ط(9)، بلا تاريخ.
53. الطبرسي،أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، صححه وحققه: هاشم الرسولي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، ط(1)،1992م.
54. عبد الجليل، عبد القادر: هندسة المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي، رؤية لسانية حديثة، دار صفاء للنشر والتوزيع- عمان، ط(1)، 1998م.
55. عبد الحميد، جميل: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.
56. عبد القادر، حامد: دراسات في علم النفس الأدبي، المطبعة النموذجية، ط(1)،بلا تاريخ.
57. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله:
- كتاب الصناعتين ،تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ط(1)، 1952م.
- الفروق في اللغة، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط(3) 1979م.
58. العكبري، أبو البقاء محب الدين عبد الله الحسين بن أبي البقاء: التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ.
59. العمادي، أبو السعود محمد بن محمد: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط(1)، بلا تاريخ.
60. عمر، أحمد مختار: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب- القاهرة، ط(1)، بلا تاريخ.
61. عياد، شكري محمد: موسيقى الشعر العربي – مشروع دراسة علمية، دار المعرفة- القاهرة، ط(2)، 1978م.
62. الغانمي، سعيد: أقنعة النص – قراءات نقدية في الأدب، دار الشؤون الثقافية – بغداد، ط(1)، 1991م.
63. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد: معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ، محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980م.
64. فضل، صلاح: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، مؤسسة مختار – القاهرة 1992م.

65. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي – القاهرة، 1967م.

66. القزويني، جلال الدين عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني:

– الإيضاح في علوم البلاغة، بتحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، اختارها وأشرف عليها شيخ الكلية، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة، بلا تاريخ.

– التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي–بيروت، بلا تاريخ.

67. قطب، سيد:

– التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط(4)، 1978م.

– في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط(7)، 1971م.

68. القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: الرعاية، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الكتب العربية، بلا تاريخ.

69. لوتمان، يوري: تحليل النص الشعري، بنية القصيدة، ترجمة وتقديم وتعليق: د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف–القاهرة، 1955م.

70. المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد : المقتضب ، تحقيق : عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب – بيروت ، بلا تاريخ.

71. مرتاض،عبد الملك: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة – الكويت، 1998م.

72. المصري، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام : رسالة المباحث المرضية ، الملحق، تحقيق : د. مازن المبارك ، دار ابن كثير – دمشق ، ط (1)،بلا تاريخ.

73. المطعني، عبد العظيم إبراهيم: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مكتبة وهبة – القاهرة، ط(1)، 1999م.

74. مفتاح، محمد: التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، ط(1)، 1996م.

75. ملحس، محمد سعيد محمد علي : أحكام تجويد القرآن، شركة عبد الرحمن حجاوي – نابلس، ط(14)، بلا تاريخ.

76. النابلسي، عبد الغني: نفحات الأزهار على نسمات الأسحار، عالم الكتب – بيروت، مكتبة المتنبي – القاهرة، بلا تاريخ.

77. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل: إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية – بيروت، ط(3)، 1988م.

78. النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: تفسير النسفي، دار الكتاب العربي – بيروت، بلا تاريخ.

79. النورسي، بديع الزمان سعيد: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار الأنبار، ط(1)، 1989م.

80. اليمني، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية – بيروت، بلا تاريخ.

الدوريات:

1. البلقاء: للبحوث والدراسات، جامعة عمان الأهلية، المجلد الرابع، العدد الثاني، كانون أول 1996م:

- القيسي، عودة الله منيع: أسلوب الشرط المجازي في القرآن بالأداة (إن).

2. مجلة العربي وزارة الإعلام–الكويت، العدد 507، فبراير 2001م:

- عصفور جابر: تكرار التشبيه.

3. مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، الفلاح للنشر والتوزيع:

- مفتاح، محمد : بعض خصائص الخطاب، ذوالقعدة 1420هـ.
- ويس، أحمد محمد : جماليات التقديم والتأخير في الدرس البلاغي، 1998م، المجلد السابع، الجزء التاسع والعشرون.

4. مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب:

- ابو ديب، كمال: الأنساق والبنية، المجلد الأول، العدد الرابع، يوليو 1981م.
- عياد، محمود: الأسلوبية الحديثة، محاولة تعريف، المجلد الأول، العدد الثاني، يناير 1981م.
- فضل، صلاح: بنية الشكل البلاغي، ربيع 1992م.
- فضل، صلاح: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، المجلد الأول، العدد الرابع، يوليو 1981م.

فهرس الموضوعات